مكتبات المساجد

دراسة تاريخية

تأليف

د. ملكي بن نسيب السباعي

ترجمة

د. هاشم فرحات سيد   د. محمد جلال الغندور

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

ح مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤٢٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
السباعي، محمد مكي
مكتبات المساجد.. دراسة تاريخية ./ محمد مكي السباعي؛ هاشم فرحات؛ محمد جلال غندور .ـ الرياض، ١٤٢٦هـ.
٣٣٢ ص؛ ١٧×٢٤ سم (كتب مترجمة؛ ٦)
ردمك: ٣-٤٧- ٨٩٠- ٩٩٦٠
١ ـ مكتبات المساجد أ. فرحات، هاشم (مترجم) ب. غندور، محمد جلال (مترجم) ج. العنوان د. السلسلة
ديوي ٢٦,٢ ٠ ١٤٢٦/٤٢٦٥

رقم الإيداع: ١٤٢٦/٤٢٦٥
ردمك: ٣-٤٧-٨٩٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية:

Mosque Libraaries: An Historical Study. By: Mohamed Makki Sibai.

London: Mansell Publishing Limited, 1987.

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
ص . ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ /فاكس ٤٦٥٩٩٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

إهداء

إلى الروح الطيبة: روح الوالد المربي، نسيب السباعي
تغمده الله بواسع رحمته.

- نهدي إليك ثمرة من ثمرات غرسك الطيب، وتربيتك الصالحة.
- نهدي إليك هذه الثمرة الطيبة التي طالما تاقت نفوسنا إلى إخراجها من طي الكتمان إلى دائرة النور، اعترافاً بقيمتها العلمية وحبّاً لمن أنتجها، وتقديراً لتواضعه، وإخلاصه، وأمانته، وغيرها من القيم الراقية التي يتخذها أبو فيصل منهاجاً لحياته.

المترجمان

مقدمة الترجمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الخلق ، وخاتم النبيين والمرسلين ، نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه وتمسك بسنته إلى يوم الدين ، وبعد :

فعلى الرغم من أهمية الترجمة ، التي لا يختلف اثنان على ضرورتها ، وحيوية الدور الذي تؤديه في حياتنا من جميع جوانبها الثقافية والعلمية وغيرهما ، إلا أننا ترددنا عند ترجمة هذا العمل الذي بين أيدينا ، لأسباب كثيرة ، فمن ناحية أولى، من الملاحظ أن هذا العمل قد مضى على إعداده وقت ليس بقصير ، ومن ناحية ثانية أن هذا العمل قدم في الأصل كرسالة علمية للحصول على درجة الدكتوراه من إحدى الجامعات البريطانية ، ومن المعروف أن كثيراً من تلك الأعمال الأكاديمية عادة ما تسيطر عليه النظرة المنهجية المقيدة بظروف المجتمع الأكاديمي الذي تقدم إليه ، ومنهج المدرسة التي ينتمي إليها المشرف عليها ، فضلاً عن سمات الجمهور الذي توجه إليه، ناهيك عن الظروف النفسية التي تحيط بالباحث في إثناء إعدادها ... إلى غير ذلك من ظروف يعرفها كل من ارتبط بالمجتمع الأكاديمي دراسة وبحثاً ، وبخاصة المجتمع الأكاديمي الغربي، ومن ناحية ثالثة أن الكتاب يتضمن اقتباسات كثيرة من نصوص عربية، قد لا تتوافر لنا في الوقت الحالي ، ومن ثم يصعب ترجمتها وردها إلى أصلها العربي كاملة دقيقة دون تصحيف أو تحريف غير مقصود ،

ومن ناحية رابعة ، أن مؤلف هذا العمل ليس أجنبيًّا، بل عربي مسلم من بني جلدتنا ، ومعاصر لنا - أمدَّ الله في عمره وبارك له فيه -، ومن ثم فقد يبدو من باب أولى أن يضطلع هو بمهمة الترجمة ، ومما لا شك فيه أن أداءه سوف يفوق كل جهد لآخرين غيره ، وبالتالي ستخرج الترجمة في أكمل وجه

أمام هذه الأسباب ، وعن قناعة بقيمة هذا العمل ، وضرورة نقله إلى اللغة العربية ، حيث يتناول موضوعاً رغم ارتباطه بهويتنا وثقافتنا وتاريخنا، تندر الكتابة عنه بشكل مستقل ، وقلما اهتم به الباحثون في مجال المكتبات من قبل، بل إن ما كتب عنه جاء متفرقًا عبر مصادر متعددة، ومبثوثًا في سياق بعض الكتابات التاريخية التي تتناول جانبًا أو أكثر من بعض جوانب الحياة الثقافية العربية، وأمام الرفض التام من جانب المؤلف واعتذاره عن ترجمة كتابه - بالطبع تواضعاً وليس عجزاً - رأينا أن نقدم على هذه المهمة، وأن نتحمل تبعاتها عن طيب خاطر، على رغم ما فيها من مشقة وعناء.

ومن منطلق أن هذا العمل كان في أصله موجهاً للقارئ الأجنبي ، وللمجتمع غير مسلم في الأساس، فقد رأينا - وبعد استئذان المؤلف - أن تكون الترجمة بتصرف هي سبيلنا ؛ حيث حذفت بعض الفقرات من أصلها الأجنبي، وصيغت فقرات أخرى بما يتلاءم وثقافة القارئ العربي ، كما أضيفت بعض الجزئيات الأخرى التي استلزم السياق إضافتها . وفضلاً عن ذلك حرصنا على التعريب في كثير من المواقع ، وبخاصة بالنسبة لأسماء الأعلام والأماكن. ولعل مما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن التحدي الحقيقي لنا تمثل في عملية تحقيق الاقتباسات العربية التي ترجمها المؤلف من مصادرها الأصلية، ومحاولة رد هذه الاقتباسات إلى أصولها ونقلها بصياغتها الأصلية ، وقد تفضل المؤلف -

مشكوراً ـ بالاضطلاع بالجزء الأكبر من هذه المهمة.

ومن نافلة القول، أننا حاولنا الالتزام الدقيق بأسلوب المؤلف في صياغة الاستشهادات المرجعية التي وردت في أسفل الصفحات من متن الكتاب، وفي كتابة المصادر المرجعية التي أفردت لها قائمة مستقلة في نهاية الكتاب، على الرغم مما لنا من تحفظات على هذا الأسلوب .

تلكم كلمة رأينا أن نصدر بها صفحات هذا الكتاب الذي شرفنا ـ فعلاً ـ بنقله إلى القارئ العربي، وهي كلمة مقتضبة لا نستطيع من خلالها أن نوفي الكتاب حقه، أو أن نقدر بها المؤلف حق قدره؛ فالكتاب جد ثمين في موضوعه ومحتواه، والمؤلف فريد بين بني جنسه وأقرانه، وغني عن التعريف، وعن التحدث عنه، فالجميع يعرف قدره، وأكاد أجزم بأن للأخ الكريم الدكتور محمد مكي السباعي مكانة خاصة في نفوس جميع من يعرفونه عن قرب ويتعاملون معه ، بل وفي نفوس من لا يعرفونه وتناقلت إليهم مكارم أخلاقه، ولا شك أن هذه المكانة لم تتأت من فراغ ، بل فرضها على الجميع تواضعه الجم، وخلقه الدمث ، وروحه الطيبة ، وفكره الراسخ الأصيل.

ونحن إذ نقدم هذه الترجمة إلى القارئ العربي، نرجو أن نكون قد وفقنا في ذلك ، فقد اجتهدنا قدر الاستطاعة، وما توفيقنا إلا بالله، سائلينه ـ سبحانه ـ أن ينفع بهذا العمل، وأن يجزي مؤلفه عنه خير الجزاء، إنه هو نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المترجمان

مقدمة المؤلف

نزل الوحي على نبينا محمد ﷺ ، فكان قرآناً كريماً ، أملاه على كُتّاب الوحي ، فدون على سعف النخيل، ورقائق الحجارة ، واللحاء العريض . . . وحفظ في الصدور، إلى أن شاء الله . ثمّ نُسخ هذا القرآن بجهد العقيدة وقوتها، وبحماس يدعمه الإيمان، فصار كتاباً . وعندما حان الوقت المناسب أودع الجوامع والمساجد بمباركة من كافة المسلمين على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم الاجتماعية . وبذلك يُعد القرآن الكريم من أولى فئات الكتب التي وجدت لها موضعاً في المسجد .

قدمت نسخ القرآن الكريم كاملة أو في أجزاء إلى المساجد، مغلفة بالروح الإسلامية السمحة، المشبعة بالرحمة والتواضع والإخاء ، ليس فقط كهدية كريمة، بل كإرث روحي يجسد كل ما جاء به الإسلام الحنيف من قيم ومبادئ . وفي البداية كان عدد هذه النسخ متواضعًا ، ولكن مع احتضان المسلمين لتقنيات الكتابة وفنونها، وتوافر مواد التدوين ووسائله ، واقتران ذلك بتطور الثقافة الإسلامية وعلومها ، بدأت المصاحف ومجموعات الكتب الأخرى ذات الموضوعات المتباينة تأخذ طريقها إلى المساجد . وبمرور الوقت تنامت هذه المجموعات وارتقت نوعاً وكمّاً لتصبح نواة مكتبات المساجد ، بكل ما تحمله كلمة مكتبة من معنى .

وعلى الرغم من إجماع غالبية المؤرخين والباحثين على اعتبار مكتبات

المساجد إحدى المقومات الأساسية لقطاع المكتبات في العالم الإسلامي، فإن القليل منهم من تعرض للكتابة عن هذا الموضوع. وبصرف النظر عن بضع مقالات متناثرة هنا وهناك، وبعض الإشارات السريعة التي وردت في أعمال متفرقة كتبت لأغراض دينية وأدبية وفكرية مختلفة ، فإنه لا توجد أية كتابات باللغة العربية أو غيرها، كُرست خصيصاً لدراسة التطور التاريخي لهذا النوع من المكتبات، أو لتوضيح علاقته الوثيقة بالثقافة العربية ، وبنظام التعليم في الإسلام. وعلى كل حال ، فإن القارئ سيدرك بنفسه أن مكتبات المساجد، بمقتنياتها وخدماتها المتنوعة، قد أدّت دوراً أكثر حيوية وأعظم أثراً في تاريخ الحضارة الإسلامية مما عزاه لها الباحثون المسلمون أو غير المسلمين في كتاباتهم المنشورة .

لذا ؛ فإن هذا الكتاب يسعى جاهداً إلى تصحيح هذا الوضع البحثي غير المنصف، وذلك من خلال تقديم رؤية علمية شاملة ترتكز على منهجية البحث التاريخي في معالجة الموضوعات المطروحة. ويتتبع هذا العمل البدايات الأولى لمكتبات المساجد وخلفية نشأتها. كما يُعنى بوضع تصور متعمق لماهية هذه المكتبات وطريقة تنظيمها، وذلك بغرض تقديم صورة واضحة لمكوناتها المادية، وعملياتها الفنية، وسبل تقديم خدماتها. كما يسعى إلى تزويد القارئ بمعلومات مهمة عن طبيعة مقتنيات تلك المكتبات، وتنوع موضوعاتها، والقيمة التراثية الحقيقية التي تمثلها مجموعات كتبها . ويتناول الكتاب أيضاً، بالشرح والتفسير، عدداً من القضايا المهمة، من ذلك ما يتعلق بتمويل هذا

النوع من المكتبات، وأسلوب إدارتها ، وسياسات التزويد والإعارة التي استخدمت بها، والمعايير التي كانت تتبع لدعمها وصيانتها، مستعيناً في ذلك ببليوجرافية تتصف بالشمولية والعمق التخصصي.

وقد توخينا في إطار هذا البحث إثبات التواريخ بصورة ثنائية (هجري / ميلادي)، حيث تمّ تدوين السنة الهجرية أولاً ثُم الميلادية. كما راعينا في إيراد المراجع، الإشارة إليها بشكل مختصر في سياق النص، ثم ذكر اسم المرجع كاملاً حسب ترتيبه في قائمة المراجع. وهذا الكتاب ما هو إلا جزء من رسالة قُدمت لنيل درجة علمية ببلد أجنبي. ومن ثمّ فقد تضمنت ـ كما تضمن الكتاب ـ شروحات وتفسيرات ضرورية لفهم الموضوع من قبل القارئ الغربي، بينما هي ـ في الوقت ذاته ـ من بدهيات الأمور بالنسبة للقارئ العربي.

مقدمـة الكتاب

تضرب مكتبات المساجد بجذورها في أعماق الحضارة الإسلامية. لذا، فإن دراسة هذا النوع من المكتبات والتعرف على أنشطتها يُعد من الأمور الصعبة، ما لم يسبق ذلك تفهماً لمبادئ الإسلام وقيمه الروحية، وبالتالي معطيات البيئة التاريخية والدينية والتعليمية التي نشأت فيها هذه المكتبات وترعرعت في أحضانها. وترتبط القيم في القرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة، كما صيغت الأخلاقيات في إطار من الأوامر الربانية. لذا نجد في الإسلام أن الإيمان الصحيح يتمثل في قيم ومفاهيم سلوكية مذابة في رحيق هذا الدين الحنيف، مثل الإحسان، والصبر، والوفاء بالوعد، والعرفان بالجميل، والمروءة، والعفو عند المقدرة، وإكرام الوالدين، وغيرها من القيم التي تضبط سلوك الإنسان المسلم.

وقد تبدت عظمة الإسلام في إظهار مرونة كبيرة كحضارة وليدة تمكنت من استيعاب الثقافات المختلفة والاستفادة منها. وقد نجحت في ذلك نجاحاً كبيراً مع كثير من الثقافات العالمية، كالثقافة الرومانية، واليونانية، والفارسية، والهندية، والصينية وغيرها من ثقافات الحضارات القديمة التي سبقتها عبر التاريخ الإنساني. وتجلت العبقرية الإسلامية بحرصها أن لا تفقد هذه الثقافات هويتها الفكرية، أو أصالتها القومية، مما نتج عنه تولد حضارة إسلامية عربية عالمية. ولذا، فإنه لا عجب أن يطلق على هذه الحقبة من الزمن، التي استمرت من

حوالي القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر الميلادي، اسم «العصر الذهبي للإسلام»(١).

كما كان لظهور الإسلام في مطلع القرن السابع الميلادي، أثره الكبير في إحداث تغيرات جذرية في جميع أوجه الحياة، وفي مسيرة الحضارة الإنسانية. ويعدّ كثير من المؤرخين ظهور الإسلام فجراً جديداً في التاريخ الطويل للإنسانية جمعاء. ومن المؤكد أن تأثيره على الحياة الثقافية والفكرية في المنطقة كان عميقاً ومتصفاً بالديمومة. وقد أحدث الدين الجديد صحوة فكرية واهتماماً متزايداً بالعملية التعليمية، حيث أكد على كون التعليم مُرتكزاً أساسيّاً في المجتمع الإسلامي، وأنه لا يقتصر على طبقة اجتماعية محددة - كما كان عليه الحال قبل الإسلام - بل يجب أن يمتد ليشمل جميع المسلمين بكافة فئاتهم وطبقاتهم(٢). وقد تجسدت هذه المفاهيم في أول آية كريمة نزلت على النبي ﷺ، لتحثه وصحابته الكرام على العلم والتعلم: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾(٣).

جسدت رسالة الإسلام ثورة عظمى وتحدياً كبيراً للمجتمع الجاهلي الذي سادت فيه مظاهر الأمية، والممارسات الشفوية لنقل المعرفة وتواصلها، فبجانب العقيدة الإسلامية التي نادت بالتوحيد، وأمرت به كدعامة أساسية للدين

---

(١) A.L. Tibawi . Islamic Education... p. 21.

(٢) Munir -ud- Din Ahmed, pp. 25-28.

(٣) سورة العلق، الآية ١-٥.

الجديد، كان هناك الجانب الآخر من الرسالة الذي ركز على التعليم كضرورة أساسية لكل مسلم، ليس فقط لفهم أفضل لتعاليم هذا الدين، بل كذلك لنشر ما تعلمه المسلم بين إخوانه المسلمين (١)، وقد روي عن النبي ﷺ في هذا الصدد قوله: «***إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به من بعده أو ولد صالح يدعو له***»(٢). وتتضح مظاهر تلك الصحوة التعليمية التي غرسها الإسلام في نفوس المسلمين فيما هو مأثور من أن المسلمين كانوا يخيرون أسرى المشركين ما بين دفع الفدية أو تعليم عشرة من أبنائهم القراءة والكتابة، وذلك مقابل إطلاق سراحهم(٣).

ولهذا كان من الطبيعي مع انتشار الإسلام، أن يوقر الغالبية العظمى من المسلمين، غنيهم وفقيرهم، شبابهم وشيوخهم من العلماء، ويقدرون الكتب أيما تقدير. وقد ورد في كتابات العديد من المؤلفين عبارات تشير إلى هذه الحقيقة وتؤكدها؛ من هذه العبارات قول الجاحظ: «والكتاب صامت ما أسكتّه، وبليغ ما استنطقته، مسامر لا يبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك»(٤)، ويروي محي الدين العربي عن أحد العلماء أنه قال: «ما رأيت بستاناً يحمل في ردن، وروضة تنقل في حجر، ينطق عن الموتى ويترجم

---

(١) Abddul Halim Mahmoud, pp 5-1-. And Mohiaddin Alwaye, " The Acquisition...) pp. 1-4.

(٢) محمد بن صالح بن عثيمين، ص٥.

(٣) Raymond C. Gibson, p. 40.

(٤) Ahmad Shalaby, p.75.

عن الأحياء مثل الكتاب»[١]، وهذا أبو جعفر أحمد بن رضا المالقي ينشد قائلاً:

ليس المدامة مما أستريح له ولا مجاوبــة الأوتار والنغـم

وإنما لذتي كتب أطــالعه وخادمي أبداً في تصرفي قلمي[٢]

وبمرور الزمن ترسخت مفاهيم التزود بالمعرفة في الوجدان الديني والروحي للمجتمعات الإسلامية. وقد كان الرسول ﷺ وراء هذه الصحوة التعليمية. وعلى الرغم من كونه أمّياً لا يعرف القراءة والكتابة، إلا أنه كان حريصاً على الحث على العلم والتعلم، وقد روي عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قوله: ***«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع»***[٣].

وقد تركز التعليم منذ بداية الحضارة الإسلامية على تعلم القرآن الكريم وتعليمه، بغية تفهمه وترسيخ مفاهيمه، والتبشير به ونشره، ومع تأكيد القرآن الكريم في أكثر من موضع على أن الرسول ﷺ هو المعلم الأول لما أنزل عليه من الوحي، إلا أنه لم يكن كغيره من المعلمين، فهو معلم لا يرجو جزاءً ولا شكوراً، إلا من الله عز وجل[٤]. وكان ﷺ يقوم بتفسير ما يستعصي فهمه من آي

(١) المصدر السابق، ص٧٦.

(٢) خوليان ريبيرا، ٥: ٨١.

(٣) محمد بن صالح بن عثيمين، ص٧.

(٤) A. L. Tibawi, " Muslim Education..." , p.419.

الذكر الحكيم، كما أرسى ﷺ في دعوته قاعدتين عمليتين لكل منهما مغزاها التربوي ؛ حيث دعا في أولاهما المتعلمين من المسلمين إلى تعليم إخوانهم من غير المتعلمين. أما القاعدة الثانية فكانت حرصه ﷺ على أن لا يرسل في دعوته لغير المسلمين إلا من كان متعلماً ومتفقهاً في أمور الدين والدنيا. ومع انتشار الدعوة تزايدت أعداد المساجد، ولم يكن دورها مقتصراً على الصلاة والعبادة، بل أصبحت مراكز للتعلم وتحصيل المعرفة. فلا عجب إذاً أن يصبح المسجد أول مدرسة في المجتمع الإسلامي (١).

وعليه أصبحت المساجد ـ كما كان الحال في الأديرة والكنائس المسيحية ـ من أول الأماكن التي وجدت بها الكتب في المجتمعات الإسلامية، ولاشك في أن نشأة مكتبات المساجد تزامنت مع استخدام المسلمين للمساجد كمراكز تعليمية. وعلى الرغم من أن معظم المساجد كانت تحتوى على مكتبات متواضعة، إلا أن بعضها احتضن بين جدرانه، مجموعات ضخمة من الكتب ذات قيمة مادية ومعنوية كبيرة، وحظيت بشهرة واسعة في الدولة الإسلامية.

ومع تزايد أهمية الدور الذي يؤديه المسجد في العملية التعليمية، أصبح لزاماً على المعلمين أن يواكبوا هذا الدور، فيقومون بالتحضير الجيد للدروس التي يلقونها، ويحيلون طلابهم إلى أفضل المراجع في الموضوعات المطروحة في حلقات العلم. لذا توافرت الكتب وازدادت أعدادها في المساجد، على امتداد

A. L. Tibawi, Islamic education, . 24 . (١)

البلاد الإسلامية من الصين شرقاً إلى إسبانيا غرباً .

وقد تزامن تطور مكتبات المساجد مع النمو السريع لأنواع المكتبات الأخرى، والمؤسسات التعليمية التي ازدهرت على امتداد العالم الإسلامي، كما كان لزيادة الوعي لدى المسلمين بأهمية القراءة والكتابة، الأثر الكبير في تحول بعض المكتبات إلى مراكز تعليمية من الطراز الأول. وتعد مكتبة « بيت الحكمة » في بغداد إحدى الأمثلة الشهيرة في هذا المجال، حيث تطورت تلك المكتبة إلى أكاديمية تعليمية يشار إليها بالبنان. ويصف المقريزي مكتبة زارها في شيراز في أواخر القرن العاشر الميلادي، فيذكر أنه كان بها صالة لعرض الكتب، كما وُجِد مكتبي يشرف على مقتنياتها، ويختار من خيرة عناصر المجتمع وأكثرهم ثقة، وكانت تحتوي على نسخ من كافة الكتب التي صدرت حتى ذلك الحين. وكان مبناها يتكون من قاعة مستطيلة ملحقة بغرفة حفظ الكتب، ترتفع عن الأرض فيما يزيد قليلاً على قامة المرء، كما يوجد بها ثلاث قاعات فسيحة، مزدانة بالخزف المزخرف حيث تكتسي حوائطها من الداخل بأرفف خشبية ترتفع من الأرض وحتى السقف، وتنظم عليها الكتب حسب المجالات الموضوعية. كما يوجد بالمكتبة فهرس للعناوين، يضم عناوين كافة الكتب الموجودة بها[١] .

تمتع المستفيدون من المكتبات في العالم الإسلامي بكثير من المزايا، التي لم

---

(١) Olga Pinto, p. 228 .

تقتصر فقط على استخدامهم للمكتبة والانتفاع بمقتنياتها، بل تعدى الأمر إلى تزويدهم بالطعام، والمأوى، وأدوات الكتابة، وكافة الخدمات التي جعلت إقامتهم مريحة في بيئة تساعد على الخلق والإبداع. كما قدمت المكتبات خدمات إعارة مميزة للمستفيدين منها، وأتاحت كل الإمكانات التي ساعدت على إيصال الكتب لكل من أراد الإفادة منها. هذا، وقد أبدى الحكام اهتماماً بالغاً بالمكتبات، حتى أن بعضهم أولاها رعايته الشخصية، وكان أمناؤها يختارون من بين أكفأ الكوادر المؤهلة. ويرى بعض الباحثين أن ازدهار المكتبات وتطور خدماتها يرجع إلى هؤلاء الأمناء الذين تولوا شئونها، وكان لهم شرف رعايتها والاهتمام بها[١].

وفي هذا الصدد تطالعنا كتابات كثيرة حافلة بالعديد من الإشارات والتلميحات التي تشير إلى وجود مكتبات المساجد في فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي. ومن ذلك وجود دواوين الشعر لثمانية قبائل بالمسجد الكبير بالكوفة. كما وجدت خزانة كتب في مسجد بقزوين أودعها أخوان من سكان المدينة. وقد عرفت هذه الخزانة باسم الخزانة العثمانية[٢]. وقد وجدت في مساجد مكة المكرمة، والمدينة المنورة مجموعات كبيرة من الكتب. أما مسجد الزيتونة بتونس الخضراء فقد ضم بين جدرانه مكتبة عظيمة. في حين وجد في مدينة مرو في القرن الثاني عشر الميلادي، عشر مكتبات موقوفة موزعة على

(١) Ruth Stellhorn Mackensen, Backgruond of the... 52: 23-24.

(٢) A. S. Tritton, Materials on Muslim..., p.17

المساجد والمدارس العامة، اثنتان منها ملحقة بالمسجد الرئيسي بالمدينة، يقال إن إحداهما احتوت على حوالي اثني عشر ألف مجلد »[١].

خلاصة القول إن هنالك العديد من الشواهد التاريخية التي تؤكد أن مكتبات المساجد كانت من أوائل المراكز التعليمية الإسلامية. كما يوجد – أيضاً – دلائل قوية على أن هذه المكتبات كانت من أول أنواع المكتبات التي ظهرت في العالم الإسلامي. وقد زاولت مكتبات المساجد نشاطها كمكتبات فعالة، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، فلم تكن مجرد مخازن للكتب، أو قاعات للاطلاع، بل كانت جزءاً لا يتجزأ من المؤسسة التعليمية (المساجد) التي تتبعها، وساندت هذه المكتبات العملية التعليمية التي اضطلعت بها المساجد، وبذلك قامت مكتبات المساجد بدور حيوي ونشاط بارز في الحياة الفكرية والثقافية في المجتمعات الإسلامية، أكبر بكثير مما تناولته كتابات الباحثين ـ المسلمين منهم وغير المسلمين ـ الذين لم يعطوها كامل حقها من البحث والدراسة والتمحيص.

(١) Encyclopaedia of Islama.3: 361.

الفصل الأول

المسجد في المجتمع الإسلامي

أولا - المسجد كمكان للعبادة :

لقد وردت كلمة مسجد في القرآن الكريم لتعني المكان الذي يؤدي فيه المسلمون الصلاة، ويمارسون في رحابه عبادة الله عز وجل، كما جاء في محكم التنزيل : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾[1]، وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾[2].

وقد أورد الأجهوري في معرض حديثه عن فوائد بناء المساجد، أن كلمة « مسجد » مشتقة من الفعل « سجد »، وهو أحد أهم الأفعال عند أداء الصلاة[3]. وكتب الزركشي في ذلك قائلاً : « لقد اختيرت كلمة مسجد لتميز أماكن العبادة عند المسلمين، لأن فعلي السجود والركوع يعدان من أعظم الأفعال عند أداء الصلاة »[4]، ويزخر القرآن الكريم بالآيات التي تتحدث عن السجود، منها قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه**

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة، الآية ١١٤ .

(٣) علي بن محمد الأجهوري، ص٢٢ .

(٤) محمد بن بهادر الزركشي، ص ٢٨ .

تعبدون﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾[٢]. وقد حاول بيدرسين، في مقالة مطولة نشرت في الموسوعة الإسلامية، إرجاع أصول كلمة مسجد إلى لغات قديمة منها الآرامية، والنبطية، والسريانية، والأمهرية[٣].

وللتعرف على أهمية المسجد ومكانته السامية في المجتمع الإسلامي، ومدى ما يتمتع به من مهابة وتوقير في نفوس المسلمين، يجب علينا أولاً تفهم أهمية الصلاة وما يتعلق بها من مفاهيم عقائدية وروحية، حيث تعد الصلاة ركناً أساسيّاً من أركان الإسلام الخمسة، وهي جوهر الإسلام ، حيث لا توجد أي فريضة أخرى يمكن أن تقارن بها من حيث المكانة الرفيعة، ولا أعظم منها للدلالة على الإيمان الصحيح للمسلم وإخلاصه في عقيدته، وربما لا تخلو صفحة من صفحات القرآن الكريم من ذكر الصلاة، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، تذكّر المؤمنين بالصلاة وتحثهم على التفكر والتأمل والعبادة[٤]. وقد ربط القرآن الكريم بين فلاح المؤمن وأدائه لهذا الركن المهم، فوصف المؤمن بأنه ذلك المرء الذي قال الله فيه: ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾[٥]، وقد أشار كوبان إلى هذه الخاصية قائلاً: «تمتزج ممارسات الحياة اليومية للمسلم الحق بأدائه

---

(١) سورة فصلت، الآية ٣٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

(٣) Encyclopaedia of Islam, 3:315.

(٤) S. D. Giotein, p. 75.

(٥) سورة الأعلى، الآية ١٥.

لأعظم الفرائض الواجبة عليه، ألا وهي الصلاة»[١] .

والمساجد في الإسلام هي الأماكن التي يتردد عليها جموع المسلمين لأداء فريضة الصلاة، مع ملاحظة أن أداء الصلاة لا يرتبط - دائماً - بالمسجد بل يمكن أداء أي من الصلوات الخمس في أي مكان عند دخول وقتها. فقد روي عنه ﷺ قوله: «**أينما أدركتك الصلاة فصلِّ فهو مسجد**». وفي رواية: «**فكلها مسجد**»[٢]، ومع ذلك، فالتعاليم الإسلامية تفرض على المسلمين أداء صلاة الجمعة جماعة بالمساجد، وذلك استجابة لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾[٣] .

وهنالك مصطلح عربي آخر يطلق على المسجد ، وهو مصطلح «الجامع»، وهي كلمة مشتقة من الفعل «جمع»، ويمكن اشتقاقها أيضاً من كلمة «جمعة»، وهو الاسم الذي يطلق على اليوم السابع من أيام الأسبوع العربي، وفيه تؤدى صلاة الجمعة. وقد أشارت سعاد ماهر في كتابها عن المساجد في مصر، إلى أن الجامع هو المسجد الذي تؤدى فيه صلاة الجمعة[٤]. وفي معرض شرحها للفرق بين كلمتي «المسجد» و «الجامع»، أوضحت أنه، ومنذ بداية

---

(١) Dogan Kuban, p. 1.

(٢) السيد سابق، ١ : ٢٣١ .

(٣) سورة الجمعه، الآية ٩ .

(٤) سعاد ماهر. مساجد مصر ...، ١ :٣١ .

العصر الإسلامي، كانت كلمة «المسجد» تطلق على أماكن العبادة لدى المسلمين، ومع انتشار الدين الإسلامي وزيادة أعداد المسلمين، بني الكثير من المساجد. وكان يطلق على المسجد الرئيسي في كل مدينة أو منطقة كلمة «الجامع»، وذلك كناية عن اجتماع المسلمين فيه لأداء فريضة الصلاة يوم الجمعة. وبمرور الوقت أخذ مصطلح «الجامع» أبعاداً ثقافية، واجتماعية، وسياسية، بحيث أصبحت كلمة جامع تطلق على «المسجد الرسمي للمدينة أو المنطقة»، حتى أصبح هذا المسجد يعرف بـ«المسجد الجامع»(١).

وقد قدم فكري في دراسة له عن مساجد مدينة القاهرة ومدارسها، تفاصيل كثيرة حول نشأة تاريخ المساجد الجامعة. وذلك، بالإضافة إلى دراسات وصفية عن خصائصها الشكلية. ومما أشار إليه في هذا السبيل أن المسلمين حرصوا في أعقاب كل فتح إسلامي لمنطقة جديدة، على إقامة مسجد جامع تؤدى فيه الصلاة جماعة، وكانوا يتوخون بناء هذا الجامع في وسط المدينة، حيث يكون قريبًا – ما أمكن – من مقر الحاكم، أو ما كان يعرف بدار الإمارة(٢). كما كتب المقريزي عن هذا الموضوع أيضاً فذكر أن المسلمين، ومنذ خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أمروا ببناء مسجد جامع. وتؤدى فيه صلاة الجمعة، وذلك إلى جانب ما كانت كل جماعة أو قبيلة تقوم به من بناء مساجد خاصة بها(٣).

---

(١) المصدر السابق نفسه، ١ : ١٦–١٧.

(٢) أحمد فكري. مساجد القاهرة ...، ١ : ٢٩٥.

(٣) سعاد ماهر، مساجد مصر ...، ١ : ١٧.

وباتساع المدن الإسلامية، ازداد الاهتمام ببناء المساجد وكثرت أعدادها، وقد ذكر المؤرخ اليعقوبي أنه في عام ٢٧٨هـ/ ٨٩١م، كان في مدينة البصرة وحدها سبعة آلاف مسجد(١)، كما أحصى ابن رشد، المفكر الإسلامي المعاصر لليعقوبي، ثلاثين ألف مسجد في مدينة بغداد في الفترة الزمنية نفسها(٢).

وتذكر المصادر أنه في زمن المؤرخ ابن جبير (٥٤٠هـ/١١٤٥م - ٦١٤هـ/١٢١٧م) كان عدد المساجد في مصر كبيراً جداً، لدرجة بلغ عددها في مدينة الإسكندرية وحدها حوالي اثني عشر ألف مسجد(٣). وقد ذكر ابن جبير أن إحصاءاته غير مبالغ فيها، حيث إنه استطاع شخصياً أن يحصي ما بين أربعة وخمسة مساجد في أي نقطة كان واقفاً فيها بتلك المدينة(٤).

ومع مرور الوقت أصبح بناء أكثر من جامع في المدينة الواحدة هو القاعدة المتبعة. وقد أورد بيدرسين في دراسته المتعمقة حول الجوامع، العديد من الروايات التي تتناول هذه الظاهرة، حيث ذكر عن الأصطخري ابن الحجاج (٤١هـ/ ٦٦١م - ٩٦هـ/ ٧١٤م)، أنه قام ببناء جامع على الضفة الغربية لنهر دجلة بمدينة واسط، وذلك على الرغم من وجود جامع مبني بالفعل على الضفة الشرقية منه. وقد أحصى الخطيب البغدادي، في عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، أربعة

(١) Encyclopaedia of Islam, 3:323.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) Ahmad Shalaby, p.49.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٩-٥٠.

جوامع في الجهة الغربية من مدينة بغداد، واثنين في الجانب الشرقي منها. أما ابن دقماق فقد أحصى عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م ثمانية جوامع في مدينة القاهرة. وبناء على ما ذكره ابن جبير، فقد وجد في مدينة دمشق عشرون جامعاً عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م. في حين انتقد المقريزي إقامة صلاة الجمعة في جامع الأقمر عام ١٨٣هـ / ٧٩٩م، وذلك في الوقت الذي كان يوجد بجانبه جامع آخر، ربما كان أقدم وأوسع منه(١).

وبصرف النظر عن الاسم الذي أطلق على دور العبادة عند المسلمين، أكان ذلك «مسجداً» أم «جامعاً»، فإن حرمة هذه الدور وقداستها كأماكن للعبادة، تأصلت كمفاهيم عقائدية في المجتمعات الإسلامية، منذ بداية العصر الإسلامي، وأصبح مسمى «بيت الله» الذي أطلق في البداية على الكعبة المشرفة والمسجد الحرام، يطلق على أي مسجد بصرف النظر عن حجمه أو مكان وجوده، وقد تأكد هذا المفهوم وازداد رسوخاً، بنزول الآية القرآنية الكريمة: ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال...** ﴾(٢).

لقد أظهر الرسول ﷺ وأصحابه كل التقدير والاحترام للمساجد، بوصفها دوراً للعبادة يرفع ويذكر فيها اسم الله عزّ وجل، ويحدثنا عثمان بن عفان، ثالث الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ، قوله: «**من بنى**

(١) Encyclopaedia of Islam, 3:328.
(٢) سورة النور، الآية ٣٦.

لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة»،[١]، وقد ذكر أبو قتادة عن الرسول ﷺ قوله في قدر المساجد ورفعة شأنها: «***إذا جاء أحدكم المسجد فليصل سجدتين من قبل أن يجلس***»[٢]، وفي هذا تفيدنا تعاليم الإسلام عن قيمة صلاة الجماعة وعلو قدرها، وأن ثواب صلاة المرء في جماعة يعدل مرات عديدة صلاته بمفرده.

وفي القرآن الكريم إشارات واضحة كثيرة تحث المسلمين على تجنب كل ما يسيء إلى المسجد كقيمة روحية وكمكان للعبادة،، وتحذر المسلمين من كافة التصرفات والسلوكيات التي قد تسيء إلى المساجد وتمس قدسيتها، كما يحثنا القرآن الكريم في موضع آخر على التزين والاعتناء بالمظهر عند زيارتنا للمساجد، حيث يقول جل وعلا: ﴿ **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾[٣]. وقد أكد الرسول ﷺ وجوب مراعاة قواعد حسن التصرف، واتباع السلوك الحميد عند دخول المساجد، حيث يأمر المؤمنين ويوجههم على سبيل المثال بعدم البصق في المساجد أو الإتيان بأي شيء يؤدي إلى تدنيسها أو تلويثها بأية صورة من الصور. والتراث الإسلامي مليء بالأمثلة التي تعدد التصرفات التي يجب تجنبها في المسجد، مثل رفع الصوت، وإزعاج المصلين،

(١) السيد سابق، ١ :٢٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١: ٢٣٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٧ .

وإدخال الحيوانات، وغير ذلك من الأفعال التي قد تصرف المسلمين عن خشوعهم وتسبب بلبلة لا لزوم لها. ومن هذا المنطلق أيضاً، يؤمر المسلمون بخلع نعالهم قبل دخولهم للمسجد، ووضعها خارجاً، خاصة إذا كانت ملوثة أو بها قذارة [1].

وقد اتخذ المسلمون منذ تأسيس أول مسجد في الإسلام، كل الاحتياطات اللازمة للحفاظ على قدسية المساجد، واحترامها كدور للعبادة. ويزخر التراث الفكري الإسلامي، بالكثير من قواعد إقامة المساجد وأصول بنائها، سواء ما يتعلق منها بالشروط المادية والشكلية، أو ما يمس المفاهيم العقائدية والروحية، وقد ذكر كوبان في كتابه عن العمارة الإسلامية أنه لم يكن للمسلمين أي مكان مخصص للصلاة في مكة قبل الهجرة، وأن أصحاب الرسول ﷺ كانوا يجتمعون خفية للصلاة، أما الرسول فقد كان يؤدي صلاته مستقبلاً الكعبة المشرفة جهرة في بعض الأحيان[2].

ويعدّ الحرم، ما يعرف بالحرم المكي، أو المسجد الحرام، أكثر المساجد قدسية ومكانة لدى جموع المسلمين في أنحاء العالم، وقد بني هذا المسجد قبل ظهور الإسلام ونزول الوحي على محمد ﷺ .وهو أول بيت من بيوت الله تم بناؤه على الأرض، حيث رفع نبي الله إبراهيم عليه السلام قواعده، ثم تولت ذريته من بعده العناية به والحفاظ عليه. والسائد أن أول مسجد بني في الإسلام، هو

(١) محمد ابن بهادر الزركشي، ص ص ٣٠٨-٣١٣، ٣٢٤-٣٢٧ .
(٢) . Dogan Kuban , p.1

الذي بناه الرسول عليه الصلاة والسلام في «مربد التمر» بالمدينة المنورة بعد هجرته إليها من مكة المكرمة[١]. وقد ذكر الزهري في ذلك أنه بعد دخول النبي ﷺ المدينة المنورة، توقفت ناقته عند مربد وهو مكان بالمدينة كان يجفف فيه التمر وغيره من الفواكه. وبعد قيام الرسول ﷺ بأداء الصلاة في هذا المكان، قام بشرائه ثم أمر ببناء مسجد فيه[٢]. وقد أشارت سعاد ماهر إلى بساطة هذا البناء وتواضعه بقولها: «وقد كان أول عمل قام به الرسول ﷺ عند هجرته إلى المدينة هو بناء مسجد للمسلمين في مربد التمر الذي بركت فيه ناقته وكان بناؤه بدائياً بسيطاً، وكانت مساحته ٧٠ X ٦٠ ذراعاً وجدرانه من اللبن، وسقف جزء منه بسعف النخيل وترك الجزء الآخر مكشوفاً، وجعلت عمد المسجد من جذوع النخل»[٣].

وتشير بعض المصادر إلى أن مسجد قباء هو أول مسجد أقيم في الإسلام[٤]. وقباء هي ضاحية من ضواحي المدينة المنورة، أقام فيها الرسول ﷺ بضعة أيام قبل دخوله المدينة المنورة. وكان ذلك في أواخر عام ٦٢٢م. ويرى بيدرسين أن مسجد الرسول أو المسجد النبوي بالمدينة المنورة، لم يكن المسجد الوحيد الذي بني في عهد الرسول ﷺ، بل ولم يكن أول مسجد بني في

---

(١) سعاد ماهر، المصدر السابق، ١/١٦.

(٢) المصدر السابق نفسه ١ :٣٣-٤٣ .

(٣) سعاد ماهر، تطور العمائر ...، ص ٥٦.

(٤) Ahmad Shalaby, p.48.

الإسلام. ويعتقد أن مسجد قباء هو أول مسجد شيد في الإسلام. فقد توقف الرسول ﷺ مع أسرة عمرو بن عوف، في قرية قباء، لعدة أيام اختلف الرواة في عددها، حيث وجد هناك مسجداً كان قد قام ببنائه أوائل المهاجرين والأنصار، وقد أمهم الرسول ﷺ في الصلاة بهذا المسجد(١).

وقد اتفق شلبي مع ما جاء به بيدرسين، مؤكداً أن المؤرخ الإسلامي المعروف البلازري، قد أشار إلى أن بناء مسجد قباء تم على يد المهاجرين المسلمين من مكة إلى المدينة، ذلك في وقت سابق لهجرة الرسول إلى يثرب(٢) وبصرف النظر عن المسجد الذي بني أولاً، يعد المسجد النبوي، أو مسجد الرسول ﷺ، الذي أقيم في مربد التمر - في رأي غالبية أهل العلم - النموذج الذي احتذي به في بناء المساجد فيما بعد، سواء فيما يختص بعمارها الخارجي أو في تنظيمها الداخلي. وقد كتب ساردا في بحثه عن نشأة المساجد، بأن المسلمين في الأمصار الإسلامية المختلفة استندوا في بناء مساجدهم على المفاهيم المعمارية الإسلامية التي اتبعت في بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة(٣). وقد وافق كوبان على هذا الرأي وعدّ مسجد الرسول ﷺ المرجعية الوحيدة لبناء المساجد في الإسلام في العصور اللاحقة كما عزا ذلك إلى تمسك المسلمين بالسنة المحمدية واتباعهم لها، وخاصة الحريصين منهم على

(١) Encyclopaedia of Islam, 3: 317.

(٢) Ahmad Shalaby, p.48.

(٣) S. J. Saarda, p. 343 .

تطبيق أقوال الرسول وأفعاله (١).

ومما جاء في وصف مسجد الرسول ﷺ ، وجود بناء ملحق به يتخذ كمسكن له ولآل بيته، وكان هذا البناء عبارة عن حجرات صغيرة ذات أبواب تطل على الجانب الشرقي من ساحة المسجد. وقد شيدت هذه الحجرات لتكون مكان إقامة زوجات الرسول (أمهات المؤمنين رضي الله عنهن)(٢)، ويذكر كاتب آخر «بأن الحجرات الملحقة بالساحة كانت متواضعة للغاية، ولا تعلو أسقفها عن الأرض إلا بمقدار ما يستطيع المرء ملامسته بيده، كما تسد أبوابها بقطع ثقيلة مصنوعة من أصواف الماعز و الأغنام»(٣). خلاصة القول، إن بناء مسجد الرسول ﷺ كان في غاية البساطة والتواضع. ومن نافلة القول إن أحد المفاهيم التي رسخها المسجد النبوي، تبلورت في إعطاء الأجيال اللاحقة من المسلمين، نموذجاً يحتذى به عند بناء المساجد وتصميمها، وإن كان هذا لم يمنع - بمرور الوقت - من حصول بعض التعديلات في بناء المساجد، وغالباً ما كانت هذه الإضافات تتم لأغراض الزخرفة والتجميل، أو مجاراة للطرز المعمارية المختلفة للمجتمعات التي أنشئت فيها. ومع ذلك فقد حافظ المسلمون على مكونات المسجد الأساسية، وطرازه المعماري المتوارث، حرصاً منهم على الاحتفاظ بالأسلوب المعماري للمسجد وهيئته المتعارف عليها منذ أيام الرسول ﷺ.

---

(١) Dogan Kuban, p. 12

(٢) المصدر السابق نفسه، ١ : ١٢ .

(٣) S.J. Saarda, p.337

ثانياً ـ المسجد كمركز اجتماعي:

إلى جانب كونه داراً للعبادة، استخدم المسجد منذ البدايات الأولى للإسلام لأغراض شتى، وحتى قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فقد اعتاد رجالات قريش أن يجتمعوا داخل الكعبة أو بجانبها لمناقشة شئونهم الحياتية، والاجتماعية، والدينية، والسياسية. ومع بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة، تأكد دور المسجد كمكان للقاءات العامة لمناقشة أمور المسلمين. وسرعان ما اتخذ المسجد من قبل محمد ﷺ وأصحابه، ليس فقط داراً للعبادة، بل أيضاً كموضع لاجتماع المسلمين ولقاءاتهم. وقد جاء في كتابات الكثير من المؤرخين أن النبي ﷺ اعتاد الاجتماع مع أصحابه في المسجد لمناقشة أمور دينهم ودنياهم، ووضع خطط الفتوحات، وتشكيل فرق للدعوة الإسلامية. كما كانوا يتخذون من المسجد مكاناً لاستقبال وفود الدول، ومبعوثي القبائل وسفرائهم [١].

ويحق القول، بأن المسجد منذ صدر الإسلام، كان مركزاً للأنشطة الاجتماعية، فمن على منبره يتعلم المسلمون أمور دينهم ودنياهم، وتعلن سياسات الدولة، ويفصل في القضايا، وتتحقق العدالة. وفي رحابه يجلس الوعاظ والمعلمون محاطين بطلاب العلم من بالغين ويافعين، حيث تقام حلقات الدرس والتحصيل، فيما ينفع المسلمين في دنياهم وأخراهم [٢]. وقد جاء ذلك

---

(١) علي حسني الخربوطلي، ص٣٥٥.

(٢) A. L. Tibawe, Islamic education..., p. 24.

تمشياً مع خصائص الشخصية الإسلامية، التي تتميز بتلاحم المنظور الديني والدنيوي، وتمازجهما معاً في إطار عقيدة ثابتة ومتوحدة. وينبغي أن نعي أن احترام المسلم للمسجد وتقديره له كدار للعبادة، لم يمنعه من استخدامه في العديد من الأنشطة الأخرى. والمتتبع لهذا الموضوع يجد أن هناك ثلاثة أدوار رئيسية اضطلع بها المسجد على مرّ التاريخ الإسلامي. وهذه الأدوار تتمثل في الدور الاجتماعي، والدور السياسي، والدور التعليمي. فلا عجب أن يراعى في اختيار موقع المسجد أو الجامع أن يكون في وسط المدينة أو القرية أو الحي، بحيث يمكن الوصول إليه بسرعة وسهولة لأداء ما خصص له من مهام.

١ـ الدور الاجتماعي للمسجد:

يحتفل المسلمون بمناسباتهم الدينية والاجتماعية داخل المسجد، إذ إنه متاح تماماً للعامة والخاصة، والكبير والصغير. ولا يزال يحتفل المسلمون في المسجد باثنين من أهم الأعياد الإسلامية، أولهما عيد الأضحى، الذي يعقب أداء فريضة الحج، وثانيهما، عيد الفطر الذي يتزامن ونهاية صوم شهر رمضان. وعلى امتداد الحضارة الإسلامية وعبر تاريخها الطويل، كان خلفاء المسلمين وحكامهم يرتادون المساجد لأغراض اجتماعية شتى مثلهم في ذلك مثل العامة. ويذكر عن معاوية بن أبي سفيان، أول حكام الدولة الأموية، أنه اعتاد الجلوس والتحاور مع طبيبه الخاص في المسجد الأموي بدمشق. وفي الكثير من المجتمعات الإسلامية تتم عقود النكاح في المساجد. كما اعتاد الكثير من المتحدثين الذين حباهم الله بموهبة الخطابة ارتياد المساجد بقصد الوعظ

والإرشاد [١].

وقد كان إلقاء الشعر من الأنشطة التي كانت تؤدى في بعض المساجد، وفي هذا الصدد، يذكر عن الحريري إقامته في مسجد بالبصرة، وقيامه بإلقاء دروس في قصائد الشعر العربي [٢]. وقد وجد بمسجد المنصور ببغداد، قاعة خاصة عرفت باسم «قبة الشعراء»، كانت تستخدم من قبل شعراء بغداد في كل يوم جمعة لإنشاد أشعارهم [٣]، ويقول أمين في هذا الصدد: «ولم ينكر الناس إنشاد الشعر في المسجد حتى ما كان فيه غَزَل، فإن كعب بن زهير دخل على النبي ﷺ قبل صلاة الصبح فمثل بين يديه وأنشد: «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول». كذلك كان المسجد محلاً لإنشاد الشعر ونقده والتلاحي فيه، فيروي الأغاني أن الكُمَيْت بن زيد وحمَّاداً الراوية اجتمعا في مسجد الكوفة فتذاكرا أشعار العرب وأيامهم، فخالفه حماد في شيء ونازعه، فقال له الكميت: أتظن أنك أعلم مني بأيام العرب وأشعارها ؟ قال: ما هو بالظن ، هو والله اليقين. ثم تناظرا وتساءلا وأرجئنا إلى أجل آخر في خبر طويل». وحكى المَرْزُبانِيّ في المَوَشح أن مسلم بن الوليد كان يملي شعره في المسجد، وأن الناس كانوا يتناظرون في الشعر في المسجد. وكان أبو العتاهية يجلس في المسجد وحوله الناس. وقال أبو محمد اليزيدي: كان أبو عبيدة يجلس في مسجد البصرة إلى

---

(١) علي حسني الخربوطلي، ص ص ٣٥٧– ٣٥٨.

(٢) S. Khuda Bukhsk , " the education system... p. 447

(٣) Munir-ud-din Ahmad, p. 119.

سارية وكنت أنا وخَلَفٌ الأحمر نجلس جميعاً إلى أخرى»[١].

وقد عرف عن بعض المسلمين اعتكافهم في المساجد، حيث يتفرغون خلال إقامتهم، لأداء العبادات، والتحصيل الديني. ويذكر عن الرسول ﷺ أنه كان يعتكف العشرة الأخيرة من شهر رمضان في مسجده بالمدينة المنورة[٢]. وقد يحدث في بعض الأحيان أن يزهد بعض المسلمين في حياتهم الدنيوية، ويعتكفون في المسجد طيلة حياتهم، يتفرغون لخدمة المسجد، وأداء العبادات، وتحصيل العلم. وقد عرف هؤلاء في بعض الأمصار الإسلامية باسم «المجاورون»، أي الأشخاص الذين يجاورون المسجد ويختارونه مكاناً دائماً لإقامتهم[٣].

وقد قامت المساجد بتقديم يد المساعدة في أوقات الشدة والضيق، حيث تعد ملجأً آمناً لمن فقدوا المأوى بسبب حرب قائمة أو كارثة أصابت العباد والبلاد[٤]، فعندما يجتاح البلاد الجفاف، أو الوباء، أو القحط، أو الحروب، وكان المسلمون يلجأون إلى المساجد متضرعين إلى الله سبحانه وتعالى، متوسلين إليه ليرفع عنهم البلاء ويشملهم برحمته. كما تقام في المساجد صلاة الجنازة، وفيها يتلقى أهل الميت العزاء من الأقارب والأصدقاء. وقد كان المسجد الجامع المكان المعتاد لإعلان الأنباء المهمة التي تتعلق بالشئون العامة

---

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ٢ :٥٣ .

(٢) Encyclopaedia of Islam, 3: 330.

(٣) أحمد بن علي المقريزي، ٣ : ٢٣٤–٢٣٥ .

(٤) Jacques Waardenburg, p.112.

للمجتمع. وقد كتب ابن رستة أنه في عام ٢٩٠هـ/٩٠٣م، عندما لاحظ المسئولون بوادر فيضان غير عادي لنهر النيل في مصر، تم الإعلان عن هذا النبأ من على منبر جامع عمرو، أكبر جوامع مدينة القاهرة آنذاك(١).

وإلى جانب ما ذكر، كانت المساجد مأوى للفقراء، والأغراب، والمسافرين. وقد سنّ الرسول الكريم ﷺ هذه السنة عندما استضاف وفد ثقيف في مسجده بالمدينة المنورة، حتى يشاهدوا بأنفسهم صفوف المصلين ويستمعوا إلى تلاوة القرآن الكريم(٢). ويروى أن العديد من فقراء المسلمين بالمدينة المنورة اعتادوا العيش في صفة كانت ملحقة بمسجد الرسول حيث أقيمت فيها الخيام لإيوائهم(٣). وهناك إشارات واضحة إلى وجود هذه الصفة التي خصصت لمبيت الزوار والفقراء، وأنها ربما كانت أصل ما عرف فيما بعد باسم «التكية» التي كانت تلحق ببعض المساجد. وأصبح هذا التقليد مع انتشار الإسلام هو القاعدة المتبعة في العديد من المساجد الإسلامية، وقد ذكر المقريزي في معرض حديثه عن جامع الأزهر بالقاهرة، أن كثيراً من الناس اعتادوا أن يقضوا لياليهم هناك وخاصة في شهور الصيف، حيث تميز المكان بجوه البارد المنعش(٤).

وقد كان تأثير توافد المسلمين على المسجد بخلفياتهم المتعددة وأغراضهم

---

(١) Encyclopaedia of Islam, 3: 349.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣ : ٣٢٩ .

(٣) المصدر السابق نفسه، ٣ : ٣١٧ .

(٤) المصدر السابق نفسه، ٣ : ٣٢٧

المختلفة عظيماً ومتبايناً على خدمات المسجد وأنشطته. ولهذا تعددت أغراض زيارة المساجد والهدف من الإقامة فيها، بل وظهر إلى الوجود أمور جديدة، لم تكن معروفة من قبل، منها عقد لقاءات وتجمعات في المساجد لأغراض التجارة والأعمال. وجدت في بعض المساجد أماكن لبيع الطعام والشراب[١]، وازدهرت مهنة الحياكة كعمل يمارس - أحياناً - في المساجد الكبيرة. وهنالك بعض الدلائل على تدرب الصبيان على هذه المهنة في بعض الأمصار[٢]. ولم يكن من المستغرب أن يمارس الحلاقون مهنتهم في بعض المساجد[٣]. وقد لاحظ بيدرسين في كتابات ابن الحاج بعض المؤشرات التي تعطي الانطباع بأن عدداً من المساجد أصبحت مكاناً لمزاولة العديد من أنماط التجارة الخفيفة[٤].

ولدعم هذه الأنشطة، لم يبخل المسلمون بالجهد أو المال ليقيموا مساجد متينة قوية تصمد أمام عوادي الزمن، وقد ذكر المقريزي أن السلطان المملوكي ركن الدين بيبرس أصدر مرسوماً ببناء صهريج ضخم للمياه في صحن جامع الحاكم بالقاهرة، وقد أكد المرسوم على ملء الصهريج بصفة مستمرة من مياه النيل، وذلك كسبيل مجاني لخدمة الناس[٥]. ويحدثنا الزركشي بأن غرس

---

(١) المصدر السابق نفسه، ٣ : ٣٢٩.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة ...، ١ : ١١١ - ١١٢.

(٣) محمد بن بهادر الزركشي، ص٤٠٧.

(٤) Encyclopaedia of Islam, 3: 349.

(٥) أحمد بن علي المقريزي، ٣ / ٢٣٧.

الأشجار، وحفر آبار المياه، وبناء الحمامات كانت من الأعمال التي تصاحب بناء المساجد وإنشائها[1].

كانت المساجد – بجانب خدماتها الأساسية – مزودة أيضاً بخدمات إضافية قصد بها توفير الراحة للمقيمين فيها، وقد تعرض المقريزي لهذا الأمر، عندما كتب عن الجامع الأزهر، حيث ذكر أن الموازنة السنوية لجامع الأزهر اشتملت على شراء العديد من الأجهزة مثل: السجاد، والبسط، وأدوات النظافة، ووقود الإنارة والتدفئة، والعطور والتوابل، والبخور، والحبال، والشموع، وأزيار الماء وغيرها من اللوازم التي توفر أسباب الراحة لقاطني المسجد ومرتاديه[2]. كما ذكر المؤرخ ابن غالب أن عدد العاملين بالمسجد الجامع في قرطبة بلغ أكثر من مئة وعشرة أشخاص[3]، أما مسجد ابن طولون بمصر، فقد عين فيه بعد اكتمال إنشائه عام ٢٦٥هـ/٨٧٨م، عدد من المعلمين، رتب لهم السلطان جرايات ورواتب مجزية، وأمر لهم بكميات وافرة من الطعام والشراب، ولم يبخل عليهم حتى بالفاكهة والحلوى، التي كانت تجلب إليهم يوميًّا[4].

وكان يتوافر بالمساجد خدمات الرعاية الصحية للعاملين فيها، وخاصة الكبيرة منها. وقد ذكر عبد الوهاب، أنه عندما بدأ العمل في مسجد السلطان

---

(١) محمد بن بهادر الزركشي، ص ٣٤١-٣٤٣.

(٢) أحمد بن علي المقريزي، ٣/٢٣١- ٢٣٢.

(٣) لطفي عبد البديع، ص ١٨٤ .

(٤) أمين سامي، ملحق ٥، ص ٢ .

حسن بالقاهرة عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م، أصدر السلطان مرسوماً بتعيين طبيب عام، وطبيب عيون، وجراح، ليلتحقوا بالعمل فيه كموظفين دائمين، وقد داوم الأطباء الثلاثة على الحضور يومياً للمسجد، ليقدموا الرعاية الطبية للعاملين فيه، ولطلاب المسجد ومرتاديه(١). ويذكر المقريزي أنه كان يوجد بمسجد ابن طولون بالقاهرة مخزن خاص لحفظ المستلزمات الطبية وتخزينها، في حين داوم عدد من الأطباء على الحضور يوم الجمعة من كل أسبوع للكشف على المرضى من المصلين ومرتادي المسجد من العامة(٢). وقد أشار حسين إلى استخدام المسجد ليس فقط كدار عبادة وإنما أيضاً كدار للقضاء، ومؤسسة تعليمية، ومستشفى، بل وكصيدلية، حيث تصرف الأدوية مجاناً(٣). وللقيام بهذا الدور الاجتماعي الكبير، كان لابد أن يتوافر للمسجد ميزانيات ضخمة. وقد تم تأمين مثل هذه الميزانيات عن طريق الدولة، حيث كانت المساجد - ولازالت - تعتمد على الدعم المادي الكبير الذي تؤمنه لها الحكومة. وكما ذكر أحد الكتاب أن بناء المساجد كان مسئولية اجتماعية ملقاة على عاتق الحكام والولاة(٤)، ومن جهة أخرى، نجد أن بعض المساجد - خاصة الكبيرة منها - اعتمدت كثيراً على الهبات، والوقفيات، والمنح، والوصايا التي كان يقدمها

---

(١) حسن عبد الوهاب. جامع السلطان ...، ص ٢١-٢٢.

(٢) أحمد بن علي المقريزي، ، ٣: ٢١٩.

(٣) محمد كمال حسين، ص ص ٣٠-٣١ .

(٤) Encyclopaedia of Islam, 3: 317.

أثرياء المسلمين وعامتهم إلى المساجد. وقد ذكرت ماهر أن الوزير العثماني محمد باشا السلحدار، أوقف على مسجد سيدي عقبة بالقاهرة، الأموال والضياع من ماله الخاص[1]. كما يروى بأن ميزانية المسجد الأزهر لعام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، بلغت حوالي الألف دينار، وهو ما يعد مبلغاً ضخماً من المال بمقاييس ذلك العصر،وكان ذلك ناتجاً عن وقفية أوقفها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله[2]. أما في دمشق، فقد أوقف أرغون شاه، أحد كبار رجال الدولة إبان العصر المملوكي، مبلغاً ضخماً من المال على مسجد السنجقدار للصرف على العاملين به، ولشراء الطعام والشراب، وإقامة مأوى للأيتام المقيمين فيه[3].

٢ـ الدور السياسي للمسجد:

بجانب الدور الذي كان يؤديه المسجد كمركز مهم للخدمات الاجتماعية في الدولة الإسلامية، فقد اضطلع أيضاً بدور مهم آخر هو الدور السياسي. فمع انتشار الإسلام وتوسع رقعة الدولة، أصبحت المساجد تؤدي دوراً مهمًّا في المجتمعات الإسلامية الجديدة ليس فقط كمكان للعبادة ومركز للخدمات الاجتماعية، بل أيضاً للأنشطة السياسية، ونرى جذور هذا الدور منذ عهد الرسول ﷺ، حيث كان المسجد موضع تجمع المؤمنين والتفافهم حوله ﷺ،

(١) سعاد ماهر، مساجد مصر ...، ١: ٨٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١: ١٧٣-١٧٤.

(٣) محمد أحمد دحمان، ص١٤٠.

يستمعون إلى أحاديثه وتوجيهاته وتعليماته فيما يتعلق بأمور دينهم ودنياهم، وبما يمس كل كبيرة وصغيرة في حياتهم، ومن هنا جاء دور المسجد كمؤسسة دينية تعليمية تحكم وتوجه الحياة الدينية والسياسية في المجتمع الإسلامي(١).

ويرى الباحث في هذا الموضوع أن هناك العديد من المؤشرات التي تؤكد العلاقة الوثيقة بين المسجد والممارسات السياسية في المجتمع الإسلامي، ففي أعقاب كل فتح كان المسلمون يقيمون مسجداً كبيراً يختارون له موضعاً متميزاً في وسط المدينة، مجاوراً لمقر الحاكم أو ما كان يعرف بدار الإمارة. وفي كثير من الأحوال، كان تشييد الجامع كجزء من دار الإمارة، بحيث يكونان معاً بناءً واحداً، وهذا التلاحم البنائي يعكس المفهوم الإسلامي الراسخ بأن الحاكم يمثل ذروة السلطة الدينية والسياسية معاً في المجتمع الإسلامي. وفي هذا يصرح أحد الكتاب الإسلاميين قائلاً: «إن الدين والسياسة، يعدان من المفاهيم التي لا يمكن الفصل بينهما في إطار المفهوم الإسلامي، ففي حين يمثل الحاكم قمة السلطة في كلا المجالين، فإن دار الإمارة والمسجد الملحق بها، يمثلان مركز السلطات الدينية والسياسية في الدولة»(٢).

ولا عجب إذاً – استناداً إلى هذا المفهوم – من قبول الخلفاء والولاة البيعة في احتفال مهيب داخل المسجد الجامع بالمدينة، كما كان من المعتاد أن يتم الإعلان عن خلع الخليفة أو الوالي من فوق منابر المساجد، أو بجانبها(٣)، كما

(١) Encyclopaedia of Islam, 3: 317.

(٢) Encyclopaedia of Islam, 3: 316.

(٣) Encyclopaedia of Islam, 3 : 347.

اتخذ المسجد مكاناً للإعلان عن مراسيم الخلافة، والبيانات السياسية المهمة[١]. وعادة ما لجأ الحكام من الولاة أو من في حكمهم إلى اتخاد المسجد كمكان لإجراء اللقاءات مع جماهير المسلمين، لطرح القضايا المهمة ومناقشتها مع المواطنين[٢].

وقد حرص أكثر حكام المسلمين على الذهاب إلى المسجد لتأدية الصلاة، خاصة أيام الجمع من كل أسبوع وفي المناسبات المهمة، حيث يؤم بعضهم جماهير المصلين، وربما إلقاء خطبة الجمعة أيضاً. وقد ذكر السيوطي، أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله كان يواظب على إلقاء خطبة الجمعة كل أسبوع بنفسه، مبتدأ بجامع عمرو (أكبر جوامع القاهرة آنذاك)، ثم يلقيها في جامع ابن طولون في الجمعة التي تليها، ومن بعدهما في الجامع الأزهر في الجمعة الثالثة، ومن ثم يستريح في الأسبوع الرابع، ثم يعاود الكرة مرة أخرى في الأسبوع الذي يليه[٣]. وربما قام العزيز بالله بذلك قياساً على ما كان يقوم به المعز لدين الله من إلقاء خطبة الجمعة وإمامة المصلين في الجامع الأزهر[٤].

وتتضح العلاقة الوثيقة بين المسجد والحاكم، من خلال قناعة الأخير، أنه لا بيعة صحيحة له ولخلفائه من بعده، إذا لم يتم الإعلان عنها من فوق منابر

---

(١) على حسني الخربوطلي، ص ٣٥٥-٣٥٦ .

(٢) حسن عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة ...، ١ : ١٠٨- ١٠٩.

(٣) الحافظ جلال الدين السيوطي، ٢ : ٢٥١-٢٥٢ .

(٤) Muhammad Amin Tawfiq, p. 10.

المساجد كبيرها وصغيرها، وعلى امتداد البلاد. ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية، أصبح هذا التقليد شائعاً للتعبير عن ولاء جماهير المسلمين للخليفة ورضائهم عن حكمه. وقد أشارت سعاد ماهر إلى أهمية الدور الذي يؤديه المسجد في المجتمعات الإسلامية، وذلك من خلال رصدنا لظاهرة شاعت في التاريخ الإسلامي، حيث إن ذكر اسم الخليفة من فوق المنابر والدعاء له، خلال شعائر الصلاة يوم الجمعة، يعد تأكيداً لاستمرار حكمه للبلاد ووجوده على سدة الحكم. أما إذا أهمل ذكر اسمه، فهذا يعني أنه ترك الحكم لسبب أو لآخر، قد يكون الوفاة ،أو التنازل عن الخلافة، أو خلعه منها(١).

وفضلاً عن ذلك تتضح العلاقة القوية بين المسجد والسياسة، من خلال ظاهرة إلحاق بيت المال بالجامع الرئيسي في الولاية، ويعود هذا التقليد إلى الخلفاء المسلمين الأوائل، الذين وجدوا في المساجد مكاناً آمناً لحفظ أموال الأمة الإسلامية، ومما يذكر في هذا الصدد، قيام خازن بيت المال أسامة بن زيد التنوخي ببناء بيت المال عام ٩٧هـ/ ٧١٥م بالقبة المواجهة للمنبر في جامع عمرو بمصر(٢). وقد ذكرت ماهر أن جامع الأمويين بدمشق كان مقرّاً لبيت المال لفترة طويلة من الزمن(٣). كما ذكر بيدرسين أن بيوت المال في المدن الفلسطينية كانت ملحقة بالمساجد الكبيرة فيها. وقد دعم هذا التقليد استخدام الدولة

(١) سعاد ماهر، مساجد مصر ...، ١ : ٣١.

(٢) Encyclopaedia of Islam, 3: 349.

(٣) سعاد ماهر، مساجد مصر، ١ : ١٨.

للجوامع الكبيرة في كثير من المناسبات كمكان لإجراء المعاملات المالية والتجارية. وقد ذكر أن خازن بيت المال في مصر كان معتاداً على بيع المحاصيل والمزايدة عليها في مسجد عمرو، يساعده في ذلك بعض من عماله. أما الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس، فقد كان يستخدم جامع ابن طولون بالقاهرة لإدارة الأعمال التجارية العامة. وفي دمشق اعتاد كتاب العدل على استخدام باب الساعات في الجامع الأموي لأداء أعمالهم[١] وقد ذكر الرحالة ناصر خسرو، أن كتابة العقود والوثائق المالية، كانت من الأنشطة المزدهرة في جامع عمرو بالقاهرة[٢].

وقد استخدم المسجد كدار للقضاء في الإسلام، إذ يعدّ القضاء مهمة كبيرة من مهام الحاكم الإسلامي، وقد كان الرسول ﷺ يقضي بين الناس، ويفض المنازعات بين المسلمين بنفسه في المسجد، ومع انتشار الإسلام، وتوسع رقعة الدولة الإسلامية، لم يكن ممكناً من الناحية العملية أن يعقد الحاكم بنفسه مجالس القضاء على امتداد الدولة. لذا فقد استوجب عليه أن يوكل أمر القضاء إلى العلماء من أهل الثقة ليتولوا ذلك نيابة عنه. وأول من اتبع هذا التقليد، هم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، فعينوا قضاة يتولون فض المنازعات بين الناس والحكم فيها نيابة عنهم، متخذين المسجد الجامع في كل ولاية ساحة لهم، ومقراً لمجلس قضائهم[٣].

---

(١) Encyclopaedia of Islam, 3: 349-356.

(٢) Johs Pedersen, p. 526.

(٣) Encyclopaedia of Islam, 3: 349.

وتوطدت علاقة المسجد بالسياسة في المجتمعات الإسلامية عندما أكد دوره في خدمة هذه المجتمعات في أوقات الحرب بالقدرنفسه الذي كان يؤديه في فترات السلم. ولا عجب من ذلك، فقد اتصفت الدولة الإسلامية في صدر الإسلام بالغزوات والحروب والفتوحات،وبالتالي أصبحت المساجد مسرحاً للعديد من الأحداث التي اصطبغت بالصبغة الحربية. وقد تعددت ارتباطات المسجد بالحياة العسكرية وتنوعت .فبعد انتهاء غزوة أحد، قضى المسلمون أول ليلة لهم بمسجد الرسول ﷺ .كما يذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرسل الغنائم بعد معركة من معاركه إلى مسجد بالبصرة لحفظها فيه. ويحدثنا بيدرسين، عن ظاهرة الإعلان عن غنائم الحرب والحملات العسكرية الإسلامية علنا في المساجد، ويخبرنا عن انعقاد مجالس الحرب في المساجد، حيث يضع الولاة والقواد العسكريون ومن في حكمهم خطط الحرب، ويوجهون تعليماتهم العسكرية إلى مساعديهم(١). ويقول خطاب في هذا الصدد: «لقد كان المسجد في أيام الخلفاء الراشدين المقر العسكري والثكنة، ومركز الإشعاع الروحي الذي يرفع المعنويات والهِمَم ويغرس روح الجهاد. ولما تولى بنو أمية الخلافة، أصبح مقر الخلفاء في مكان سكناهم، وبقي المسجد مركز الإشعاع الروحي الذي يؤجج روح الجهاد»(٢).

وقد استخدم المسجد أيضاً، كمنبر جماهيري للخطابة، حيث يجتمع الناس

(١) Encyclopaedia of Islam, 3:348.

(٢) محمود شيت خطاب، ص ١٤٠.

فيه يستمعون إلى الخطب من الولاة وأصحاب الرأي في عرضهم للشئون العامة التي تهم المجتمع، يتجاوبون معهم مستحسنين ما يقال، أو رافعين أصواتهم بالاحتجاج. وهناك إشارات عديدة أن كثيراً من عامة المسلمين كانوا يرفعون أصواتهم احتجاجاً على ما كان يقوله المتحدث من على المنبر. وقد ذكر عبدالوهاب أنه عندما تمرد القائد البربري مخلد بن قيداد على بني عبيد، تجمع مؤيدوه في المسجد الجامع بالقيروان لمناقشة حركة التمرد المعلنة، وقرروا مساندتها بالمال والرجال. وفي عام ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م تجمع الآلاف من أنصار ابن قيداد في مسجد القيروان، قبل توجههم إلى المهدية مقر خلافة بني عبيد[١].

٣ـ الدور التربوي للمسجد:

ارتبط التعليم في المجتمع الإسلامي منذ البداية بالمسجد، وذلك نظراً لأن طبيعة الدراسات الإسلامية كانت ذات صلة وثيقة بالمسجد وما يمثله من مفاهيم. وقد كان تعلم القرآن وحفظه عن ظهر قلب نقطة البداية للدراسات الإسلامية، تبع ذلك دراسة أقوال الرسول ﷺ أو ما يسمى بـ «علم الحديث»، حيث يتعلم المسلم كيفية التطبيق الصحيح للتعاليم الدينية الإسلامية. وكثيراً ما استفتى الناس الرسول ﷺ – سواء داخل المسجد أو خارجه – في كثير من المسائل الفقهية والأمور العقائدية.

ولاشك أن العلاقة الوثيقة بين المسجد والعملية التعليمية كانت أمراً

(١) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة ...، ١: ١٠٩.

موحداً، حيث اعتمد التعليم بالدرجة الأولى في صدر الإسلام على التعاليم الدينية المرتكزة على العقيدة الإسلامية، فلا عجب إذاً أن يكون المسجد الذي يمثل دار العبادة، هو المكان الأمثل لممارسة العملية التعليمية في الإسلام. وعلى الرغم من بديهية هذا المنظور ومنطقيته، إلا أن نشأة الدور التعليمي للمسجد، وقيامه بمهام أول مدرسة في المجتمع الإسلامي، لم يكن وليد الصدفة، فهناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى أن الرسول ﷺ أراد للمسجد أن يقوم بدور مهم – إن لم يكن رئيسيًّا – في العملية التعليمية في الإسلام وعلى الرغم من أن محاولات الرسول قبل الهجرة تعليم أتباعه في الحرم المكي كانت تبوء غالباً بالفشل، نتيجة لتعنت المشركين، وتعرضهم للمسلمين بالإهانة والإيذاء البدني، إلا أنه ﷺ كان يلتقي بهم سرّاً في داره، أو في دار أحد أتباعه، وخاصة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ليعقد لهم حلقات الدرس، ويلقي إليهم بتعاليم دينهم، ويفقههم فيما يفيدهم في دنياهم وأخراهم(١).

وعندما استقر المقام للرسول ﷺ في المدينة المنورة، وأتم بناء مسجده في مربد التمر، أصبح من أشد أنصار التعليم في المساجد. لذا فلا غرابة أن يعد المسجد في نظر المسلمين – استناداً إلى هذا المفهوم – ليس فقط مكاناً للتوجيه الروحي، بل أيضاً للتوجيه الفكري والعلمي، ومن أفضل المؤسسات التعليمية في المجتمع. وقد أكد العالم الإسلامي ابن الحاج هذا التوجه عندما ذكر أنه من الأجدى للمسلم أن يتعلم في المسجد، أو المدرسة، أو المنزل بأفضلية هذا

---

(١) محمد عطية الأبراشي، ص ٧٢.

الترتيب(١). وتجدر الإشارة إلى أن الرسول ﷺ لم يساند التعليم في المساجد بالتوجيه فقط، بل ألحق القول بالعمل، حيث كان يقوم بنفسه ﷺ، بتدريس الصحابة رضوان الله عليهم وتوجيههم من خلال حلقات الدرس بالمسجد(٢). وقد كتب حميد الله في ذلك قائلاً: «كثيراً ما قام الرسول ﷺ بالتدريس بنفسه، وقد تلقى عنه العلم الخليفة عمر وكثير من الصحابة رضوان الله عليهم. وواظبوا على حضور حلقة درسه لتعلم القرآن، وحفظه. كما دأب الرسول ﷺ على تفقد حلقات الدرس في مسجده، فإذا رأى فيها مخالفة سارع إلى تصويبها وتقويمها»(٣). كما أشار أمين إلى الموضوع نفسه بقوله: «فمن مبدأ الإسلام اتخذ رسول الله ﷺ للدراسة، ففي البخاري عن أبي واقدٍ اللّيْثيّ قال: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فوقفنا على رسول الله ﷺ فرأى أحدهما فرجة في الحلقة فجلس، وجلس الآخر خلفهم»(٤).

ولم يكن تلقى العلم في المسجد قاصراً على الرجال، فقد كان يسمح للنساء بحضور حلقات درس الرسول ﷺ، بل ومسائلته في بعض الأحيان.

(١) A. S. Tritton , Muslim education..., p. 56.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، ص ص ٤٣-٤٤.

(٣) M. Hamidullah, p. 55.

(٤) أحمد أمين، ٢: ٥٢.

عما يصعب عليهن فهمه من العبادات والمسائل الفقهية. كما يروى بأن الرسول ﷺ كان يذهب إلى مساجد أخرى بالمدينة المنورة، لأغراض التدريس وتعليم المسلمين، ومن ذلك مسجد قباء حيث كان يتفقد بنفسه حلقات الدرس المقامة به[١]. ويتضح من ذلك أن الرسول الكريم ﷺ قام بتمهيد الطريق، قولاً وفعلاً، أمام المسجد ليصبح أهم مركز تعليمي في المجتمع الإسلامي. كما شجع الرسول ﷺ أثناء فترة وجوده بالمدينة المنورة العملية التعليمية، وساندها بكل ما له من مكانة وتقدير في نفوس المسلمين. وقد كرس جل وقته في تعليم المسلمين وإرشادهم، وكثيراً ما كان يلقي دروسه بعد الانتهاء من أداء فريضة الصلاة[٢].

ولم يكن الرسول ﷺ المعلم الوحيد بالمدينة. فقد درج العديد من الصحابة (رضوان الله عليهم) على إلقاء الدروس في مسجد قباء وغيره من المساجد، أثناء حياة الرسول ﷺ[٣]. ومن المؤكد أن وجود تسعة مساجد على الأقل بالمدينة المنورة خلال حياة الرسول فيها، تطلب أن يكون في كل مسجد منها معلم من الصحابة يقوم بمهمة التعليم وإلقاء الدروس فيها. ولا نظن أن هذا يتم إلا بموافقة الرسول ﷺ ومباركته، ولذا فإن العلاقة بين المسجد والعملية التعليمية استمرت على قوتها ورسوخها، حتى بعد وفاة الرسول ﷺ، مما

(١) M. Hamidullah, p. 58.

(٢) Kh. I. Semaan, p. 192.

(٣) أحمد فكري، مساجد القاهرة ...، ٢ : ١٤٣.

مكنها من البقاء بقوة وثبات.

وقد جاءت وفاة الرسول ﷺ متزامنة مع بداية اعتياد عامة المسلمين على التحلق حول أصحابه، ليستمعوا إليهم فيما جاء به الرسول من أقوال وأفعال، يشرحونها للناس، ويفسرونها لهم. وبمرور الوقت أصبح هؤلاء الصحابة (رضوان الله عليهم)، أول معلمين في الإسلام، وأضحى المسجد قاعة كبرى لدروسهم[1]. وفعلاً ترسخ المسجد منذ ذلك الوقت كمركز للعلم والتحصيل، بجانب كونه داراً للعبادة، واستمر هذا الدور المزدوج للمسجد بدون أي عوائق خلال فترة الحكم الأموي، والعباسي، وما أعقبهما من عصور الحكم الإسلامي[2].

ومع اطراد حركة بناء المساجد وكثرة عددها نتيجة لانتشار الدين الإسلامي، وتوسع رقعة الدولة الإسلامية، ازدهر الدور التعليمي للمساجد وتطور بحيث أصبح يغطي العديد من المجالات العلمية بجانب العلوم الإسلامية والشرعية، وشهد المسجد معلمين وعلماء يلقون الدروس في العلوم الأساسية والدراسات المتقدمة، وبذلك تطورت مدارس المساجد لتصبح مراكز تعليمية بارزة، تشتهر بعلمائها الإجلاء، وكثرة الدارسين فيها، ويحدثنا أحد الكتاب قائلاً: «ونرى أبا الزناد خارجاً من مسجده بالمدينة، محاطاً بطلابه، كسلطان تحيط به حاشيته، يسأله أحدهم في مسألة شرعية، وآخر يستفسر منه عن معضلة رياضية، وثالث

---

(١) Ruth Stellhorn Mackensen, "Background of the ..., p. 122-123.

(٢) Salih Tug, p. 214.

يستوضحه في أمر قصيدة شعرية، بينما يلاحقه الآخرون مستفسرين عن سنة سنها الرسول الكريم ﷺ أو حول رأى فقهي »[١].

وقد كانت الدائرة أو شبه الدائرة الشكل الأساسي المميز لدروس المسجد، وتعرف في البيئة الإسلامية باسم « حلقة الدرس »، أو « الحلقة » على سبيل الاختصار. وبناء على هذا النظام الحلقي يعمد المعلم عند إلقاء الدروس بالمسجد إلى الوقوف أو الجلوس، بينما يلتف أمامه الدارسون في شبه دائرة واحدة، أو أكثر، وعلى ذلك فإن الحلقة لا تكون كاملة الاستدارة، إذ ليس من اللائق الجلوس خلف المعلم أثناء إلقاء الدرس[٢]. وقد جرت العادة على تعدد الحلقات في المسجد الواحد، ولا سيما المساجد الجامعة.

وقد أشار المقريزي في معرض حديثه عن المساجد في مصر إلى أنه كان يوجد في جامع عمرو بالقاهرة، أكثر من أربعين حلقة درس، وذلك قبل المجاعة والوباء اللذين أصابا البلاد عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م[٣]. كما ذكر الرحالة ابن بطوطة أن عدد الطلاب في حلقات الدرس التي كانت تعقد بالمسجد الأموي في دمشق بلغ أكثر من خمس مئة دارس يتلقون العلم، وتصرف لهم الجرايات ووجبات الطعام مجاناً[٤].

---

(١) S. Khuda Bukhsh, "The educational system...., p. 459.

(٢) Munir-ud-Din Ahmed , p. 52.

(٣) أحمد بن علي المقريزي، ٣: ٢٠٣.

(٤) Khalil A. Totah, p. 43.

في غياب الكتاب الدراسي، كان على المعلم أن يملي دروسه أو بعضاً منها. ويتوقف ذلك على أهمية الموضوع المطروح للبحث. وعندما يستدعي الأمر أن يملي المعلم الدرس على طلابه، كان يراعي أن يفعل هذا بتأنٍ، ليفسح لهم الوقت لتدوين ما يقول بأقل قدر ممكن من الأخطاء، ويقوم المعلم - في وقت لاحق - بقراءة ما دونه طلابه في دفاترهم، لمراجعته، وتصحيحه قبل أن يسمح لهم بتدريس ما جاء فيه إلى الآخرين. وبجانب الإملاء، درج بعض الأساتذة على حث طلابهم على حفظ ما جاء في الدرس - أو بعض منه - عن ظهر قلب. والجدير بالذكر أن مناهج الحفظ وأساليب التذكر والتدريب عليها، كانت تدخل ضمن الإطار الدراسي الذي يتلقاه الطلاب في حلقة الدرس بالمسجد، حيث يتعلمون الأساليب التي تمكنهم من حفظ ما تلقوه من علوم، وإعادة إلقائها بأكبر قدر ممكن من الدقة والتأني[1].

و على الرغم من السلطة المطلقة التي كان يمارسها المعلمون على طلابهم، والتي تعد من الأمور البديهية في حلقات المساجد، إلا أنها كثيراً ما كانت توضع في محك التجربة العملية، حيث كان يسمح للطلاب - بل ويشجعون - على مساءلة معلميهم ومناقشتهم في المسائل العلمية، كما كان يسمح لهم بمناقشة معلمهم والاختلاف معه في بعض وجهات النظر التي يطرحها، بشرط أن يكون لديهم ما يؤكد وجهة نظرهم ويدعمها من الزاوية العلمية، مع مراعاة أدب المخاطبة، واللياقة في الحديث. ومن جهة أخرى كان على المعلم الاعتراف

(١) Mehdi Nakosteen, p. 58.

بمجانبة الصواب، عند اقتناعه بوجهة نظر أو رأى أحد طلابه المعارضين آخذاً بمبدأ «من يقول لا أعلم، عندما لا يعلم، فقد بلغ من العلم نصفه»(١). ومن المؤكد أن نظام النقاش العلمي المفتوح، أدى إلى اهتمام المعلمين بمهنتهم وحرصهم على الاستزادة والتحصيل، وبالتالي اهتمامهم بتحضير دروسهم بعناية تامة، وبأكبر قدر من الدقة، حتى تلقى قبول الطلاب واستحسانهم.

و على الرغم من أن الموضوعات التي كانت تدرس في المساجد، تعد جزءاً من العلوم الإسلامية وليست كلها، إلا أنها كانت تتصف بالتنوع والثراء. وقد كان التفقه في العقيدة الإسلامية على رأس أولويات العملية التعليمية في أغلب حلقات المساجد ودروسها، يليها تعلم القراءة والكتابة وإتقانهما، وذلك في إطار تدريس عدد من الموضوعات الإسلامية، أهمها تلاوة القرآن الكريم، وعلوم التفسير والحديث، والتوحيد والفقه، كما كان يتم التركيز - أيضاً - على تدريس الأدب وعلوم اللغة(٢). وبالإضافة إلى دراسة الشعر، فقد، أغرم الكثير من الطلاب بدراسة الموضوعات المختلفة ذات العلاقة الأخرى باللغة العربية وآدابها، ومن ذلك علوم: النحو والصرف، والبلاغة، والإنشاء، والخط(٣). كما تضمنت حلقات المساجد دروساً في الموضوعات العلمية والاجتماعية، ولذا نجد علوماً مثل: التاريخ، والجغرافيا، والاقتصاد، وحتى

(١) khalil A. Totah, p. 59.

(٢) Ahmad Shalaby, pp. 52-54.

(٣) سعد مرسي أحمد وغيره، ص ٢٣٢ .

العلوم السياسية، كانت موضع اهتمام المعلمين وطلابهم. كما حظيت علوم الفلسفة باهتمام خاص من غالبية الدراسين، ولاسيما علمي المنطق والأخلاق. كما وجدت حلقات تعليمية تعطي دروساً في علوم الكيمياء، والفيزياء، والرياضيات، والجبر، والهندسة(١).

و على الرغم من أن تدريس العلوم التطبيقية كان يتم من خلال الأكاديميات التعليمية المتخصصة، أو عن طريق المعلمين الخصوصيين في منازلهم، إلا أن هنالك العديد من الشواهد التي تشير إلى تدريس بعض من هذه العلوم في حلقات الدرس بالمساجد. ويروى أن العلوم الطبية كانت تدرس في حلقات الجامع الأزهر، وجامع ابن طولون بمصر، بجانب تدريسها في جامع القرويين بالمغرب(٢)، كما وجدت حلقات لتدريس علوم الفلك، والهندسة بالجامع الأزهر. وقد ذكر الخولي، أن الكثير من الطلاب الوافدين من سوريا، وإيران، والهند، كانوا يقصدون بغداد للاستماع إلى دروس الطب، والصيدلة، والهندسة، والفلك، وغيرها من العلوم التي كانت تعقد حلقاتها في مساجد تلك المدينة(٣).

وبذلك أصبح التعليم ركناً أساسيّاً ومهنة تمارس في الغالبية العظمى من المساجد الكبيرة (الجوامع)، بل وأصبحت مدارس هذه المساجد تجسد الوجود

---

(١) علي محمد الشاذلي الخولي، ص ٢٠ .

(٢) Abd al-hadi al-tazi. p. 22. And Bayard Dodge, Al- Azhar...pp 51-52.

(٣) علي محمد الشاذلي الخولي، ص ٢٠.

الحقيقي للأكاديميات العلمية والجامعات في المجتمعات على امتداد الدولة الإسلامية. ووجد الآلاف المؤلفة من الطلاب الذين كانوا يلتحقون بحلقات الدروس المقامة بالمساجد الكبيرة، كالحرم المكي، والحرم المدني، والجامع الأزهر، والجامع الأموي، وجامع المنصور، وجامع القيروان، وجامع القرويين بالمغرب، وغيرها من الجوامع الكبيرة في العالم الإسلامي. ومع التوسع الكبير في الدور التعليمي للمساجد، أصبحت المرتبات الثابتة للمعلمين من العوامل المحفزة للعملية التعليمية والواجبة لاستمرارها وتطورها.

ولكن يجب أن لا يتبادر إلى الأذهان أن مثل هذه الأمور كانت تأخذ طريقها إلى التطبيق والانتشار بسهولة ويسر، بل على العكس تماماً، فقد كان يوجد دائماً من يعترض على تطبيقها، إيماناً منهم بأن التعليم رسالة وفرض على كل عالم مؤمن، إنه لا يصح أن يتخذ العلم كوسيلة لكسب العيش، بل يجب أن يؤدى لوجه الله تعالى. ويحدثنا جولدتسهير في هذا قائلاً: «تميل العقيدة الإسلامية وتعاليمها، كما هو الحال في الأديان الأخرى إلى الأخذ بمبدأ مجانية التعليم الديني.. ولكن مع إقرارنا بصحة هذا المبدأ، وجودته كفكرة عقائدية سامية، بل ومحاولة البعض وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ، إلا أنه كان من الصعب تطبيقه في الحياة العملية.. ولذا فقد أصبح دفع رواتب للمعلمين هو العرف السائد المتعارف عليه في ظل القوانين الإسلامية»(١).

وبجانب ما كان يحصل عليه المعلمون من رواتب، فقد كان طلاب العلم

---

(١) I. Goldziher, 5:203-203.

يحصلون - أيضاً - على مكافآت مالية، إضافة إلى الإقامة المجانية. وعلى الرغم من أن كثيراً من الطلاب كانوا ينفقون من مالهم الخاص على سفرهم وترحالهم خلال رحلة البحث عن معلم قدير يتتلمذون علي يديه، إلا أن معظمهم كان يجد الرعاية والإقامة المجانية حال استقرارهم في البلد الذي يقصدونه، وقد حدثنا الرحالة الشهير ابن جبير، أنه رأى الكثير من المزايا والتسهيلات التي كانت تقدم للطلاب المغتربين في جامع أمية بدمشق(١). أما الدارسون بجامع القرويين في المغرب، فقد كانوا يحصلون على مكافآت نقدية دورية، بجانب إعفائهم من مصروفات الدراسة(٢). في حين أمر الأمير المملوكي يلبغا العمري عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م، بأن يعطى كل طالب علم بجامع ابن طولون في القاهرة مبلغ أربعين درهماً، وإردب قمح شهرّياً(٣). أما في الجامع الأزهر، فقد ألحق الطلاب القادمين من أقاليم مصر أو من خارجها، بمحال إقامة حيث يصرف عليهم من أموال الوقفيات(٤).

وقد احتل العلماء وطلاب العلم، مكانة عالية في المجتمعات الإسلامية، وكانوا يقدرون من الحكام والعامة على حد سواء، حيث كان ينظر إليهم نظرة خاصة تتناسب ومكانتهم كحاملين للعلم ومتلقين له. لذا عندما كان ينزل

---

(١) محمد عطية الأبراشي، ص ٨٥ .

(٢) Jacques Waardenburg , p. 109.

(٣) أحمد بن علي المقريزي، ٣ :٢٢٢- ٢٢٣ .

(٤) Bayard Dogge, p. 26.

أحد العلماء المشهورين زائراً على حلقة درس أحد المساجد، نجد تسابقاً بين الأهالي وطلاب العلم للحضور في حلقته والتشرف بحضور مجلس علمه. ويحكى في هذا الصدد، أن الخليفة العباسي هارون الرشيد، أرسل في طلب الإمام الجليل مالك بن أنس، ليستشيره في بعض المسائل ويستأنس برأيه، فرجع إليه رسوله برد الإمام الجليل بأن على طالب العلم أن يسعى إليه بنفسه، فلم يتردد الخليفة، حيث ترك مجلسه وذهب إلى لقاء الإمام(١). والجدير بالذكر أنه كان لعلماء المسلمين مكانة عظيمة وقدر كبير، وبالرغم مما فيها من غلو، إلا أن واقعة وفاة العالم أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله ابن حيوية - الملقب بإمام الحرمين الجويني - لدليل على هذا الأمر. فبجانب إغلاق أبواب مدينة نيسابور حزناً على وفاته، نقرأ أيضاً أنه: «وضعت المناديل عن الرءوس عاماً بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه من الرءوس والكبار، وكسر منبره في الجامع المنيعي وقعد للناس للعزاء أياماً عزاء عامّا وأكثر الشعراء المراثي وكان طلبته وهم قريباً من ٤٠٠ طالب يطوفون في البلد نائحين عليه، مكسرين المحابر والأقلام»(٢).

ومن نافلة القول إن كثيراً من علماء المسلمين كانوا طلاب علم تارة ومعلمين تارة أخرى في العديد من حلقات الدرس بالمساجد. وقد ذكر أن كبار العلماء من أمثال أبي عمرو الشعبي، والحسن البصري، والأحنف ابن قيس، وغيرهم كانوا يقومون بإلقاء الدروس في مساجد العراق (٣). كما تحدثنا المصادر بأن

(١) Khalil Totah, p. 39.

(٢) ناجي معروف، مدارس قبل ...، ص ١٣٦.

(٣) علي حسني الخربوطلي، ص ٣٥٧.

ابن رشد، وابن الصائغ، وابن بسام، وابن باجه، وابن زيدون، والنطاسي الشهير أبا القاسم الزهراوي، كانوا من خريجي مدارس الجوامع بإسبانيا[١]، ويذكر أن الخليل بن أحمد قد أعطى دروساً في فقه اللغة بمسجد في البصرة، وكان من بين طلابه العالم سيبويه الذي عرف فيما بعد كأشهر نحوي على مر العصور[٢]. وممن درس ودرّس في جامع القرويين بفاس: ابن خلدون، وابن الخطيب، وابن حزم، وابن ميمون، وابن الوزان. ويقال إن البابا سيلفستر الثاني درس في سفره بالجامع نفسه، حيث تعرف على نظام الترقيم العربي، وكيفية استخدام القيمة الصفرية (الصفر)، ومن ثمّ تولى التعريف بهما في أوربا فيما بعد[٣]، وقد ذكر سالم أن البابا نفسه قد درس أيضاً في الجامع الكبير بمدينة قرطبة[٤].

و على الرغم من استمرارية المساجد في جذب الكثير من الدارسين، والاستحواذ على اهتمامهم كمراكز تعليمية، إلا أن المناهج الدراسية للعديد من الحلقات الدراسية بالمساجد. ظلت دون تطوير، متمسكة بالأساليب التقليدية في التعليم، غير مواكبة لتطورات العصر. وقد أدت الظروف السياسية والاجتماعية التي مر بها العالم الإسلامي في الفترة ما بين سقوط

(١) علي محمد الشاذلي الخولي، ص ٣١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧.

(٣) Rom Landau, p. 105.

(٤) السيد عبد العزيز سالم، ص ٣٨٢.

الدولة العباسية ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وحتى وقت قريب، إلى تدهور الحالة الفكرية والثقافية للمجتمعات الإسلامية، وقتل روح الإبداع، والابتكار التي تميز بها المسلمون خلال فترة الازدهار السياسي والثقافي والعلمي للدولة الإسلامية.

وقد كان لظهور المؤسسات التعليمية الحديثة، الأثر الكبير في إنهاء الدور الريادي للمسجد كمؤسسة تعليمية في المجتمعات الإسلامية. ولم يتبق من آثار التعليم التقليدي في المساجد، إلا بضع حلقات استطاعت أن تصمد أمام رياح التغيير، وتستمر في أداء دورها التعليمي، ويذكر منها تلك التي وجدت في الجامع الأزهر بمصر، وجامعي القيروان والزيتونه بتونس، وجامع القرويين بالمغرب. وحتى تلك الحلقات لم تستطع الاستمرار إلا بعد أن أجرت الكثير من التعديلات على مناهجها لتواكب معطيات العصر، وتحولت في نهاية الأمر إلى أكاديميات علمية بالمفهوم الحديث، إلا أنها مازالت مرتبطة بالتعليم الديني وبالمساجد التي أنشئت فيها، ولنا في الجامع الأزهر بمصر خير مثال على النمط التعليمي الإسلامي الحديث.

الفصل الثاني

نشأة الكتب في المجتمع الإسلامي

مقدمة:

ترجع معرفة المسلمين بمواد الكتابة واستخدامهم لها في شبه الجزيرة العربية إلى ما قبل الإسلام. فقد عرف عن عرب الجاهلية، وخاصة في مكة وما حولها، استخدامهم لوسائط كتابية متعددة، مثل الرقوق المصنوعة من جلود الحيوانات، والألواح الحجرية، والجريد أو سعف النخيل، وأوراق البردي، ذلك بجانب استعمالهم لعظام الحيوان وخاصة الجمال والأغنام(١). ونظراً لما كان لهم من علاقات تجارية، واتصالات واسعة، وروابط متعددة مع جيرانهم خارج الجزيرة العربية، فمن المحتمل أن يكون عرب الجاهلية قد عرفوا أيضاً الكتابة على الألواح الطينية، والعاج، والأخشاب، والمعادن، والأقمشة الكتانية والحريرية. وبالرغم من قسوة العوامل الجوية والطبيعية وعدم ملاءمتها للحفاظ على الكثير من الوسائط المستخدمة للكتابة، إلا أن الحفريات التي أجريت في الجزيرة العربية، أدت إلى اكتشاف الكثير من المواد المخطوطة، وخاصة تلك التي نقشت على الوسائط الصلبة، الحجرية منها والمعدنية(٢).

الكتابة وظهور الورق:

على الرغم من انتشار الأمية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، إلا أن الدلائل التاريخية تشير إلى معرفة عرب ما قبل الإسلام لفن الكتابة، وقد أشار

(١) سعد موريس أحمد وغيره، ص ص ١٩٦ – ١٧٠.
(٢) Khalil A. Totah, P. 2.

ابن النديم، صاحب كتاب الفهرست، إلى معرفة عرب الجاهلية بالكتابة بالخط الحبشي، بالإضافة إلى تمكنهم من التدوين بخطوط قبائل جنوب الجزيرة من سبأ وحمير(١). وبجانب تعلمهم لفن الخط، كثيراً ما استخدم عرب الجاهلية الكتابة في توثيق المعاهدات والعقود والمواثيق الرسمية التي كانت تعقد فيما بينهم(٢). وتشير المصادر كذلك إلى أن تدوين القصص والروايات كانت من الممارسات المعروفة في مكة وبعض أجزاء شبه الجزيرة العربية(٣). وقد ذكر أحد المتخصصين في الشعر العربي القديم، بأنه خلافاً للاعتقاد السائد بأن الثقافة العربية قبل الإسلام كانت ثقافة شفوية، فإن الشواهد تشير إلى أن العديد من القصائد العربية القديمة قد دونت قبل حلول القرن الرابع الميلادي(٤)، ومما يؤكد هذه الحقيقة ويدعمها، رسوخ مفاهيم كثير من المصطلحات العربية ذات العلاقة بالكتابة وأدواتها منذ العصر الجاهلي في وجدان الثقافة العربية، مما يعد دليلاً قويًّا على ظاهرة استخدام عرب الجاهلية لهذه الأدوات ومعرفتهم بها معرفة جيدة(٥).

وقد استمر استخدام مواد الكتابة التي كانت معروفة في الجاهلية إلى ما بعد ظهور الإسلام. ولذا، فإن تدوين الوحي الذي نزل على الرسول الكريم ﷺ في

---

(١) محمد بن إسحاق ابن النديم، ص ٨، ٢٩

(٢) Bayard Dodge, Muslim Education.... p.1.

(٢) M. Hamidullah, p.50.

(٣) Ruth Stelllhorn Mackensen, Arab books..., p .42.

(٥) M. Hamidullah, p.51.

فترات متقطعة، تم على بعض من هذه الوسائط، ومن ذلك، اللخاف وهى الحجارة البيضاء الملساء، والعظام، وجريد النخيل، وورق البردي، والرقوق، وغيرها(١). وبجانب تدوين القرآن الكريم الذي كان يتولاه عدد من كتاب الوحي، قام الرسول ﷺ بتعيين عدد من الكتاب لتدوين المراسلات، والمواثيق، والأوراق الرسمية التي تتعلق بإدارة شئون الدولة. وقد تناولت تلك الوثائق، التي كانت تكتب في الغالب على الرقوق، العديد من الموضوعات، كالمعاهدات السياسية، وقوائم بأسماء المجاهدين، والمهام التي كان يكلف بها الرسول ﷺ أمراءه في الأمصار التي دخلت الإسلام، هذا فضلاً عن مراسلاته زعماء القبائل والدول المختلفة.

ويرجع الفضل إلى الرسول ﷺ في أول استخدام لنظام «الختم» في شبه الجزيرة العربية، كما عرف عنه كثرة استخدامه للوثائق المدونة في تصريف شئون الدولة، حيث كان يمليها على النساخ المنوط بهم هذا العمل. وقد تم العثور على عدد من هذه الرسائل التي يقال بأن عددها تراوح ما بين المئتين والثلاث مئة رسالة(٢). وبجانب السنة النبوية التي أكدت على أهمية تدوين المعاملات وتوثيقها، فقد أكد القرآن الكريم أيضاً، وفي أكثر من موضع، أهمية هذه الممارسة، حيث حث المسلمين على تسجيل معاملاتهم التجارية كتابة، ولاسيما فيما يختص منها بالتعامل الآجل. كما حث أيضاً على كتابة الوصايا

(١) khalil Mahmud, p.11.

(٢) M . Hamidullah, p. 56.

تحسباً لأي منازعات قد تحدث في المستقبل بين الورثة والمنتفعين، وعلى النهج نفسه يوصينا القرآن الكريم بكتابة الديون مهما صغر شأنها، وذلك تأكيداً للحقوق وحفاظاً عليها، حيث يقول عز وجل: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم ... ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ... والله بكل شيء عليم** ﴾[1] .

وعلى الرغم من كل هذه التأكيدات التي حث عليها القرآن الكريم، ونادى بها الرسول ﷺ ؛ فإن الممارسات الكتابية لعموم المسلمين الأوائل كانت محدودة. ومن أسباب ذلك ندرة ورق البردي، المستورد من الخارج، والذي كان يعد وسيط الكتابة الرئيسي، وارتفاع سعره. يضاف إلى ذلك أن الجلود المستخدمة في صناعة الرقوق كانت قليلة، وذلك بسبب قسوة عوامل الطبيعة، وارتفاع حرارة الجو، والترحال المستمر للقبائل، وعدم استقرارها في مكان واحد لمدة طويلة، مما أعاق تربية الثروة الحيوانية من الجمال والأغنام وغيرها من الحيوانات الأليفة، التي يعتمد على جلودها في صناعة الرقوق. وبجانب ذلك، فإن عملية تشذيب الأخشاب والمعادن والعظام، وتهذيبها لتكون صالحة للكتابة، كانت من الأمور الصعبة والمكلفة، نظراً لقلة الإمكانات المتاحة آنذاك.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

وبانتشار الإسلام في مصر، والشام، وفارس، وغيرها من الأمصار، تغير الوضع بصورة جذرية، حيث توافرت الوسائط الكتابية بصورة أفضل، وأصبحت في متناول الغالبية العظمى من المسلمين ففي بلاد الشام تعلم المسلمون من الرومان كيفية تصنيع الرقوق وأدخلوا عليها تحسينات كبيرة. وفي مصر عرف المسلمون صناعة ورق البردي وطوروها. ويؤكد المؤرخون أن البرديات كانت الوسيط الكتابي الرئيسي لشعوب العالم القديم، ثم استخدمت الرقوق المصنعة من جلود الحيوانات الأليفة كالأبقار والأغنام والماعز. وقد استخدم المسلمون هذين الوسيطين في بداية تعاملهم مع الوسائط الكتابية، ويرجع الفضل في إلقاء الضوء على كيفية إدارة المسلمين الأوائل لمصر، إلى اكتشاف مخزون كبير من الوثائق العربية، وجدت مدفونة في بعض المناطق. وقد اتضح من هذه الاكتشافات أن الرقوق وورق البردي استخدما في تدوين المعاملات الرسمية للدولة، وكذلك في إعداد نسخ من القرآن الكريم[١].

الورق والوراقة:

لا شك أن اكتشاف الورق، وانتقال فنون صناعته إلى العالم الإسلامي، يعد العامل الرئيسي لإحداث ثورة هائلة في مجالات التعليم، والكتابة، وتطور فنون الخط في الدولة الإسلامية. وقد تنبه المسلمون ـ بعد أن تمكنوا من إتقان صناعة الورق ـ إلى الإمكانات الهائلة لصناعتهم الوليدة، ومستقبلها العريض. ونتيجة للتوافر النسبي للمواد الخام ورخص ثمنها، أصبح الورق سلعة مألوفة

(١) Sh Inayatullah, p. 157.

وشائعة الاستخدام. وقد انتشرت صناعة الورق في بغداد، حتى أن الوزير العباسي جعفر بن يحيى البرمكي، تمكن من استبدال الرقوق بالورق في جميع المعاملات الرسمية للدولة(١)، هذا وقد وصفت عملية استبدال أخرى هي استبدال البرديات بالورق بصورة رائعة في خطاب، دون في أواخر القرن التاسع الميلادي أنهاه كاتبه بالاعتذار من المرسل إليه باضطراره إلى الكتابة على ورق البردي(٢). وقد ذكر أحد الرحالة خلال زيارته للقاهرة عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م قائلا بأن أكثر بائعي الخضراوات، والتوابل وغيرها، كانوا يستخدمون الورق في تغليف بضاعتهم عند بيعها(٣). ويبدو أن هذا الوضع وما شابهه كان مصدر استنكار وأسى من قبل بعض الأدباء، ومنهم عماد الدين الأصبهاني الذي ندب سوء حظ كتبه ومسوداته ودفاتره ومصيرها المحزن بعد وفاته إلى إسكافي وعطّاري مدينته، فقال :

هى كتبي وليس تصلح بعد ي لغير العطّار والإسكافي
هى إما مزاود العقاقير أو بطائن الخفاف

وقد علق زيات على هذه الأبيات قائلاً: «وكفى التركات العربية شقاءً أن تمهن صحفها فتكون مزاود للصر وبطائن للخفاف والعصائب»(٤).

ولاشك أن الانخفاض النسبي لأسعار الورق، أدى إلى زيادة الإقبال على

(١) Sh Inayatullah, p. 158.

(٢) Doglas C. McMurtrie, pp. 64-65.

(٣) Thomas F. Carter, p.99.

(٤) حبيب زيات، مج ٤٨، ع ١: ٣-٤ .

شرائه واستهلاكه، مما شجع على التوسع في انتشار مصانع الورق في معظم مدن الدولة الإسلامية وأقاليمها. كما تمكن المسلمون من استنباط مواد خام جديدة متوافرة لديهم، مثل القطن وبعض الأنسجة الأخرى، لاستخدامها في صناعة الورق العربي، ولا نجافي الحقيقة إذا ما قلنا إن فضل المسلمين على أوربا لا ينحصر فقط في تعريفهم بصناعة الورق، بل يمتد - أيضاً - ليشمل تعريفهم بزراعة القطن، الأمر الذي أسهم إلى حد كبير في نشأة صناعة الورق وتطورها بالغرب. فالقطن لم يكن معروفاً في أوربا قبل إدخال زراعته من قبل العرب. وليس أدل على ذلك من المصطلحات التي أطلقت عليه في اللغات الأوربية، حيث سمى Algodon بالإسبانية، و Coton بالفرنسية، وCotton بالإنجليزية، وهي مسميات مشتقة - كما هو واضح للعيان - من الاسم العربي «القطن»[1].

ومن نافلة القول، إن الورق لم يستغل في أي مكان بشمولية واقتدار لتدعيم العملية التعليمية والارتقاء بفن الكتابة والتدوين، كما استغل من قبل المسلمين. فبينما كان الورق ينتشر في أوربا بمعدلات ضعيفة، كان المسلمون يستخدمونه بكثرة، وبمعدلات متنامية، يعينهم على ذلك تراثهم الفكري وتبنيهم للتراث الأدبي والعلمي للحضارات التي سبقتهم. وبذلك استطاعوا أن ينشروا إنتاجاً علمياً وأدبياً متميزاً وعظيم القيمة. وقد أشار أحد الباحثين إلى

(١) Sh. Inayatullah, p. 160.

ذلك بقوله: «عندما انتقلت صناعة الورق إلى العرب، تمكنوا من استخدام هذه المادة في تطوير إنتاجهم الفكري، ونشر التعليم في المجتمع بأسلوب حضاري متوازن»[١].

وقد كانت نشأة مهنة الوراقة، التي اشتقت اسمها من الورق، كحرفة مهنية جديدة لم تعرف من قبل، أحد النتائج الفرعية التي تمخضت عنها النهضة العلمية والأدبية في الدولة الإسلامية، وفرضت وجودها كمهنة تمارس بفعالية واقتدار، وذلك بفضل وجود الورق وتوافره في جميع المجتمعات الإسلامية. ويطلق لقب الوراق على كل من يمتهن هذه الحرفة، وهو عمل كان يقتصر عادة على الرجال دون الإناث، ويرتكز على بيع الورق. وفي بعض الأحيان، كان الوراق يضطلع بمهمة نسخ المخطوطات وبيعها لزبائنه، وذلك من خلال مكان خاص به، غالباً ما يكون حانوتاً صغيراً، أو حجرة علوية بمبنى في السوق الشعبي بالمدينة[٢].

ويعتقد أن مهنة الوراقة بدأت بعد وقت قصير من قيام صناعة الورق في العالم الإسلامي. وأغلب الظن أن بغداد هي أول مدينة عربية شهدت نشأة حوانيت الوراقين. ومع انتشار صناعة الورق وتطورها، ازداد عدد هذه الحوانيت، على امتداد ربوع الدولة الإسلامية[٢]. وقد أحصى اليعقوبي في

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ص ١٥٨- ١٥٩.

(٢) Bayard Dodge, Muslim education... , p. 14.

(٣) Mehdi Nakosteen, p.47.

أواخر القرن التاسع الميلادي، ما يزيد على مئة حانوت وراقة في ضاحية من ضواحي مدينة بغداد. كما أشار البعض أيضاً إلى وجود سوق خاص للوراقين بمدينة القاهرة إبان الحكم الطولوني والإخشيدي لمصر، حيث كانت تعرض الكتب للبيع، وتقام في تلك الحوانيت حلقات النقاش والمحاورة(١).

ولعل هذه الحقيقة الأخيرة تطرح بعداً جديداً للموضوع، وتؤكد بأن الوراق لم يكن مجرد بائع للورق، أو ناسخ للمخطوطات فقط، بل كان في بعض الأحيان أديباً ومحدثاً ومفكراً. لذا نجد علماء من أمثال ابن النديم واليعقوبي، لم يكتفوا بممارسة مهنة الوراقة، أو استنساخ أعمال الآخرين، بل أنتجوا أعمالاً فكرية خالدة من إبداعهم الخاص. وليس بغريب عندما يكون الوراق أديباً أو عالماً، أن يزوره بعض من أقرانه العلماء ليتحول حانوته إلى منتدى أدبي وعلمي من الطراز الأول. وقد ذهب شلبي إلى حد المقارنة بين الممارسات الفكرية التي كانت تجرى في حوانيت الوراقين، وبين ما كان يحدث في الأسواق التجارية والأدبية التي كانت تقام خلال العصر الجاهلي، وتحدث عن ذلك قائلاً: «لعل من الممكن أن نربط بين أسواق العرب في الجاهلية: عُكاظ ومجنة وذي المجاز، وبين دكاكين بيع الكتب في الإسلام، ففي تلك الأسواق كان العرب يجتمعون للقيام ببعض الصفقات التجارية، ولكنهم كانوا ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليقوموا بنشاط رائع في الناحية الأدبية، فينشدون الأشعار، ويعقدون

(١) Ahmad Shalaby, p. 27.

المناظرات، ويلقون الخطب الرنانة. وحاكتها في ذلك دكاكين بيع الكتب، هذه الدكاكين التي فُتحت في الأصل لأعمال تجارية، ثم إذا هي تصير مسرحاً للثقافة والحِوار العلمي، عندما أمَّها المثقفون والأدباء، واتخذوا منها مكاناً لاجتماعاتهم وأبحاثهم»[١].

وبجانب معارفهم الواسعة المكتسبة من قراءة الكتب والاطلاع عليها، تمتعت الغالبية العظمى من الوراقين بمكانة عالية في المجتمع، حيث كانوا يستنسخون أمهات الكتب ويتيحونها للمشترين بأسعار معقولة. كما كانوا يقومون بأنفسهم، أو عن طريق وكلائهم، بالسفر والترحال إلى أقاصي البلاد بحثاً عن نوادر الكتب وعجائب المخطوطات، بغرض نسخها وإتاحتها للعلماء والدارسين. لذا لم يكن من المستغرب أن تكتسب حوانيت الوراقين احترام هؤلاء العلماء والدارسين وتكون محل تقديرهم. وقد كان من الممارسات المعتادة أن يرتاد العلماء وطلاب العلم هذه الحوانيت، يقضون الساعات الطوال بين جوانبها، يتفحصون الكتب المتوافرة بها يطالعونها ويتدارسون ما جاء فيها، أو يشترون منها ما يتناسب واهتماماتهم ليقتنوها في مكتباتهم الخاصة[٢]. ويقال إن الكاتب الشهير الجاحظ، كان يكتري حوانيت الوراقين، لكي يطلع على ما يوجد بها من كتب ومخطوطات، ويستنسخ منها ما يشاء طوال الليل. ويقال بأن الجاحظ توفي في أحد هذه الحوانيت، حيث سقطت عليه أكوام الكتب

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦ .

(٢) Mehdi Nakosteen, p. 47.

المحيطة به، وكان مريضاً كبير السن، فقتلته[1].

ولقد كان لهؤلاء الوراقين وحوانيتهم تأثير فكري كبير على المجتمعات التي وجدوا فيها، وكان لهم أثر فعال في تطوير المجتمعات الإسلامية، وتنمية قدراتها الأدبية والعلمية، خلال تلك الحقبة الزمنية التي وصفت بأنها العصر الذهبي للإسلام. كما يمكن الحكم على قيمة الخدمات التي أدتها مهنة الوراقة لنظام التعليم الإسلامي، وفنون الكتابة، وتقديرها حق قدرها، وذلك إذا ما رصدنا حركة تأليف الكتب ونشرها، وحجم تداولها في المجتمعات التي كانت تقدم فيها هذه الخدمة. وخير مثال على ذلك مجموعة رينير العربية في فيينا، التي تحتوي على أكثر من عشرين ألف وثيقة تعود إلى القرن الثاني وحتى القرن الثامن الهجري. وقد عثر على هذه المجموعة في أحد الاكتشافات الأثرية في مصر[2]. وهناك أيضاً المستشرق بورجستال الذي أحصى أسماء أكثر من خمسة آلاف كاتب مسلم ممن عاشوا وكتبوا قبل نهاية القرن الحادي عشر الميلادي[3]. ولا شك أن هذا العدد يفوق بكثير الحفنة القليلة ممن عرفوا فن التدوين والكتابة في عهد الرسول ﷺ.

تدوين الكتب:

نود في البداية، وقبل التعرض لموضوع تدوين الكتب واقتنائها في المجتمع الإسلامي، أن نبحث مفهوم كلمة «كتاب» من المنظور الإسلامي. وقد وصفنا، فيما سبق، أنشطة الكتابة في المجتمع الإسلامي منذ ظهور الإسلام وحتى وفاة

---

(١) محمد ماهر حمادة، ص ٨١.

(٢) Thomas F. Carter, p.99.

(٣) S. Khuda Bukhsh, The Islamic libraries..., p. 127.

الرسول ﷺ بالقلة والمحدودية، كما أشرنا إلى أن المسلمين بعد ذلك، وفي ظل ندرة وسائط الكتابة وعدم توافرها، عمدوا إلى استخدام ما يقع تحت أيديهم من مواد تصلح للكتابة عليها، وأنه على الرغم من ارتفاع تكلفة أوراق البردي، والرقوق، إلا أنهما كانا الوسيطين المفضلين للكتابة عند المسلمين.

وبشكل عام، لم تكن وسائط الكتابة لدى المسلمين تأخذ شكل اللفافات، بل كانت، غالباً، ما تأخذ شكل الكتاب العادي، المتعارف عليه، والذي يطلق عليه اسم الكوديكس CODEX في المجتمعات الغربية، لذا نجد أن النسخة الأولى الكاملة من القرآن الكريم، التي خطها كاتب الوحي زيد بن ثابت رضي الله عنه مؤلفة من صحائف متراصة، ومجموعة مع بعضها البعض بطريقة ما. كما يعد عمل الصحابي أنس بن مالك، مثالاً للمحاولات التوثيقية الإسلامية المبكرة. فقد دون، رضي الله عنه، ما سمعه من أحاديث الرسول ﷺ أو رآه من أفعاله بطريقة دقيقة ومكتملة. ويقال إنه وضع كل هذا في صحف مغلفة، كانت في الغالب الأعم من ورق البردي أو الرق(١). والتساؤل هنا، هل يمكن اعتبار هذه الصحف كتباً، أم هي مجرد وسائط تتضمن كتابات معينة؟، ويميل بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن ما كتبه أنس بن مالك رضي الله عنه لا يتعدى كونه مذكرات أو أوراق متناثرة، لا ترتقي لأن يطلق عليها مسمى «كتاب»(٢).

ويعد عمل عبد الله بن العاص، أحد أوائل الصحابة رضوان الله عليهم، من

---

(١) Muhammad Shafi, , p. 32.

(٢) Ruth Stellhorn, p. 247.

الأمثلة التي يعتد بها في هذا المجال، فقد قام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بتدوين حوالي عشرة آلاف حديث عن الرسول ﷺ، كما أطلق على عمله عنوان «الصحيفة الصادقة»[١]، فإذا ما أخذنا كلمة «الصحيفة» لتعني «فرخاً من الورق»، فإن عملاً مكتوباً به عشرة آلاف حديث، أولى أن يطلق عليه مسمى «كتاب»، ومن ثم يمكن أن يطلق على عمل عبدالله بن العاص اسم «الكتاب الصادق»: فإذا ما أخذنا بهذا التفسير المنطقي، يمكننا استنتاج أن العرب منذ عهد الرسول ﷺ، وربما قبل ذلك، قد استخدموا كلمتي «الصحيفة»، و«الكتاب» بشكل تبادلي ليعني كل منهما معنى الآخر ويحل محله. وحقيقة إن هذا التفسير له ما يدعمه استناداً إلى ما جاء في العديد من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه** ﴾[٢]، وقوله عز وجل: ﴿ **آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله** ﴾[٣].

وكما وصف القرآن الكريم بالكتاب، فقد ذكرت كلمة «صحف» للإشارة إليه. وينسحب هذا القول أيضاً على الكتب السماوية مثل التوراة والإنجيل.

وقد وصف العديد من الآيات القرآنية اليهود والنصارى بأنهم من أهل «الكتاب». والأمثلة على ما ذكر كثيرة. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ **رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة** ﴾[٤]، وقوله: ﴿ **إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف**

---

(١) Muhammad Shafi, p. 32.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٥٥ .

(٣) سورة النساء، الآية ١٣٦ .

(٤) سورة البينة، الآية ٢ .

إبراهيم وموسى ﴾(١)، وقوله جلّت قدرته: ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء ﴾(٢)، وقوله عز وجل: ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾(٣)، وقوله سبحانه: ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير ﴾(٤).

ولمزيد من الإيضاح حول المفاهيم التي ارتبطت بكلمة «كتاب»، نجد أن هذه الكلمة قد وردت بمعانٍ أخرى. فقد تذكر لتعني مفهوم التراسل، كالخطاب، أو الرسالة المكتوبة، التي تتألف من ورقة واحدة أو أكثر، كما وردت كلمة «كتاب» لتعني «القضاء» أو «القدر». وتستخدم هذه المعاني وغيرها في سياق استخدام اللغة العربية، كما وردت في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى في ملكة سبأ: ﴿ قالت يأيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ﴾(٥)، وقوله عز وجل: ﴿ وما أهلكنا من قرية إلآ ولها كتاب معلوم ﴾(٦). ونجد أيضاً أن القرآن الكريم قد استخدم هذه الكلمة بطريقة

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان ١٨- ١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٥٤ .

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٥٦ .

(٤) سورة المائدة، الآية ١٥ .

(٥) سورة النمل، الآية ٢٢٩.

(٦) سورة الحجر، الآية ٤.

رمزية، كما في قول عزّ من قائل :﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور رحيم ﴾[1]. كما يقول سبحانه في موضع آخر:﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾[2]. وفي موضع ثالث: ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾[3].

وأيّاً ما كان شكل الكتب في صدر الإسلام، سواء كانت على هيئة أوراق متناثرة غير مجلدة، أو مذكرات، أو معاهدات، أو في شكل رسائل ووثائق ومخطوطات، فمن الثابت أن الرسول ﷺ وأصحابه كانوا يعرفون الكتاب ويستخدمونه. ومن نافلة القول إن المسلمين كانوا يعرفون الكتاب في مفهومه المتعارف عليه، كمجموعة من الأوراق المكتوبة، المرتبط بعضها ببعض بشكل أو بآخر. وبتطابق هذا المعنى ويتسق تماماً مع اعتقاد المسلمين الراسخ بأن القرآن الكريم، والكتب السماوية التي سبقته ما هي إلا كتب، أو صحف، أو سجلات لوحي إلهي ، ذي مصدر واحد وغاية محدودة .

بدايات التأليف في المجتمع الإسلامي :

على الرغم من أن الأمويين لم يكونوا مصقولين حضاريّاً – لقرب عهدهم بالبداوة – أو حريصين على العلم والثقافة حرص من لحقهم من الحكام

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٥ .

(٢) سورة الأنفال، الآية ٦٨ .

(٣) سورة النساء، الآية ١٠٢ .

العباسيين، إلا أن بداية الاهتمام الحقيقي بالنثر الأدبي، وكتابة الكتب وتدوينها في المجتمعات الإسلامية، يؤرخ له ببزوغ فجر الخلافة الأموية بدمشق. وبالرغم من أن الحكم الأموي لم يتمتع ـ مقارنة مع فترات الحكم الإسلامي اللاحقة ـ بشهرة عريضة فيما يخص مجالات الأدب، عدا ما يتعلق منها بالشعر، إلا أن الأعمال التي وصلت إلينا من تلك الفترة، وكذلك تعليقات المؤرخين وملاحظاتهم، تثبت أن عهدهم لم يكن – كما يتراءى للبعض – فارغاً من الإنجازات الفكرية. ورغم ضآلة ما وصلنا من ذلك العصر، والذي يرجع إلى أسباب أهمها الاستخدام المكثف لوسيط كتابي ذي قدرة محدودة على تحمل العوامل البيئية والجوية للمنطقة ـ ونعني بذلك ورق البردي ـ مما أدى إلى اندثار جزء كبير من وثائق ومخطوطات تلك الفترة، بالإضافة إلى الحملة المنظمة التي شنها الحكم العباسي لمحو التراث الأموي المكتوب، إلا أننا نستطيع رسم صورة واضحة عن أنشطة المسلمين الفكرية في هذه الحقبة المبكرة من تاريخهم، وذلك بفضل ما وصلنا من مجموعات متناثرة من الرسائل الصغيرة، والأمالي المختصرة، وغيرها من المخطوطات والوثائق التي دونت في ذلك الحين(١).

ومن المؤكد أن الاهتمام بتعلم المهارات الأساسية للقراءة والكتابة، والتركيز عليهما، يعد من المؤشرات الأولى للصحوة العلمية والتعليمية لدى المسلمين. ويشير المؤرخون إلى فضل الأمويين في ذلك، حيث تعزى النشأة الحقيقية للتعليم في الإسلام إلى فترة حكمهم. ومن دلائل ذلك، كثرة الإشارات إلى

(١) Ruth S. Mackensen, Arabic Books... ,52:245-248.

المعلمين والمؤدبين في كتابات تلك الحقبة، مما يدعونا للقول – بلا تردد – بأن هذه الفئة من العلماء كانت تلقى احتراماً وتقديراً كبيرين .وقد ذكر ضيف أسماء العديد من هؤلاء المعلمين، وذلك في سياق دراسته عن الأدب العربي خلال العصر الأموي. وممن جاء ذكرهم، الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي بدأ حياته العملية كمعلم في مدينة الطائف(١) .

كما كان لدعم خلفاء بني أمية ورعايتهم للعملية التعليمية، وتحصيل المعارف، أكبر الأثر في دفع عامة المسلمين إلى الاهتمام بالإنتاج الفكري المكتوب، وزيادة تقديرهم له، واعتباره عملاً اجتماعيّاً رفيع الشأن. وهناك العديد من الإشارات إلى طلاب العلم والدارسين الذين سطروا كلمات أساتذتهم على أفرخ من ورق البردي ولفائفه، وعلى الألواح بمختلف أشكالها، بل حتى على جلود نعالهم. وقد كان العالم ابن شهاب الزهري موضع تندر من أصدقائه في سفره، وذلك بسبب حرصه على كتابة أي شيء يسمعه من معلميه مهما قل شأنه(٢). وتطالعنا المصادر بالعديد من الروايات التي تؤكد هذا الاهتمام وتدعمه، يذكر منها ما أشار إليه الشاعر الأموي ذو الرمة من أن الكتاب لا ينسى ولا يبدل كلمات أو أبيات قضى الشاعر الوقت الطويل في نظمها(٣)، ومن ذلك أيضاً، نصيحة أب لابنه بأن يهتم بشراء الكتب، وتدوين

(١) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ...، ٢ : ٢٠١.

(٢) Ruth S. Mackensen, Arabic Books... ,52:242-249.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٤٥ : ٤٣ .

المعارف، فالثروة لا تدوم، ولكن العلم دائم وباقٍ[1].

وبجانب اهتمامهم بالعملية التعليمية، اهتم الأمويون بجمع شعر الجاهلية وصدر الإسلام. كما اهتموا بحفظه، وتدوينه، ودراسته، مما يعطي انطباعاً صادقاً بأنه لولا هؤلاء الرواد الأوائل، لما أمكن للشعر الجاهلي أن يصل إلينا، ولما استمتعت كثير من الأجيال اللاحقة بما فيه من القصائد الرائعة. كما حرص خلفاء تلك الحقبة المبكرة من التاريخ الإسلامي على دعم وتشجيع شعرائهم، ولم يدخروا وسعاً في نشر نتاجهم الفكري والحفاظ عليه. ومن ألمع شعراء هذه الفترة الفرزدق، وجرير، والأخطل، والنابغة، والكميت، وغيرهم كثير، ولم يكن قرض الشعر ونظمه قاصراً على عامة المسلمين فحسب، بل إننا نجد – أيضاً – عدداً من أمراء البيت الأموي، كانوا يتمتعون بموهبة نظم الشعر وحفظه[2].

وبجانب رعايتهم للشعر والشعراء، شجع بنو أمية تأليف الكتب والكتابة في شتى المجالات المعرفية، ويعد كتاب «الموطأ» للإمام مالك بن أنس، من أمهات الكتب التي يرجع إليها المشتغلون بمهنة القضاء والقانون. كما ألف العالم أبو بكر ابن سيرين كتاباً تناول فيه موضوع الأحلام وشرحها. أما ابن موسى فقد ألف كتاباً في الزهد والتقشف. وعلى غرارهم ألف الكلابي «كتاب الأمثال»، الذي يعد من بواكيرالكتب العربية في الأمثال الشعبية والحكم البدوية، ويروى عن العالم الشهير البيروني أنه اطلع على كتاب عن الجواهر

(١) المصدر السابق نفسه، ٥٢ : ٢٤٩ .

(٢) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ...، ٢ : ١٣٩ – ١٤٠ .

والأحجار الكريمة دُوِّن إبان فترة حكم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان(١).

وقد أدى تمتع بعض المؤلفين والكتاب بالرعاية والعناية من قبل حكام بني أمية، إلى انتشار أعمالهم وحفظها من الضياع. ومن هؤلاء الكتاب المقربين وهب ابن منبه، وهو يمني المولد، توفي عام ١١٤هـ/ ٧٣٢هـ. وقد كان وهب غزير الإنتاج، كما أثرى التراث الإسلامي بالعديد من المؤلفات التي تناولت تاريخ جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام. ومن أشهر كتبه «الفتوح»، و«التيجان»، و«المبتدأ في الأمم الخالية»، و «القدر». ومن المقربين أيضاً أبو مخنف الأزدي الذي يعد من الرواد الأوائل في مجال الكتابات التاريخية، حيث رصد له أكثر من ثلاثين عملاً تاريخيّاً، وصل إلينا البعض منها. ويعد ابن شهاب الزهري، المتوفى نحو عام ١٢٤هـ / ٧٤١م، من أغزر مؤلفي تلك الحقبة إنتاجاً، كما كان له حظوة خاصة لدى خلفاء بني أمية. وبجانب كونه أحد كبار رجالات القضاء الإسلامي، فقد كان الزهري من أوائل الكتاب الذين وضعوا أسس مناهج تدوين الحديث. ويعزي البعض دقة كتاباته حول مناهج جمع الحديث وتدوينه إلى سابق تكليفه بمهمة كتابة السيرة النبوية العطرة، مما أهله للتفقه في علوم الحديث ومناهج بحثه. كما يعد الزهري من زمرة المؤرخين الذين تميزوا بتوخي الدقة والحرص في أعمالهم. ويتجلى هذا الأمر بوضوح في كتاباته عن المغازي في الإسلام، حيث اتخذ كتابه المسمى بـ «كتاب المغازي»

(١) Ruth S. Mackensen, Arabic Books... ,52:250, 53: 239, 54:41,60.

مرجعاً موثوقاً من قبل العلماء، والدارسين، والرواة، على حد سواء[١] .

وبجانب اتصافهم برعاية العلماء والكتاب والشعراء، فقد حبا الله سبحانه وتعالى عدداً من الخلفاء الأمويين وبعضاً من أقربائهم بمواهب أدبية متميزة. ومن هؤلاء، معاوية بن أبي سفيان، الذي ولع بدراسة التاريخ ولعاً عظيماً، حدا به إلى الأمر بتدوين سير الملوك السابقين، وأخبار الأمم الغابرة، التي اعتاد راويه، عبيد بن شرية الجرهمي، سردها عليه. وكان من نتائج ظهور كتاب «أخبار الأمم الماضية». وقد أشار الحلوجي ـ نقلاً عن ابن النديم ـ إلى حيثيات هذا الموضوع بقوله : «وقبل أن ينتصف هذا القرن الأول بدأت التآليف العربية تخرج إلى حيز الوجود. فابن النديم يحدثنا بأن عبيد بن شرية الجرهمي وفد على معاوية فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد، وكان استحضره من صنعاء اليمن، فأجابه إلى ما سأل فأمر معاوية أن يدون ذلك وينسب إلى عبيد»[٢] .

ويذكر في هذا الصدد أيضاً أن زوجة معاوية السيدة ميسون وولده يزيد، كانا من المتضلعين في قرض الشعر ونظمه. أما زياد، أخو معاوية، فقد كان مولعاً باستنساخ الكتب، كما كان ضليعاً في الأنساب العربية. ويروى أيضاً أن الخليفة الوليد بن عبد الملك، كانت له موهبة متميزة في تعلم اللغات الأجنبية وإجادتها. ومن المؤكد أن خالد بن يزيد، حفيد معاوية، كان واحداً من أعظم

(١) المصدر السابق نفسه، ٣ : ٢٤٢-٢٥٠ .

(٢) عبد الستار الحلوجي، ص١٢ .

أدباء عصره. وقد كان هذا الأمير خطيباً مفوهاً، وشاعراً مرهفاً، وعالماً واسع المعرفة .كما يروى أنه أمر بترجمة كتب في الكيمياء والطب والفلك، من اللغتين اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية. ويعزى إليه أيضاً تأليف العديد من البحوث في الكيمياء، ولا يستبعد أن يكون قد ألف في مجالات علمية أخرى. وقد كان لهذا الأمير مكتبة قيمة أشار إليها عدد من المؤرخين[١]. وفي حديثه عنه، نقل فروخ ما كتبه ابن النديم: «كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمَّى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه وله همَّة ومحبَّة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصَّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي. وهذا (كان) أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.... (وكان) خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي. وهو أول من تُرجم له كتبُ الطب والنجوم وكتب الكيمياء ... ويقال - والله أعلم - إنه صحّ له عمل الصناعة؛ وله في ذلك عدّة كتب ورسائل»[٢] .

ولهذا، وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من التراث الفكري الإسلامي الأموي، إلا أن هنالك دلائل كافية لإظهار هذا العصر على حقيقته، كعصر ثقافة وتطور حضاري، وذلك بصرف النظر عن محاولات بعض الكتاب لإظهار هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي بطريقة مغايرة لما كانت عليه. فقد تبنى

---

(١) Ruth S. Mackensen, Arabic Books... ,53:245-250, 45: 43-56.

(٢) عمر فروخ، ص ص ١٤٧–١٤٨، وأيضاً محمد كرد علي، خطط الشام، ٤ : ٢٠–٢٤ .

الأمويون نشر الشعر الجاهلي وحفظه، كما اهتموا بشعرائهم ودعموهم أي دعم. ورعى خلفاؤهم العلم والعلماء، وشحذوا عزائم الكتاب والمؤلفين. وهناك من يرى أن نشأة النشر العربي، وظاهرة اقتناء الكتب، كانتا وليدة هذه الفترة التاريخية. وقد كتب في ذلك أحدهم قائلاً: مهما قيل عن طبيعة الكتابات المنتجة ووصفها بأنها كانت مجرد أوراق مجمعة لدراسات الطلاب وبحوثهم، أو رسائل علمية صغيرة، أو آمالي مختصرة، أو غيرها، فقد وجدت مؤلفات قيمة ومفيدة، حتى وإن كانت بأعداد متواضعة، ومهما بلغت قلة أعداد الكتب المؤلفة والمترجمة، إلا أنها كانت كافية لأن تقتنى، وأن يعترف بها كإنتاج فكري يستحق الحفظ والرعاية، وبالتالي اعتبار هذه المجموعات بداية لنشأة المكتبات الإسلامية(١) .

---

(١) Ruth S. Mackensen, Arabic Books... ,54:59.

الفصل الثالث

نشأة مكتبات المساجد

كتبت ماكينسين عن الخلفية التاريخية لنشأة مكتبات المساجد، قائلة: «قدمت الكتب كهدايا، ووهب العديد من العلماء مجموعات مكتباتهم للمساجد، كرغبة جماعية لتدعيم مكتبات المساجد والحفاظ عليها، وذلك حتى تتمكن المساجد من القيام بدورها في تزويد الدارسين المترددين عليها بالعلم والمعرفة. وقد تنامت الجامعات العظيمة في قرطبة وطليطلة لتصبح قبلة علمية لجموع الدارسين من مسلمين ومسيحيين على حد سواء. كما تنامت حلقات العلم في الجوامع، ومن ذلك الجامع الأزهر الذي لا يزال، وبعد إنشائه منذ أكثر من ألف عام يعد من أشهر المراكز الفكرية والتعليمية في العالم الإسلامي»(١).

وفي موضع آخر، تشير الكاتبة نفسها، التي كرست الكثير من الوقت والجهد لدراسة الجوانب المختلفة للمكتبات العربية الإسلامية، إلى أن المسلمين الذين بذلوا الكثير من الجهد والمثابرة في استنساخ الكتب، وصرفوا الأموال الطائلة في سبيل البحث عنها واقتنائها وحفظها، لم يتوانوا أو يترددوا أبداً في وهبها والتنازل عنها برضاء تام وعن طيب خاطر، إلى المساجد والمدارس، لكي يتمكن العلماء والدارسين وطلاب العلم من تداولها والاطلاع عليها، ولتتمكن الأجيال التالية من الاستفادة منها. وتذكر ماكينسين، مثالاً على ذلك، وصية الجغرافي الشهير ياقوت الحموي بأن توقف كتبه على المسجد الزيدي بمدينة بغداد(٢).

---

(١) Ruth Stelllhorn Mackensen, " Background of the ..." 52: 123.

(٢) Ruth Stelllhorn Mackensen, " Four great ... pp. 279-280.

ومن الجدير بالذكر أن المكتبات لم تكن متوافرة إلا في بعض المساجد فقط، وهي المساجد الرئيسية بالمدن والأقاليم، التي كانت تعرف باسم «المسجد الجامع»، أو «الجامع»، على سبيل الاختصار، كما راعى حكام المسلمين أنه في حالة وجود أكثر من جامع في المدينة الواحدة أن تزود جميعها أو أكثرها بالكتب والمراجع، وذلك حتى يستفيد منها أكبر عدد من العلماء والدارسين. وقد اتصفت معظم الجوامع بكبر الحجم ورحابة المكان، من أجل أن تتسع لأعداد كبيرة من المصلين، وتسمح لهم بحرية أكبر في أداء الصلاة ومزاولة الأنشطة الأخرى. وبخلاف المساجد الصغيرة، فقد اكتسبت الجوامع الكبيرة، التي كانت تشيد عن قصد في موقع يتوسط المدينة، أبعاداً ثقافية واجتماعية وسياسية تميزت بها عن المساجد الصغيرة الأخرى. ولذا يمكننا القول بأن وجود المكتبات في الجوامع جاء متوافقاً مع دورها في المجتمع، سواء كدور للعبادة، أو كمنابر اجتماعية رائدة .

وبصرف النظر عن مدى اتساع الجوامع أو أماكن وجودها، فإن مكتبات الغالبية العظمى منها، أنشئت في البداية كخزانات للمصاحف، أو ما يمكن أن يطلق عليه «مكتبات المصاحف» أو «المكتبات القرآنية». فقد كان من التقاليد المرعية، ولا تزال، عند بناء المساجد، أن يزود المسجد أو الخزانة التابعة له بعدد من نسخ القرآن الكريم، سواء على صورة مصاحف كاملة، أو أجزاء من القرآن .. وقد كانت بدايات العديد من مكتبات المساجد بهذا الشكل المتواضع والبسيط. ويذكر في هذا السبيل أن مكتبة جامع القيروان، التي ذاع صيتها في

الآفاق، بدأت أول ما بدأت بهبات سخية من المصاحف وغيرها من الكتب الأخرى التي تبرع بها بعض علماء المدينة وعائلاتها العريقة [1]. ويمكن تفسير اهتمام المسلمين بإهداء المصاحف للمساجد في ضوء المفاهيم الإسلامية السمحاء التي تحث على البر والإحسان والعمل الصالح، كما يمكن إرجاعه - أيضاً - إلى حرص المسلمين بالحفاظ على القرآن مكتوباً وموثقاً، حيث يعد القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع الإسلامي.

يضاف إلى ذلك، أن المسلمين وجدوا في حوزتهم كتاباً يتضمن أساسيات عقيدتهم، وعباداتهم، وتشريعاتهم، وأخلاقيات تعاملاتهم الدينية والدنيوية، فلم يبددوا وقتهم سدى، بل بذلوا قصارى جهدهم في توفير كافة السبل لحفظ هذا الكتاب والإبقاء عليه. فلا عجب إذاً، أن نرى الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، يتولون بهمة وحماس استنساخ القرآن الكريم، وإعادة استنساخه مراراً وتكراراً حيثما ذهبوا. ومن الجلي أن الإصرار العقائدي، والحماسة المتوهجة إيماناً التي دعمت جهود الصحابة والتابعين ومن تبعهم، جعلت من كلمات هذا القرآن وآياته ونصوصه، أدوات أساسية لتعليم اللغة العربية، قراءة وكتابة وحفظاً. ومن المسلم به أن التمكن من اللغة العربية والتبحر فيها، كان - وما يزال - مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتعلم القرآن الكريم، بداية بكتابته، ونهاية بحفظه عن ظهر قلب. ونذكر في هذا الصدد ما كتبه أحد الباحثين قائلاً: «ومن الطبيعي أن يقوم العلماء الذين درسوا في القيروان بنشر

(١) إبراهيم شبوح، ص٣٣٩.

الكتابة فيما وراء القيروان. وكان القرآن سواء في ليبيا أو القيروان أو العراق أو مصر أو الشام أول كتاب يخطه الصبيان، وبذلك يتعلمون القراءة والكتابة»[1].

ولقد كانت النتيجة الحتمية لعملية النسخ المكثف للقرآن الكريم ، أن توافرت أعداد كبيرة من المصاحف، مما أتاح للكثير من المسلمين اقتناء نسخة أو أكثر، أو حتى بعض أجزائه وسوره، وذلك لأغراض التلاوة والحفظ. والجدير بالذكر أن اقتناء نسخ من القرآن الكريم على المستوى الشخصي، بما له من أهمية علمية ومعنوية، لا يعد عاملاً مؤثراً في حفظه وديمومته، فقد تأكد حفظ المصاحف وتأمين بقائها على المستوى العام، عند إدراك المجتمعات الإسلامية في وقت مبكر، أن القرآن الكريم بحاجة إلى أن يحفظ في مقر ثابت وآمن تسهل زيارته والوصول إليه من جموع المسلمين، وبطبيعة الحال، فإنه لم يكن هناك أفضل من المساجد مقارنة مع أية مؤسسة اجتماعية أخرى، من حيث المواصفات المطلوبة للمقر الثابت والأمن لكل ما تعنيه هذه العبارة .

وقد ظهرت نتائج هذا التقليد الإسلامي. منذ بدء العمل به، حيث امتلأت المساجد، كبيرها وصغيرها وعلى امتداد العالم الإسلامي، بالأعداد الوفيرة من المصاحف الكاملة أو أجزائها. والتراث الإسلامي مليء بالأمثلة التي تحكي عن الهبات السخية من المصاحف التي أعطيت للمساجد على سبيل الإهداء أو

(١) محمد عبد القادر أحمد ، دراسات في ... ، ص ١٩٥ .

الوقف وكما هو متوقع، فقد كانت معظم الهبات القيمة ترد من الطبقة الحاكمة أو من هم في مستواهم، وقد ذكر الجزنائي في معرض حديثه عن مسجد القرويين في فاس، أن السلطان المريني أبا عنان، أنشأ في ذلك المسجد خزانة مصاحف، وضع فيها أعداداً كبيرة من نسخ القرآن المتقنة الصنع، من حيث جمال الخط، وروعة الزخرفة، وقد نمت هذه المكتبة بسرعة مما تطلب تعيين أمين أو قائم يرعى شئونها ويزود مرتاديها بما يحتاجونه من كتب[1]. ونقرأ أيضاً عن الهبة القيمة التي قدمها المعز بن باديس، أشهر ملوك بنو زيري الصنهاجيين، لمسجد القيروان، والتي تألفت من أعداد كبيرة من المصاحف بما فيها نسخته الخاصة. وقد أشار أحمد إلى هذه الواقعة بقوله: «وقد أوقف كل هذا التراث على مكتبة الجامع الكبير بالقيروان. وفيما تجمعه المكتبة العتيقة الآن أكبر دليل على ذلك، كما هو مشاهد في صحف الحاضنة (فاطمة) حاضنة المعز بن باديس بخط علي بن أحمد الوراق في سنة ٤١٠هـ ومصحف أخته أم العلو ومصحف أم ملال عمة المعز، وزوجته زليخا ومصحف المعز بن باديس نفسه، وعليه التحبيس بخطه»[2].

ويعد الحاكم بأمر الله، سادس الخلفاء الفاطميين، الذي حكم مصر في الفترة من ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م إلى أن توفى عام ٤١١هـ/ ١٠٢١م، أحد أكثر واهبي المصاحف سخاء في تاريخ شمال أفريقيا. ويذكر المؤرخون أنه في عام ٤٠٣هـ / ١٠١٢م،

(١) إيفرست ليفي بروفنسال، ص ٦٨.

(٢) محمد عبد القادر أحمد، المكتبة التونسية: ...، ص١٨٠.

وعند الانتهاء من تجديد بناء جامع الحاكم الذي وضع أساسه والده الخليفة العزيز بالله، أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بإرسال عدة صناديق كبيرة مملوءة بالمصاحف الكاملة، وبأجزاء من القرآن الكريم، إلى ذلك المسجد. كما أوقفت عليه أوقافاً كثيرة. وللتأكيد على أهمية هديته وعظمتها، أصدر الخليفة مرسوماً يقضي بأن يرافق القاضي ابن سعيد الصناديق المحملة بالمصاحف إلى مقرها الجديد. وقد شهد هذه الواقعة عدد من نظار الأوقاف المنوط بهم الإشراف على المسجد ورعاية شئونه(١). وبناءً على ما ذكره ابن تغري بردي، فقد كان العديد من المصاحف التي أهداها الحاكم إلى مسجده ذات زخارف جميلة، كما كان بعضها مطعماً بالذهب(٢). وإضافة إلى عطايا الحاكم للمسجد الذي يحمل اسمه، فقد أهدى بسخاء مجموعات من المصاحف القيمة إلى المساجد الأخرى بالقاهرة، ومن ذلك جامع عمرو، وجامع ابن طولون. ويقال بأن الجامع الأخير تلقى من مؤسسه، السلطان أحمد بن طولون، العديد من الصناديق المحتوية على مجموعة ضخمة من المصاحف، وذلك عند تمام تشييده عام ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م (٣).

وقد تلقت المساجد عبر القرون، كثيراً من المصاحف على سبيل الهبة، لم تكن كلها مهداة من علية القوم وأغنيائهم، بل من أناس عاديين، لا يتمتعون

(١) Youssef Eche, p. 137.

(٢) جمال الدين ابن تغري بردي، ٤ : ١٧٧.

(٣) Youssef Eche, . 137.

بالقدر نفسه من الصيت والشهرة. وقد ألقى شبوح الضوء على بعض من هؤلاء، عند تفحصه لفهرس مكتبة جامع القيروان بتونس، ذلك الفهرس الذي بدأ إعداده عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م. وأورد شبوح أسماء نفر من عامة المسلمين، قاموا بإهداء هذا المسجد عدداً من المصاحف الكاملة، بجانب إهدائهم أجزاء متفرقة من القرآن الكريم، «ومن إبراهيم بن إسحاق، وإبراهيم بن محمد بن إبراهيم، ومحمد البرماني، وغيرهم من عامة الناس وبسطائهم»(١).

ويبدو أن تقليد الإهداء هذا كان معروفاً أيضاً في الجانب الشرقي من الدولة الإسلامية. وقد كتب عش عن قيام شخص يدعى عبد المنعم بن أحمد بإهداء ثلاثين جزءاً من القرآن الكريم للجامع الأموي بدمشق في عام ٢٩٨هـ/ ٩١١م. ويضيف المؤلف في موضع آخر بأن جزءاً واحداً من تلك الأجزاء قد قاوم عوادي الزمن، حيث يوجد حاليّاً محفوظاً في المتحف الوطني بسوريا. ونجد مع هذه المجموعة رقعة من الرق كتب عليها نص الوقفية التي بمقتضاها تمت الهبة، حيث جاءت كما يلي: أهدى عبد المنعم بن أحمد هذه الأجزاء من القرآن الكريم، التي يبلغ عددها ثلاثين جزءاً، إلى الجامع الكبير بدمشق، ملتمساً عفو الله ورضوانه. دون في شهر ذو القعدة ٢٩٨هـ/ يوليو ٩١١م (٢).

وعليه؛ فهنالك العديد من الأدلة القوية التي تؤكد على أن القرآن الكريم كان أول كتاب يجد طريقه إلى المسجد. فقد دونت المصاحف ثم جمعت

(١) إبراهيم شبوح ، ص ٣٤٧، ص ص ٣٥٧-٣٥٨.
(٢) Youssef Eche, p. 136-136.

بحماس وإيمان راسخ بكل ما يجسده هذا الكتاب العظيم من قيم سامية.

وعندما شاء الله سبحانه وتعالى، حملت هذه المصاحف وأودعت في المساجد والجوامع كهدايا ووصايا وأوقاف. ومع إتقان المسلمين لفنون التدوين، وتوافر وسائط الكتابة وأدواتها، وتزامنها للتطور المعرفي والثقافي للمجتمعات الإسلامية، زاد المسلمون من إهداءاتهم وهباتهم، وتنامت مجموعات المصاحف الممنوحة للمساجد. كمًّا وكيفًا، مما جعلها مؤهلة لأن تحمل اسم «خزائن المصاحف»، أو«مكتبات المصاحف» أو «المكتبات القرآنية»، التي تمثل في حقيقتها النشأة الأولى لمكتبات المساجد.

الفصل الرابع

عرض تاريخي لمكتبات المساجد

مقدمة:

من الضروري، وقبل التعرض لمناقشة خدمات مكتبات المساجد ومقتنياتها، أن نتفحص عن كثب نمو بعض من هذه المكتبات ومراحل تطورها، ومن الضروري أيضاً التأكيد على أن هذا العرض التاريخي يقتصر، وبشكل رئيسي، على المكتبات التي ينتظر أن يرد ذكرها بصورة متكررة في الفصل القادم. ولتسهيل عملية تصنيف المعلومات المتوافرة حول هذه المكتبات وتنظيمها، فإن معالجتنا لها ستتم في مجموعتين رئيسيتين حسب مواقعها الجغرافية، بحيث نتناول مكتبات المساجد في إسبانيا وشمال أفريقيا، ثم نتبعها بالمكتبات في الشرق الأدنى العربي.

أولاً - مكتبات المساجد في إسبانيا وشمال أفريقيا:

١ـ الأندلس:

وقع اختيارنا على مكتبات المسلمين في الأندلس وشمال أفريقيا لتكون أول أنواع المكتبات التي يتم استعراضها في هذا الفصل، لما تمتعت به من شهرة كبيرة وسمعة متميزة. تطالعنا المصادر بأن الأندلس ظلت تحت الحكم الإسلامي بدءاً من عام٩٣هـ/ ٧١١م، وحتى عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م، عندما وقعت في يد قوات الملك فرديناند الخامس والملكة إليزابيث، واستيلائهما على مملكة غرناطة، آخر معاقل المسلمين القوية في الأندلس، وقد وصلت الأندلس خلال فترة الحكم الإسلامي إلى ذروة درجات الحضارة الثقافية والمادية، وكانت، وبكل

المقاييس، أكثر بلدان القارة الأوربية رقيّاً ومدنية.

وقد أنشأ المسلمون خلال إقامتهم الطويلة في الأندلس العديد من المساجد التي احتوى أكثرها على مجموعات من الكتب استخدمت من العلماء والمواطنين على حد سواء. ويعد المسجد الكبير بقرطبة واحداً من أكبر الجوامع وأعظمها. وقد احتوى هذا المسجد الشهير، الذي أنشأه الخليفة الأموي عبدالرحمن الداخل عام ١٧٠هـ/٧٨٦م، على مجموعة كبيرة من الكتب والمصاحف، التي دمر معظمها إبان اجتياح قوات الملك فرديناند الثاني للمدينة في عام ٦٣٤هـ/١٢٣٦م. وقد أشار المؤرخ المقري إلى هذه الواقعة ذاكراً بأنه كان من بين المصاحف التي أحرقت على يد القوات الغازية، المصحف الذي خطه الخليفة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١). كما تعرضت مجموعات بعض المساجد إلى السلب والنهب من قبل بعض ضعاف النفوس. ومن هؤلاء أحد الكتبة المهرة بمدينة بلنسية. ويشير ريبيرا إلى هذه الواقعة بقوله: «وقد حدث أن فناناً نابهاً وخطاطاً ماهراً هو ابن سكران، من أهل بلنسية. أخذ يوماً من وثائق كانت محفوظة في مسجد البيازين مع أنه كان في مقدمة المسئولين عن مكتبة سلاطين غرناطة. وقد أدى هذا الأمر إلى إبعاده»(٢)، وبالرغم من بعض مظاهر التخريب التي قام بها قلة من الأفراد، فقد سعت الغالبية العظمى من

(١) أحمد بن محمد المقري، ١ : ٣٩٨.

(٢) خوليان ريبيرا، ٥: ٩٠.

مسلمي الأندلس إلى مساندة مكتبات المساجد ودعمها. وقد ذكر ريبيرا أن ابن لب المالقي، الذي عاش مدة طويلة في غرناطة، أوصى بجزء كبير من مكتبته الخاصة إلى مكتبة الجامع الكبير بمدينة ملقة مسقط رأسه(١). كما قام العالم ابن مروان الباجي، بإهداء كتبه كلها إلى الجامع الكبير بمدينة إشبيلية. ولضمان المحافظة على كتبه، فقد عهد بها إلى خطيب المسجد، الشيخ عبد الرحمن اللخمي، الذي يبدو أنه كان موكلاً – أيضاً – بإدارة شئون مكتبة الجامع(٢). وعلى كل حال، فالدراسة المستفيضة والموثقة التي قام بها خوليان ريبيرا عن خزائن كتب الأندلس، ما هي إلا أحد الأدلة والشواهد المتواضعة على عظمة ورفعة شأن الكتب والمكتبات في ذلك الفردوس المفقود.

٢ – المغرب:

يعد جامع القرويين، الذي تطوعت ببنائه أم البنين فاطمة الفهرية - زوجة العاهل الإدريسي يحيى الأول - عام ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م بمدينة فاس، واحداً من أكبر جوامع العالم الإسلامي، وأكثرها عراقة وشهرة. وقد تميز هذا الجامع باحتوائه على ثلاث مكتبات كبيرة، يطلق على أكبرها حجماً وأكثرها شهرة مكتبة أبو عنان، والتي تعرف أيضاً باسم «الخزانة العلمية»(٣). ويرجع الفضل في إنشاء

---

(١) خوليان ريبيرا، ص: ٩١.

(٢) المصدر السابق، ص: ٧٩.

(٣) عبد الله بن العباس الجراري، ص ٢٢٨. أيضاً :عبد الهادي التازي، ص ١٦٣.

هذه المكتبة إلى السلطان المريني المتوكل أبي عنان. وقد افتتحت عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ليرتادها طلاب العلم وعامة الناس، ومازالت معالمها الرئيسية وأبنيتها الأصلية باقية إلى الآن، بما في ذلك بوابتها الخشبية الرئيسية، حيث يوجد عليها نقش ظاهر يشير إلى مؤسسها وتاريخ إنشائها[١].

وقد تعرض الكاتب أبو العباس ابن القاضي في كتابه «الجذوة» للظروف المحيطة بإنشاء هذه المكتبة، قائلاً: «وأما خزانة الكتب التي يدخل إليها من أعلى المستودع الذي بها، فإنه لما كان من رأي أبي عنان حب العلم وإيثاره والرغبة في انتشاره والاعتناء بأهله. انتدب بأن صنع هذه الخزانة، وأخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من العلوم كعلوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان. وغير ذلك من العلوم على اختلاف أنواعها، وعين لها قيماً ليضبطها، وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٥٠هـ»[٢]. أما لانداو فقد أشار إلى حالتها في الوقت الراهن، قائلاً: «لقد تدهورت أحوال مكتبة جامع القرويين ولم يتبق منها إلا أثراً باهتاً، عكس ما كانت عليه أوقات ازدهارها في عهد السلطان أبي عنان عندما كانت زاخرة بالآلاف المؤلفة من المخطوطات، تلك المخطوطات التي استولى عليها ملك إشبيلية المسيحي كغنيمة حرب، ومازالت بعض تلك المخطوطات موجودة إلى يومنا هذا، وهي موضع إعجاب وتقدير كل من يراها ويطلع عليها»[٣].

---

(١) العابد الفاسي، «خزانة القرويين...»، ص٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) R.Rom Landau , p104.

لم يكن السلطان أبو عنان الحاكم المريني الوحيد الذي أنشأ مكتبة بجامع القرويين. فقد قام السلطان أبو يوسف يعقوب بإهداء الجامع مجموعة كبيرة وقيمة من الكتب، عرفت فيما بعد بخزانة أبي يوسف .وقد نوه التازي في كتاباته بهذه الخزانة، ولكنه لم يورد تفاصيل كثيرة عنها(١). إلا أنه يمكن استنتاج ما كانت عليه من ازدهار، وما حصلت عليه من دعم مادي ومعنوي من خلال اطلاعنا على الكتابات التي تناولت الأعمال العظيمة التي قام بها السلطان أبو يوسف يعقوب لتحديث مدينة فاس وتجديدها، ومن ضمنها جهوده المتعددة في بناء المكتبات والمدارس العامة بالمدينة(٢) .

وبجانب هاتين المكتبتين، كان بجامع القرويين مكتبة ثالثة ذات أهمية كبيرة، وهي التي أنشأها الملك الأديب أحمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي، وقد احتوت هذه المكتبة، التي أطلق عليها اسم «الخزانة المنصورية » على مجموعات لا تقدر بثمن، قدم أكثرها المؤسس نفسه. كما تولى رعايتها بعد وفاته ابنه زيدان. ويذكر في هذا الصدد حديث الفاسي عنها حيث يقول: «ولست في حاجة إلى بيان ما كان لأحمد المنصور هذا من الشغف بالمكتبة والكتب النادرة وجلبها من أقاصي العالم الإسلامي، مصر، وإستابنول و...، فقد كان له مبعوثون في كل ناحية من هذه النواحي يبحثون وينقبون ويوجهون لحضرته النادر والغريب من المخطوطات. وكان المؤلفون في عصره

(١) Abd AL-Hadi al-tazi , p25.

(٢) محمد الفاسي، ص ٤٧ .

يتسابقون إلى تقديم إنتاجهم العلمي هدية وتقرباً لحضرته»[١].

والجدير بالذكر أن مسجد القرويين لم يكن المسجد الوحيد بمدينة فاس الذي يحتوى على مكتبة، ورغم أنه أكبر المساجد، وأن المساجد الأخرى في المدينة تعدّ تابعة له، فإن هذه التبعية لم تمنع تلك المساجد من تملكها مكتبات خاصة بها، تحتوى على مجموعات قيمة من الكتب. وقد ذكر التازي نموذجين لمثل هذه المساجد، أولهما المسجد الذي أنشئ في الحي الأندلسي، والآخر الذي أنشأه مؤسس الدولة الموحدية، المهدي بن تومرت[٢]. وقد وجد في مدن أخرى بالمغرب - بجانب مدينة فاس - مساجد احتوت على مجموعات من الكتب ؛ حيث كان من التقاليد المرعية أن تلحق مكتبة بالجامع الكبير - أو المسجد الأعظم - في كل مدينة رئيسية، ولا سيما في عواصم الأقاليم. ويذكر في هذا الصدد مكتبات المسجد الأعظم بمدن الصويرة، وآسفي ، ولا، وشفشاون، وتازة، ووزان، وطنجة، وغيرها. كما توجد مكتبة قيمة بالجامع الكبير بمدينة مكناس، تحتوي على عدد لا بأس به من المخطوطات[٣].

ويذكر أيضاً في هذا الصدد، مكتبة الجامع الكبير بمدينة تطوان، والتي تعد من أقدم مكتبات تلك المدينة. وقد ذكر كنون في معرض حديثه عن هذه

---

(١) العابد الفاسي، «خزانه القرويين... »، ص ص ٥ - ٧.

(٢) Abd aljhadi arjtazi, p 20

(٣) محمد عبد القادر احمد، دراسات في ...، ص٢١٩، ٢٤٣، ٢٥٧.

المكتبة، بأن المكانة الدينية الرفيعة التي تمتع بها الجامع الكبير، ربما كانت السبب في عدم تعرض المكتبة للنهب والدمار عندما احتل الإسبان مدينة تطوان عام ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م. ويقول كنون في هذا الشأن : «ولا ندري كيف نجت مكتبة المسجد الأعظم في تطوان من النهب مع وقوع المدينة تحت الاحتلال العسكري الإسباني، مدة عامين - إلا أنه يمكن القول بأن السلطات أمرت باحترام المسجد الأعظم خاصة إن ما نهب من أماكن السكنى وبيوت العبادة الأخرى كان فيه غنية. وعلى كل حال؛ فإن مكتبة المسجد الأعظم في تطوان هي أقدم مكتبة تحتوي على مخطوطات في هذه المدينة، وإن كانت هذه المخطوطات ليست ذات أهمية نوعية ولا عددية بالنسبة إلى قدم المكتبة، وما كان يشتري لها مال الوقف أو يوقفه عليها أصلاً الملوك والرؤساء وغيرهم من أهل الفضل ومحبي النفع. ونظن أن ما طرأ عليها من التنقلات وما اعتراها من اختلاف أيدي المتصرفين فيها كان له تأثير كبير في فقد أكبر عدد مما كانت تحتوي عليه من الكتب القيمة»(١).

وقد حظيت مدينة مراكش، التي كانت عاصمة المغرب لفترات طويلة، بالعديد من مكتبات المساجد. وتعد المكتبة اليوسفية واحدة من أهم المكتبات التي كتب عنها في العديد من المصادر. وقد أنشأ هذه المكتبة السلطان إسماعيل العلوي، عام ١١١١هـ/ ١٧٠٠م، بجامع علي بن يوسف. وبجانب

(١) عبد الله كنون، ص ١٧٢.

احتواء هذه المكتبة على مجموعات من البحوث والدراسات في العقيدة الإسلامية، فقد اشتملت أيضاً على كثير من الأعمال في مجال اللغة، والسير، والفلسفة، والأدب، والرياضيات، والعلوم الطبيعية[١]. ولا تقتصر مكتبات المساجد في المغرب على ما تمّ ذكره، فهناك العديد من الجوامع والمساجد التي حظيت بمجموعات طيبة من الكتب. ومن ذلك ما أشار إليه أحمد في سياق دراسته عن التراث العربي المخطوط في المغرب[٢].

٣ ـ تونس :

عرفت تونس الخضراء كدرة من درر شمال إفريقية العربية الإسلامية، واشتهرت بتاريخها العريق في مجال إنشاء مكتبات متميزة ملحقة بمساجدها الكبيرة، حيث تعد مكتبتا جامع القيروان وجامع الزيتونة من أهم مكتبات المساجد – بأسبقية ترتيبهما – في هذا الجزء المهم من الدولة الإسلامية.

يرجع الفضل في بناء جامع القيروان إلى القائد العربي عقبة بن نافع – مؤسس مدينة القيروان – في الفترة ما بين ٥٠هـ/ ٦٧٠م و ٦٠هـ/ ٦٨٠م، لذا يعرف هذا الجامع – أيضاً – باسم جامع عقبة. واشتهر جامع القيروان – الذي أنشئ قبل فترة طويلة من إنشاء جامع الأزهر بالقاهرة – بتاريخه العريق كواحد من أهم المراكز التعليمية والثقافية في شمال أفريقيا. ومن نافلة القول إن علاقة جامع القيروان بالتعليم العام كانت قوية وعميقة، لدرجة دفعت بالعديد من

(١) Deverdun , p.G55-56.

(٢) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في...، ص ٢٥٧.

نساء المسلمين إلى الالتحاق بحلقات دروسه ومواصلة تعليمهن منه، وهو الأمر الذي يعد من الظواهر نادرة الحدوث في أي مسجد آخر.

وقد أشار أحمد إلى هذه الظاهرة قائلاً: «ولم يمض على مسجد عقبة وقت طويل في مدينة القيروان حتى صار، جامعة إسلامية، ولم تكن قاصرة على الرجال فقط بل كان للنساء حظ فيها، فحين كان سحنون بن سعيد، وأسد الدين بن الفرات يدرسان فيه، كانت خديجة بنت سحنون تدرس بالجانب اليساري بالجامع للنساء، وكانت فاطمة بنت أسد الدين بن الفرات تدرس بنفس الجانب للنساء فقط»(١). لذا لم يكن من المستغرب أن تكتسب مكتبة جامع القيروان، بانتمائها إلى هذا الصرح التعليمي المتأجج، نشاطاً وشهرة لازمتها لفترة طويلة من الزمن.

وقد أنشئت هذه المكتبة، والتي تعرف أيضاً باسم «الخزانة العتيقة» أو «المكتبة العتيقة»، في أوائل القرن الثالث الهجري، وذلك ضمن التوسعة التي حدثت في جامع القيروان عام ٢٢١هـ / ٨٣٦م، بناءً على التوجيهات التي أصدرها السلطان الأغلبي زيادة الله بن إبراهيم. ولم يمض وقت طويل على إنشاء المكتبة، حتى سارع العلماء والعامة بإهدائها مجلدات قيمة من مجموعات كتبهم الخاصة. كما شارك في هذا النشاط، الحكام والوجهاء والأثرياء. وقد أورد أحمد بياناً بأسماء العديد من الأشخاص الذين قدموا

(١) أحمد فكري، نشأة الفن...، ص ص ٥١٦-٥١٩.

مجموعات قيمة لتلك المكتبة، سواء عن طريق الإهداء أو الوقف[1]. ويعد السلطان الصنهاجي المعز بن باديس من أكثر حكام تونس اهتماماً ورعاية بهذه المكتبة، وبذلاً وعطاءً لها[2]. وقد احتوت هذه المكتبة على نوادر قلّ أن توجد في المكتبات الإسلامية الأخرى[3].

هذا، ويمكن إرجاع أسباب تذبذب أحوال جامع القيروان ومكتبته، إلى الحالة السياسية غير المستقرة، وإلى نوع حجم الدعم الذي قدم لهما من ولاة الأمر الذين تعاقبوا على حكم تونس ومدينة القيروان. ومن الجلي أن القدر الأعظم من الرعاية التي حصلت عليها المكتبة العتيقة، كان خلال فترة حكم الأسرة الصنهاجية. وكما ذكرنا، يرجع الفضل في هذه الرعاية، وبشكل خاص إلى السلطان العالم المعز بن باديس، الذي حكم فترة ناهزت الخمسين عاماً (من ٤٠٦هـ/١٠١٥م إلى ٤٥٤هـ/١٠٦٢م). ومن المؤسف حقًّا أن يعيش هذا الرجل العظيم ليشهد بنفسه الدمار الذي لحق بكل الإنجازات الرائعة التي قام بها في مدينة القيروان عاصمة بلاده، وذلك عندما عمد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، إلى تحريض الآلاف من رجال القبائل العربية، من بني هلال وبني سليم، وإرسالهم للقضاء على حكم الصناهجة في تونس. وفي غمار حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي أصابت البلاد في تلك الفترة، تعرضت

(١) أحمد فكري، نشأة الفن...، ص ص ١٤٣-١٤٥.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب، العناية بالكتب...، ص ص ٨٧- ٨٨.

(٣) إبراهيم شبوح، ص ص ٣٤١-٣٤٣.

مجموعات الكتب بالقيروان إلى السلب والنهب والتخريب، بما في ذلك المجموعات الثمينة التي كانت موجودة في مكتبة جامع القيروان[1]. ويذكر في هذا الصدد قول الشاعر علي بن رزق الرياحي مشيراً إلى خذلان أنصار المعز له في معركته مع جيش أعدائه :

وأن ابن باديس لأفضل مالك ... ولكن لعمري ما لديه رجال

ثلاثون ألفاً منهم غلبتهم ... ثلاثة آلاف إن ذا لمحال[2]

وكذلك قول أبو عبدالله ابن شرف، شاعر القيروان، يندب في غربته بالأندلس ما آل إليه حال مدينته :

كأن الديار الخاليات عرائس ... كواسد قد أزرت بهن الضرائر

ترحل عنها قاطنوها فلا ترى ... سوى سائر أو قاطن وهو سائر

فيا ليت شعري القيروان مواطني ... أعائدة فيها الليالي القصائر ؟

كأن لم تكن أيامنا فيك طلقة ... وأوجه أيام السرور سوافر

كأن لم يكن كل ولا كان بعضه ... سيمضي به عصر ويمضي المعاصر[3]

وعلى الرغم من الدمار الذي تعرضت له المكتبة العتيقة، إلا أنها استعادت تدريجياً بعض ما كانت عليه من رونق وبهاء. وبناء على ما ذكره شبوح، فقد

(١) الحبيب الجنحاني، ص ص ١٠٢-١٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب، العناية بالكتب...، ص ص ٨٩-٩٠.

استلزم الأمر مرور قرنين من الزمان قبل أن تعوض هذه المكتبة ما فقدته من مقتنيات، وتسترد رونقها ومكانتها المعهودة(١). إلا أن هذا الازدهار الوقتي لم يستمر طويلاً، فقد زار العالم المصري محمد بيرم مدينة القيروان عام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م، ووصف حالة المكتبة العتيقة وصفاً يحزن له القلب وتدمع له العين. فقد رأى خزانتين كبيرتين مملوءتين برزم من الكتب والأوراق المربوطة بالحبال، والتي تشتمل في مجملها على أشتات متناثرة من الكتب وجزئيات الكتب المختلفة، وذلك دون تنسيق أو تنظيم، كما يعلوها التراب والغبار وخيوط العنكبوت. وقد علق بيرم بأن ما رآه يبدو وكأنه يمثل كل ما تبقى من كنوز مكتبة القيروان، التي عانى الكثير من الحكام والملوك في جمعها وحفظها(٢).

ولم يكن مسجد القيروان بالمركز الإسلامي التعليمي والثقافي الوحيد بتونس. فهناك جامع الزيتونة الذي كان يعد واحداً من أشهر الأكاديميات، ولا يزال باقياً إلى يومنا هذا، حيث يعرف بجامعة الزيتونة وقد أنبتت الزيتونة غير واحد من العلماء الأفذاذ، نذكر من بينهم الكيميائي الشهير أحمد التيفاشي القفصي، والرحالة الكاتب عبدالله التجاني، والمؤرخ الاجتماعي أبو زيد عبدالرحمن ابن خلدون، والحقوقي الكبير أبو عبدالله محمد ابن عرفة(٣).

---

(١) إبراهيم شبوح، ص ص ٣٤٠-٣٤١.

(٢) محمد بيرم، ص ٢٤٣.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب، " الثقافة في تونس "، ٥٤٠.

وقد أنشئ جامع الزيتونة بتونس عام ٨٠هـ/ ٦٩٩م، ويرجع الفضل في ذلك إلى القائد العسكري حسان بن النعمان. كما تم تجديده وتوسعته عام ١١٦هـ/ ٧٣٤م. وقد اشتهر باحتوائه على مكتبتين، وأغلب الظن على ثلاث مكتبات. وقد عرفت أولى هذه المكتبات باسم المكتبة العبدلية، ألحقت في البداية بجناح ملحق بجامع الزيتونة، ثم نقلت في وقت لاحق إلى المبنى الرئيسي. وقد أنشأ هذه المكتبة، التي عرفت أيضاً باسم «الصادقية»، الأمير الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسين، المتوفى في عام ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م،وقد قام مؤسسها بتزويدها بالكثير من الكتب، كما جعل لها «نظاراً» للحفاظ عليها والقيام بشئونها، وأمر بأن تكون إدارتها في يد إمام الجامع، أبي البركات ابن عصفور. وبشكل عام، فقد تمكنت هذه المكتبة من اجتياز فترات التخريب والسلب التي أصابت البلاد، وخرجت منها بسلام. وتذكر المصادر أن أكثر من خمسة آلاف مخطوطة ثمينة من مخطوطاتها نقلت قبل سنوات، وحفظت في دار الكتب الوطنية التونسية. وبجانب الأمير أبي عبد الله، فقد عني عدد من ولاة الأمر التونسيين بدعم هذه المكتبة ورعاية شئونها، ومن هؤلاء الأمير خير الدين والأمير علي باشا الثالث وابنه محمد الهادي. كما أمر المشير الصادق باي بتنظيمها في عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م، ومنذ ذلك العهد أطلق عليها «المكتبة الصادقية»[١].

(١) محمد عبد القادر أحمد، " المكتبة التونسية... "، ص ١٨٥. أيضاً: صلاح الدين المنجد، " بعثة معهد..."، ٣٩١.

ولم تكن مجموعات كتب المكتبة العبدلية بالمجموعات الوحيدة التي وجدت في الجناح الشرقي لمسجد الزيتونة، فقد أشارت إلى وجود مكتبة أخرى، أنشأها الأمير الحفصي أبو عمرو عثمان في المقصورة الشرقية بالجامع(١). أمّا أكبر مجموعات الكتب بمسجد الزيتونة، وأكثرها أهمية، فهي التي وجدت بمكتبة الأحمدية. وعلى الرغم من أن هذا الاسم ينسب إلى الوالي العثماني أحمد باشا الأول الذي تولى الحكم عام ١٢٢١هـ/١٨٠٦م، إلاّ أن تاريخ نشأة هذه المكتبة يرجع إلى فترة حكم الدولة الحفصية لتونس. وهناك إشارات عديدة إلى أن الغالبية العظمى من ملوك بني حفص وأمرائها كانوا يتبارون فيما بينهم ليحظوا بشرف اقتران أسمائهم بكل ما يتعلق برعاية هذه المكتبة وتنمية مقتنياتها ومن أشهر هؤلاء، الأمير أبو فارس عبدالعزيز، الذي يقال بأنه أوقف على المكتبة الأحمدية كتباً بلغ عددها ستة وثلاثين ألف مجلد(٢).

على أن الشخص الذي أعاد لهذه المكتبة حيويتها ونشاطها، كان الوالي العثماني أحمد باشا (باي) الأول. فبجانب رعايته للعملية التعليمية في جامع الزيتونة، ودعمه المستمر لها، قام هذا الوالي المثقف بإهداء أعداد كبيرة من الكتب لخزائن الجامع، وبشكل خاص للمكتبة الحفصية القديمة، التي عرفت

(١) محمد عبد القادر أحمد، " دراسات في... "، ص ١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ص ١٤٦-١٤٧.

فيما بعد باسمه. وقد أشار الكاتب المؤرخ ابن أبي الضياف إلى هذا الموضوع قائلاً:

« ثم وجّه أحمد باي عنايته للعلم الشريف، أعان طلبته مما بقي أثره، وطاب في الآفاق خبره، وهو أنه اشترى سائر كتب الوزير حسين خوجة المبيعة عليه في الدّين (المتقدم ذكره بثمن له بال)، واشترى غيرها، وأضاف إليها كتب آله الموضوعة في خزانة أسلافه بجامع بيت الباشا وقال: وضعها هنا لا فائدة فيه إلا المباهاة، وكانت عدة علمية في فنون شتى، ولما جمعها أمر أهل المجلس الشرعي وأعيان المدرسين للاجتماع في الجامع الأعظم، وأمرني بإيصال الكتب من قصره إلى الجامع. ومن العناية أن وجّه طابوراً من العسكر لذلك، كل واحد يحمل على يديه قدر ما لا يتعبه من الكتب، ولما وصلت الجامع وجدت العلماء ينتظرونها، فتقدم العسكر على ترتيب نظامي، كل واحد يضع ما في يديه من الكتب، ويخرج من غير الباب الذي دخل منه، وتولى الجماعة تطبيق أسماء الكتب على دفترها، ثم وضعت في خزائنها العشرين، على يمين المحراب وشماله، ثم كتب على كل سفر منها رسم تحبيسه مصححاً بختمه، وأباح للمنتفع إخراج الكتاب من موضعه لمدة عام فقط، ورتب لها وكيلين، وبذلك يسّر طريق العلم على الفقراء بل والأغنياء، وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٥٦ / ١٨٤٠ »[١].

٤ ـ مصر:

بجانب المغرب وتونس، كانت مصر البلد العربي الكبير في شمال أفريقيا

(٢) عبد الحفيظ منصور، ص ص ٥-٦.

التي أولت اهتماماً ملحوظاً بمكتبات المساجد. فعلى سبيل المثال، وجد في الإسكندرية، المدينة الساحلية العريقة، مكتبتان من هذا النوع، توافرت عنهما بعض المعلومات أمّا أولاهما فهي، مكتبة جامع الشيخ إبراهيم باشا، أو جامع الشيخ كما كان يطلق عليه على سبيل الاختصار. ويرجع تاريخ هذا المسجد ومكتبته إلى منتصف القرن التاسع عشر، حينما أنشأهما العالم المغربي الأصل الشيخ إبراهيم باشا. وقد اشتهر هذا الجامع أيضاً باسم الجامع الأنور، وكان في فترة من الفترات يضم بين جدرانه حلقات درس لأكثر من ست مئة طالب علم، وقد ألحق بهذا الجامع مكتبة كبيرة احتوت على مجموعات قيمة من المخطوطات والكتب المطبوعة في شتى المجالات المعرفية. وللأسف؛ فإن معظم مقتنيات هذه المكتبة تلفت نتيجة للقصف الجوي الذي تعرضت له مدينة الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية[1]. كما وجد بمدينة الإسكندرية مكتبة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها، كانت ملحقة بمسجد أبي العباس المرسي. وقد أنشأ هذه المكتبة، التي عرفت باسم المكتبة العباسية، العالم الإسكندراني الشيخ عبدالفتاح البنا، وذلك في مطلع القرن العشرين الميلادي. وقد ذكر زيدان ملابسات إنشاء هذه المكتبة، وتتلخص في أن الحاج علي شتا، أحد أعيان مدينة الإسكندرية، كان عازماً على بيع مجموعة من كتبه الخاصة، فنصحه صديقه الشيخ عبد الفتاح بأن يهبها إلى مسجد أبي العباس المرسي، تقديراً لذكرى ذلك الرجل الصالح. وعندما وافق الحاج علي شتا على الفكرة، عمد

(١) أحمد خيري، ص ١٨٨-١٨٩.

الشيخ عبد الفتاح إلى ضم مجموعة كتبه الخاصة إلى مجموعة الحاج علي، وأضاف إليهما مجموعة كتب أخرى تبرع بها محمد أفندي توفيق، وأودعت المجموعات الثلاث في مسجد أبي العباس المرسي(١).

كما تعد مكتبة مسجد الأحمدي في طنطا، من المكتبات المهمة بتلك المدينة. وقد أشرف على تنظيم مقتنياتها الشيخ إبراهيم الظواهري، شيخ المسجدالأحمدي بنفسه. وقد أنشئت هذه المكتبة في عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م. ويرجع الفضل في ذلك إلى اثنين من العلماء الأفاضل هما الزعيم الروحي المعروف الشيخ محمد عبده، وعبد الحليم باشا عاصم مدير الأوقاف العمومية في ذلك الحين. وحسب ما جاء في المصادر، فقد فوجئ العالمان أثناء زيارتهما للمسجد الأحمدي، بوجود آلاف من الكتب مكدسة بغير نظام أو ترتيب في أروقة المسجد وحجراته، وبالسؤال عنها عرفا أنها كانت تعود في يوم ما إلى معلمي المسجد وطلابه، وغيرة على هذه المجموعة الثمينة من المؤلفات والمخطوطات من أن تهمل وينتهي بها الأمر إلى الفقد والضياع، شرع الرجلان، وبمعاونة صادقة من الشيخ إبراهيم الظواهري، بعمل الإجراءات اللازمة لإنشاء مكتبة تحفظ فيها هذه الثروة الفكرية. وقد تمّ ذلك قبل انقضاء عام على زيارة العالمين، وقد بلغت مقتنيات مكتبة المسجد الأحمدي، التي أطلق عليها اسم «المكتبة الأحمدية» أكثر من عشرة آلاف مجلد، اشتملت على العديد من

(١) جرجي زيدان، ٤ : ١٠٩-١١٠.

المخطوطات النادرة ذات القيمة العلمية الرفيعة، يذكر منها كتاب «قرة العيون النواظر» لابن الجوزي الذي يرجع تاريخ استنساخه إلى عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م[١]. وقد ألف عبد الجواد كتاباً تناول فيه تاريخ هذا الجامع والظروف الدراسية والمعيشية لطلاب العلم فيه[٢].

وعلى ضفاف النيل، في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة طنطا، تقع مدينة دمياط، التي وجد فيها مكتبة لمسجد أنشئ في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وتذكر المصادر أن السلطان الأشرف قايتباي بنى هذا الجامع كجزء من المدرسة الأشرفية التي أنشأها في عام ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م. وقد تداخل اسمي الجامع والمدرسة فيما بعد حتى عرف باسم جامع المتبولي أو المدرسة المتبولية. أما المكتبة الحالية فقد قامت على مجموعات الكتب التي كانت موجودة بالمدرسة والجامع. وقد تأسست هذه المكتبة بشكل رسمي في عام ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م، وكانت تحتوي على أربعة آلاف مخطوط، بعضها من نوادر الكتب. وظلت هذه المكتبة نشطة تقدم خدماتها إلى روادها حتى عام ١٣٣٠هـ / ١٩١١م، عندما نقلت مقتنياتها إلى مسجد البحر، الذي يوجد أيضاً بمدينة دمياط[٣].

(١) أحمد محمد الخطيب، ص ٧٠. أيضاً : علي سامي النشار وغيره، ص ص ١-٢.

(٢) محمد عبد الجواد، حياة مجاور في الجامع الأحمدي.

(٣) عبد الرحمن الجلال ، ص ٧١. أيضاً : محمد محمد أمين، ص ص٣٤٣-٣٤٤. أيضاً : محمد رشاد عبد المطلب وغيره، " تصوير المخطوطات من... "، ص ص٣٤٤-٣٤٥.

وفي الوقت الذي احتوت فيه كل مدينة كبيرة في القطر المصري على مكتبة مسجد واحدة على الأقل، تميزت مدينة القاهرة بوجود العديد من مكتبات المساجد، التي زودت بمجموعات كبيرة من الكتب القيمة يمكن من خلالها تقديم خدمات مكتبية جيدة للمواطنين على اختلاف فئاتهم. ويعد جامع عمرو، الذي أنشئ بالفسطاط حوالي عام٢١هـ/ ٦٤١م، من بواكير الجوامع المصرية التي احتضنت بين جدرانها مكتبة على قدر كبير من الأهمية. وكما ذكر من قبل، فقد تلقى هذا الجامع كمية ضخمة من المصاحف، أهديت إليه من قبل الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م. وسرعان ما تضخمت هذه المجموعة لتشكل في النهاية مكتبة من الطراز الأول. وقد كتب المقريزي عن هذا الجامع ومكتبته مشيراً إلى أعمال التجديد والإصلاح التي تمت فيه عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م، بمبادرة من القاضي أحمد بن أبي زكريا، والتي اشتملت على بناء درج يربط ما بين المكتبة وسطح الجامع(١).

وعلى الرغم من عدم توفر معلومات كافية عن كتب ومخطوطات مكتبة جامع عمرو، إلا أنه يمكن القول بأن مقتنيات هذه المكتبة كانت على قدر كبير من الضخامة والأهمية. وتستند هذه القناعة إلى الحقائق التاريخية التي تؤكد على وجود أكثر من أربعين حلقة درس في جامع عمرو، وذلك قبل كوارث الوباء التي اجتاحت القطر المصري عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م(٢). هذا ؛ وقد وجدت

---

(١) أحمد بن على المقريزى، ٣: ١٩٥.

(٢) المصدر السابق، ٣: ٢٠٣.

مجموعات أخرى من المصاحف التي تنامت مع الوقت لتصبح مكتبة ذات شأن، ومن أمثلة ذلك المجموعات التي احتضنتها مكتبة جامع ابن طولون، الذي أنشأه السلطان أحمد بن طولون عام ٢٦٥هـ/٨٧٨م، بمنطقة القطائع بالقاهرة. وقد بلغت هذه المكتبة أوج عظمتها إبان حكم السلطان المملوكي حسام الدين لاجين. ويقال أيضاً بأن هذه المكتبة احتوت على مجموعة كبيرة وقيمة من الأعمال الطبية، ضمن ما احتوت عليه من كتب ومخطوطات ثمينة[١].

ويذكر في هذا الصدد أيضاً مكتبة جامع الحاكم، وذلك كمثال لمكتبات المساجد التي أنشئت - في بداية الأمر - كخزانة للمصاحف، ثم تحولت - بمرور الوقت - لتصبح مكتبة متكاملة تضم كتباً في شتى المعارف. وقد ظلت مكتبة هذا الجامع، الذي عرف أيضاً بأسماء أخرى منها جامع راشدة وجامع الخطبة تتلقى وقفيات الكتب حتى القرن الثامن الهجري عندما تعرضت هي ومقتنياتها للتدمير نتيجة الزلزال الذي أصاب مدينة القاهرة عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م. وقد سارع السلطان المملوكي ركن الدين بيبرس الجاشنكير، الذي تأثر من هذه المأساة، إلى إعادة بناء الجامع كما جعل فيه «خزانة كتب جليلة». وقد ذكر المقريزي الذي أورد هذه الرواية في كتاباته، أن السلطان ركن الدين بيبرس أنشأ مدرسة بهذا الجامع زودها بمجموعات كبيرة من الكتب، وذلك لتعليم القرآن، وتدريس العلوم الشرعية على المذاهب الأربعة[٢].

(١) عبد اللطيف إبراهيم، "دراسات في..." البحث الأول ص ١٨.

(٢) أحمد المقريزي، ٣: ٢٣٧.

وبجانب تجديد وتوسعة بناء جامع الحاكم، قام الخليفة الحاكم بأمر الله - وكما ذكرنا في فقرة سابقة - بتزويد هذا الجامع بأعداد كبيرة من المصاحف، كاملة وعلى شكل أجزاء. وتشير المصادر إلى أنه قام - أيضاً - بتزويد جامع آخر، هو جامع المقس، بأعداد كبيرة من الكتب. والعجيب في الأمر، أن الخليفة - ولأسباب يصعب التكهن بها - أمر بتزويد هذا الجامع، وأيضاً جامعي الأزهر والحاكم، بالكتب التي كانت بدار الحكمة، تلك الأكاديمية العلمية الذائعة الصيت التي قام هو نفسه بإنشائها في عام ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م(١).

كما نقرأ أيضاً بأن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري أمر ببناء جامع خارج القاهرة في عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م. وقد عرف هذا المسجد باسم جامع العافية، ووجدت به خزانة كتب قيمة. ويروى بأن الشيخ الفقيه الفاضل النحوي يحيى بن عبدالوهاب الدمنهوري أوقف كتبه على خزانة هذا الجامع(٢).

ويشير إبراهيم إلى مكتبات مساجد أخرى أنشئت إبان حكم المماليك لمصر. ومن مكتبة جامع الحظيري في بولاق، التي أنشأها هي والجامع في عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م، الأمير عز الدين أيدمر الحظيري. ويقال بأن الأمير زود جامعه بخزانة كتب نفيسة، كما أوقف عليه أوقافاً جليلة. وهناك مكتبة أخرى في حي بولاق أشار إليها إبراهيم، وهي المكتبة التي أنشأها الشيخ شمس الدين

(١) حسن إبراهيم حسن، ص ٤٣٥. أيضاً: صالح جودت، ص ١٧٨.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم، «دراسات في....»، البحث الأول، ص ١٦.

الواسطي بجامعه بخط موردة البوري. ويروي إبراهيم بأن الشيخ شمس الدين جعل مكتبة جامعه عامرة بالكتب، كما عين لها «خازناً» و «مفرق للربعة»[1]. ومن الجوامع الشهيرة جامع القلعة الذي أنشأه السلطان محمد بن قلاوون عام ٧١٨هـ / ١٣١٨م. وقد ألحق السلطان قلاوون خزانة كتب بهذا الجامع أمدها بكثير من الكتب والمصاحف التي وصلنا بعضها[2].

وكما اهتم أمراء وسلاطنة المماليك البحرية بإنشاء المساجد وخزائن الكتب، نرى هذا التوجه نفسه لدى المماليك الجراكسة. ويذكر في هذا الصدد الجامع الأبيض الذي أنشأه السلطان فرج بن برقوق بالحوش السلطاني بقلعة الجبل. وتذكر وقفية هذا الجامع الذي أنشئ عام ٨١٢هـ / ١٤٠٩م، ما نصه «...ومن ذلك جميع المكان المبارك المعمور بذكر الله تعالى الكاين بقلعة الجبل المحروسة بالحوش السلطاني بالجانب الشرقي منه الذي أحيا بعمارته سنة الخير وأعان بعمارته على عبادة الله تعالى...... وبالجانب الشرقي باب يدخل منه إلى بيت بمنافع وحقوق وهو معد لوضع المصاحف والربعات الشريفة وكتب العلم.»[3]. كما نقرأ أيضاً عن مكتبة الجامع الذي أنشأه الأمير خاير بك بن مال باي بخط التبانة عام ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م.

ويقال بأن هذه المكتبة احتوت على مجموعات كبيرة من المصاحف والكتب

(١) عبداللطيف إبراهيم، «دراسات في ...» البحث الأول، ص ١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩.

(٣) المصدر السابق، ص ص ٢٦–٢٧.

في شتى المعارف. كما كان يقوم على خدمتها وخدمة روادها موظف يقوم بتفريق أو توزيع الكتب ثم جمعها بعد القراءة فيها(١).

وتحدثنا المصادر كذلك عن مكتبة مسجد المؤيد شيخ، التي عمل على بنائها السلطان المملوكي المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي، الذي تولى الحكم عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، وذلك كجزء من مدرسة المسجد. وقد دعمت هذه المكتبة بمجموعات عظيمة من الكتب التي كانت - في وقت من الأوقات - موجودة بمكتبات قلعة الجبل. وبناءً على ما ذكره المقريزي، فقد قام ناصر الدين محمد البارزي، كاتب سر السلطان المؤيد، بإهداء المكتبة الجديدة خمس مئة مجلد قدرت قيمتها في ذلك الوقت بما يوازي الألف دينار. وقد اغتبط السلطان أيما اغتباط بهذه الهدية، وكافأ كاتب سره بتعيينه في منصب أمين المكتبة، والخطيب الرسمي للمسجد كما أصدر مرسوماً يقضي بقصر هذين المنصبين عليه وعلى ذريته من بعده(٢).

وتعد المكتبة المحمدية، التي ألحقت بمسجد المحمدي، الذي أنشأه الأمير محمد بك أبو الذهب عام ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م، من مكتبات المساجد المهمة. وقد بدأت هذه المكتبة عملها بمجموعة متواضعة من الكتب بلغ عددها ست مئة وخمسين كتاباً. وحرصاً منه على تطوير المكتبة وتوسعتها، عمد

(١) عبداللطيف إبراهيم، «دراسات في ...» البحث الأول، ص ٣٦.
(٢) المصدر السابق، ص ص ٢٨ - ٢٩.

الأمير السخي إلى شراء مجموعات من الكتب، ومن ذلك مكتبة خطيب المسجد الشيخ أحمد بن محمد الراشدي، حيث قام بإهداء الجميع إلى المكتبة الوليدة. وقد كتب عبد الوهاب عن شدة ولع هذا الأمير أبو الذهب بمكتبته، للدرجة التي دفعت به إلى دفع مبلغ مئة ألف درهم فضة مقابل مخطوط نادر اشتراه للمكتبة من شخص يدعى مرتضى الزبيدي. ويضيف عبد الوهاب في موضع آخر، أن هذه المكتبة احتوت على الكثير من المصاحف المطعمة بالذهب الخالص، وذلك إلى جانب حوالي ألف وثلاث مئة من المخطوطات والكتب والأعمال النادرة[1].

هذا؛ وقد اشتملت مدينة القاهرة - إضافة إلى ما سبق ذكره - على العديد من مكتبات المساجد التي احتوت على مجموعات ثمينة من الكتب والمخطوطات. ومن ذلك المكتبة التابعة لمسجد الأفخر، الذي يعرف أيضاً بمسجد الفكهاني، ويقع في حي العقادين. وقد أنشأ هذا المسجد الخليفة الفاطمي الظافر بنصر الله عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م، وتم تجديده بالكامل عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦م، على يد الأمير أحمد كتخدا، ويقال إن مكتبة هذا المسجد ضمت مجموعة كبيرة من المخطوطات في شتى المعارف، كما احتوت على العديد من المصاحف المطعمة بالذهب[2]. كما نقرأ عن مكتبة مسجد الأمير شيخو، الذي أنشأه الأمير

---

(١) حسن عبد الوهاب، " تاريخ المساجد... "، ١: ٣٥٢.

(٢) المصدر السابق، ١: ٧٥.

شيخو العمري الناصري في عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. ويروى بأن الأمير الصالح أحمد جاويش أرناؤد أوقف على خزانة هذا الجامع مجموعة كبيرة من الكتب، وذلك قبل وفاته عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م[١]. وتعد المكتبة التي ألحقها محب الدين الواقف بمسجده الذي أنشأه بالقرب من قلاوون بمدينة القاهرة حوالي عام ٩٣٤هـ/١٥٢٧م، من المكتبات التي وجدت رعاية الحكام العثمانيين وعنايتهم. وقد احتلت هذه المكتبة – التي لم يعد لها وجود الآن – حجرة علوية بالمسجد المذكور. وبناء على ما جاء بوقفية إنشائها، فقد اقتصرت وظيفة كبير الأمناء على المؤسس نفسه ثم ذريته من بعده. وعلى الرغم من أن عدد الكتب التي احتوتها هذه المكتبة كان قليلاً مقارنة بمثيلاتها، إلا أنه وجد فيها العديد من الكتب التي تناولت موضوعات غير دينية مثل التاريخ، واللغات، والموسيقا، والفروسية، والطب[٢].

وقد أشار زيدان إلى مكتبة أخرى لم يعد لها وجود في الوقت الحاضر، وهى مكتبة مسجد الشعراني، التي لا يعرف عنها الكثير[٣]. كما ذكر أيضاً مكتبة مسجد الدردير، الذي اشتق اسمه من اسم المؤسس، الشيخ الدردير العدوي المالكي (المتوفى عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م). وقد احتوت هذه المكتبة على مجموعة كبيرة من الكتب. ويروي زيدان أن طلاب الأزهر كان لهم حق

(١) حسن عبدالوهاب، «تاريخ المساجد...»، ١: ١٥٩.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم، "مكتبة عربية..."، ص ص ٦٣–٦٦.

(٣) جرجي زيدان، ٤: ١٠٣–١٠٤.

استعارة مقتنيات هذه المكتبة في إطار لوائح الإعارة المعمول بها، ويذكر أيضاً في هذا الصدد مكتبة مسجد الغوري، الذي أقيم على مسافة قصيرة من الجامع الأزهر، وتعد هذه المكتبة من المكتبات التي يتردد عليها طلاب الأزهر للاستفادة من مقتنياتها. ويرجع الفضل في إنشاء المسجد والمكتبة إلى السلطان الملك الأشرف أبي النصر قانصوه الغوري، وذلك في عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م. وقد استخدم هذا المسجد كمدرسة أيضاً، مما زاد في أهمية المكتبة وأعطاها زخماً وفعالية أكبر، وقد احتوت هذه المكتبة على الكثير من المصاحف، بجانب مجموعات كبيرة من الكتب في موضوعات علمية شتى. ويذكر أيضاً أن السلطان الغورى أمر بتعيين أمين للإشراف عليها وخدمة روادها .وقد حظيت هذه المكتبة بشعبية كبيرة بين أوساط الدارسين وطلاب العلم، بالإضافة إلى رجال الفكر والسياسة، الذين قاموا بإهدائها مجموعات قيمة من الكتب والمخطوطات من مكتباتهم الخاصة(١).

وعلى الرغم من استخدام طلاب الأزهر- أحياناً - لمكتبات المساجد المجاورة لهم، إلا أن مكتبة جامعهم كانت تعد واحدة من أقدم وأكبر مكتبات مدينة القاهرة، وأكثرها قيمة وتنوعاً على مستوى العالم الإسلامي. ويرجع تاريخ إنشاء الجامع الأزهر إلى عام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م، وذلك بمبادرة ودعم مباشر من جوهر الصقلي، أحد رجال الدولة البارزين والمقربين من الخليفة الفاطمي الرابع

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم، " دراسات في..."، البحث الأول،ص ص ٣٣-٣٥.

المعز لدين الله . وبمرور الوقت، أصبح الجامع الأزهر واحداً من أشهر المراكز التعليمية في الدولة الإسلامية، حيث كانت تعقد فيه حلقات العلم والتدريس، بما في ذلك حلقات للنساء لإفهامهم أمور دينهم[١] . ومن أساتذة الأزهر، موسى بن ميمون الذي درس به الطب والفلك والرياضيات، وعبد اللطيف البغدادي الذي درس به مدة عام فن الكلام والبيان والمنطق والطب[٢] .

وبجانب اسمه وشهرته العريضة، فقد عرف الجامع الأزهر- أيضاً – منذ إنشائه باحتوائه على مقتنيات نفيسة ونادرة من الكتب والمخطوطات . وقد كان الأزهر سباقاً في تبني فكرة تعليم المسلمين من كافة الأمصار والأقطار، مما كان له أكبر الأثر في تنامي تلك المقتنيات، لتشكل في النهاية مجموعات من الكتب تسمح بإنشاء مكتبة متميزة، وتدفع المسئولين إلى تعيين العلماء الأكفاء أمناء لها للإشراف عليها والعناية بها . وقد ذكر المؤرخ ابن ميسر، في كتابه «أخبار مصر»، أنه في عام ٥١٧هـ / ١١٢٣م . تم تعيين أبو الفخر صالح كخطيب للجامع الأزهر، كما أوكل إليه أيضاً مهمة الإشراف على المكتبة . وبالنظر لمكانة أبي الفخر صالح، فإن هذا التعيين يعكس أهمية منصب أمين مكتبة جامع الأزهر، والمكانة الاجتماعية والفكرية التي كان يحظى بها في ذلك الحين[٣] . ويذكر الساداتي بأن العالم علي بن محمد الشابشتي تولى

---

(١)أحمد محمد عون، ص ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٧٠- ٧١ .

(٣) صالح جودت، ص ١٧٨ . أيضاً : محمد عبد الله عنان، ص ٢٩٨ .

أيضاً أمانة مكتبة الأزهر وذلك في خلافة العزيز بالله الفاطمي[١].

واستنادًا إلى ما ورد في بعض المصادر، فقد خصص لتلك المكتبة « خلوة » أو قاعة كبيرة بقرب المنبر. لتكون مقرّاً لها وقد بقيت هذه المكتبة على حالها حتى عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م، عندما قام الأمير عبد الرحمن كتخدا، بإجراء تعديلات على المسجد لتوسعته، أدت إلى هدم هذه الخلوة. وقد ذكر عبدالوهاب أنه نتيجة لما قام به الأمير عبدالرحمن، فقد قسمت مجموعات كتب المكتبة، ووزعت على أروقة المسجد، كما حفظت بعض المخطوطات النادرة التي احتوت عليها المكتبة في مكتبات المساجد القريبة من الجامع الأزهر مثل، مسجد العيني، ومسجد الفكهاني. وهكذا تفرقت مقتنيات مكتبة الجامع الأزهر على مواقع شتى داخل الجامع وخارجه، ولم تبذل الخلافة العثمانية، التي هيمنت على مقدرات البلاد بما فيها الجامع الأزهر، أي جهد لإعادة المكتبة إلى سابق عهدها[٢].

وتدريجيّاً بدأ كل رواق من الجامع الأزهر، تنمية مجموعته من الكتب بمعزل عن الآخرين. ومع امتلاك كل رواق لمكتبته الخاصة به، نما التعليم في هذه الأروقة، التي أصبحت ـ بحق ـ مكاناً تعليميّاً من الطراز الأول، يقدم للباحثين وطلاب العلم ما يحتاجونه من كتب ومصادر علمية وبحثية مهمة. وقد تنامت

(١) أحمد محمود الساداتي، ص ١٨٨.

(٢) حسن عبد الوهاب، " تاريخ المساجد ..."، ١: ٦١-٦٢.

المجموعات في بعض الأروقة حتى بلغت آلاف المجلدات. ومن أمثلة هذه الأروقة، رواق الأتراك، ورواق الشوام، ورواق الصعايدة، ورواق الحنفية. على أن رواق المغاربة كان أكبرها حجماً وأكثرها كتباً[١]. ويكفي أن نعلم أن الأزهر في عام ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م كان يحتوي على ستة وعشرين رواقاً وخمس عشرة حارة، يدرس فيها أكثر من ثمانية آلاف طالب، ويقوم بتدريسهم حوالي مئتي أستاذ[٢].

وظل الحال كما هو عليه، حتى عام ١٣١٤هـ/١٨٩٧م، عندما تم إنشاء مكتبة رسمية أطلق عليها مكتبة الأزهر[٣]. ويرجع الفضل في إنشاء هذه المكتبة إلى جهود الزعيم الروحي الشيخ محمد عبده، الذي ذكر اسمه سابقاً مرتبطاً بإنشاء مكتبة المسجد الأحمدي بطنطا. وقد عمل الشيخ محمد عبده على لم شتات مجموعات الكتب المتناثرة في أروقة الجامع الأزهر، حيث فهرست، وأودعت في مكتبة مركزية. ولتعزيز مكانة المكتبة الأزهرية الجديدة، عمد الشيخ محمد عبده إلى استمالة عدد من أصدقائه ومعارفه، وحثهم على إهداء مجموعات كتبهم الخاصة إلى المكتبة. وقد قام العالم أبو الوفاء المراغي، الذي تولى أمانة هذه المكتبة ردحاً طويلاً من الزمان، بالتعليق على بعض أهم وأندر الكتب التي تضمنتها تلك المجموعات[٤].

---

(١) محمد عبد الله عنان، ص ٢٩٨.

(٢) يوسف أفندي أحمد، ص ٧٦٣.

(٣) Mahmoud Abu Al-Eyoun,P. 112.

(٤) محمد عبد الله عنان، ص ٢٩٩. أيضاً: أبو الوفا المراغي، " المخطوطات في ... "، ص ص ٥٧-٥٨.

وبالتدريج تنامت مقتنيات مكتبة الأزهر الجديدة، من بضعة آلاف لتبلغ مئات الآلاف من المجلدات، حيث تضمنت عدداً لا بأس به من المخطوطات النادرة التي لا تقدر بثمن. كما قامت معظم أروقة الجامع الأزهر بتسليم مجموعات كتبها إلى المكتبة المركزية الجديدة. وقد خصص لهذه المكتبة عند إنشائها أماكن، منها المدرستان الأقبغاوية والطيبرسية. ولكن أقيم لها فيما بعد مبنى خاص بها، كما تعددت فروعها في الكليات المختلفة التي يحويها الأزهر في وقتنا هذا. ويحدثنا أحد المصادر عن هذا الموضوع قائلاً: «وتشغل المكتبة الأزهرية الآن ثلاثة أماكن: اثنان منها داخل الأزهر وهما المدرسة الأقبغاوية والمدرسة الطيبرسية، والثالث خارج الأزهر في بناء مجاور له أنشأته مشيخة الأزهر سنة ١٩٢٦. وقد ضاقت بها هذه الأماكن الثلاثة فشرعت مشيخة الأزهر في إعداد مكان لها بالمدينة الأزهرية على أحدث طراز»[١].

٥ - مكتبات المساجد الأخرى بشمال أفريقيا:

على الرغم من حيازة مصر وتونس والمغرب على بعض من أكبر مكتبات مساجد شمال أفريقيا وأشهرها، إلا أن بعض دول المنطقة امتلكت مجموعات من الكتب لها قيمتها ووزنها عند الحديث عن مكتبات المساجد، فقد ذكر أحمد، خلال تعرضه لتاريخ الفتح الإسلامي لموريتانيا، أنه مع انتشار الإسلام هناك، قام المسلمون بإنشاء العديد من المساجد في أرجاء كثيرة من البلاد،

(١) وزارة المعارف المصرية، ص ١١٧.

حيث بدأ الناس في تعلم القراءة، والكتابة، وتدوين القرآن الكريم داخل تلك المساجد. ويقول أحمد في هذا الصدد : «ومنذ الفتح الإسلامي انتشرت المساجد في البلاد، وبدأ الناس في تعلم القراءة والكتابة ونسخ القرآن الكريم، والدراسة في المساجد، ووجدت في زوايا من المساجد رفوف متواضعة وضعت عليها نسخ من المصحف الشريف، وطائفة من كتب الحديث والعلم احتساباً لله تعالى، وابتغاء الأجر والثواب. وحبس بعض الحكام والعلماء والقادة بعض ما عندهم من مخطوطات على هذه المساجد. ومن قبل حبس المسلمون الفرس وآلات الحرب للجهاد في سبيل الله»(١).

وقد ذكر أحمد - أيضاً - أخباراً عن وجود مكتبات مساجد في الجزائر وليبيا، إلا أنه أشار بوضوح إلى ضياع الغالبية العظمى من مقتنياتها، وذلك نتيجة للصراعات والحروب الأهلية والكفاح المسلح، أو النهب والسلب التي قامت بها قوات الاحتلال الأجنبية(٢). وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة عن حال مساجد تلك البلاد ومكتباتها، إلا أننا نستطيع أن نستخلص بعض المعلومات عن عدد من مكتبات المساجد في هذين البلدين. فعلى سبيل المثال، تطالعنا المصادر، بأن مكتبة الجامع الجديد في مدينة الجزائر، كانت تحتوي على ما يقارب المئة من المخطوطات النادرة. أما مخطوطات مكتبة الجامع الكبير - بالمدينة نفسها - فقد تضاءل عددها في السنوات الأخيرة حتى وصل إلى حوالي

(١) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في...، ص ٢٦٣.

(٢) المصدر السابق، ص ص ١٥٦-١٥٧، ١٧٧-١٧٩.

ثلاثين مخطوطاً فقط[1] هذا ؛ وقد كتب الكعاك، عن حال مكتبات المساجد في ليبيا، مشيراً إلى تشييد الفاطميين لمسجدهم الكبير الملقب بالجامع الأعظم في مدينة طرابلس، وأنهم ألحقوا به مكتبة قيمة، كما تحدث أيضاً عن توسعة وتجديد الجامع والمكتبة إبان حكم بني خزرون. وقد وجدت مساجد أخرى في طرابلس بجانب المسجد الأعظم، حيث احتوت في مجملها على مجموعات كبيرة من الكتب، يذكر منها مكتبات جامع الفارجي، وجامع أحمد باشا الضاراماللي، وجامع شايب العيني، وغيرها[2].

ومجمل القول إن هناك كثيراً من الدلائل التي تؤكد على أن مكتبات المساجد كانت منتشرة في شمال أفريقيا والأندلس. فلو افترضنا أن دمشق وبغداد، كانتا درتي الخلافة الأموية والعباسية، فإن مدناً مثل فاس والقيروان والقاهرة، لم تكن أقل شأنًا ورفعة من سابقتيهما، في دعم الحركة التعليمية والمد الحضاري الإسلامي، ولا أقل منهما طموحاً ونشاطاً في هذا الأمر.

ثانياً ـ مكتبات المساجد في الشرق الأدنى العربي:

تنتمي المجموعة التالية من مكتبات المساجد، التي سنتعرض لها في هذا الجزء، إلى البلاد العربية في الشرق الأدنى. وقبل التعرض بالشرح والتحليل لهذه المكتبات، نود أن نشير، إلى أن هذه الدراسة لا تتضمن إلا أمثلة محدودة لأهم مكتبات المساجد في تلك البلاد. ولا تعد هذه الدراسة – بأي حال من

(١) زكريا يوسف، ص ١١.

(٢) عثمان الكعك، ص ٧–٨.

الأحوال – دراسة شاملة لكل مكتبات المساجد التي ازدهرت في هذا الجزء من العالم العربي خلال القرون الأربعة عشر الأخيرة، فهذه الرؤية البحثية، تتجاوز حدود دراستنا وأهدافها.

١ـ بلاد الشـام :

كان الشام حجر الأساس للجزء الشرقي من الدولة الإسلامية. وقد تشكل هذا الإقليم من أراضٍ تضم كل من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن في وقتنا الحاضر. وتعد الشام أول محمية تابعة للدولة الإغريقية الرومانية، فتحت – بعون الله – على يد المسلمين. وسرعان ما تحولت أكثر بلاد الشام، بعد خضوعها للحكم الإسلامي، إلى أمصار إسلامية قلباً وقالباً، تدين بالتعاليم الإسلامية السمحاء، وتناصر الدين الحنيف وأهدافه السامية. وحيث إن أحد أهم أهداف هذا الدين كان ـ ولا يزال ـ نشر كلمة التوحيد، لذا سرعان ما شرع المسلمون في بناء المساجد والجوامع الكبيرة من أجل أداء الشعائر الدينية، وتعليم الناس أمور دينهم ودنياهم. فلا عجب إذاً أن نرى المساجد تنتشر، والمكتبات تقام، ومجموعات الكتب تنمو وتتكاثر.

ويعد المسجد الأقصى أول مسجد أنشأه المسلمون في بلاد الشام. وقد بني في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ولهذا المسجد، والأرض التي أقيم عليها، مكانة خاصة في قلوب المسلمين، حيث ذكر القرآن الكريم في سياق حادثة الإسراء: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾(١). وبجانب أهميته الروحية والدينية، يرتبط المسجد

(١) سورة الإسراء، الآية ١.

الأقصى بموضوع دراستنا بدرجة كبيرة، لكونه يمثل إحدى الأكاديميات الدينية والتعليمية الإسلامية المهمة. كما يجسد أحد المراكز البحثية والعلمية المميزة في العالم الإسلامي، حيث يحتوي على مجموعة كتب ضخمة، توزعت على المدارس العديدة التابعة له. وقد كانت المدرسة النصرية إحدى هذه المدارس، حيث احتلت قاعتين فوق «باب الرحمة»، وهو أحد الأبواب الرئيسية للمسجد. وقد أنشأ هذه المدرسة الشيخ نصر المقدسي. ويطلق عليها أيضاً المدرسة الغزالية نسبة إلى المفكر الإسلامي أبي حامد الغزالي الذي جاور المسجد الأقصى خلال تأليف عمله الشهير كتابه «إحياء علوم الدين». وقد ألحق بهذه المدرسة مكتبة قيمة تبارى علية القوم في تقديم الكتب إليها. ومن هؤلاء الملك عيسى الأيوبي الذي يقال بأنه خصص جرايات مجزية للمدرسة، كما أوقف على مكتبتها مجموعة كبيرة من الكتب(١). وبجانب مجموعة كتب مكتبة المدرسة النصرية، احتوى المسجد الأقصى على العديد من مجموعات الكتب، يذكر منها، مجموعات مكتبة المدرسة النحوية، التي أنشأها الملك العالم عيسى الأيوبي عام ٦٠٤هـ/١٢٠٧م. وتذكر أيضًا مكتبة المدرسة الفارسية التي أنشأها الأمير فارس البكي، وخصص لهما مكاناً في الجانب الشرقي من المسجد. وتوصف المكتبة الفارسية بأنها أكثر مكتبات المسجد الأقصى التصاقاً بمفهوم مكتبة الإيداع. أما مجموعة الكتب الرابعة بالمسجد الأقصى، فقد

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦: ١١٩.

وجدت بمكتبة المدرسة الأشرفية، التي أنشأها سلطان مصر المملوكي الأشرف قايتباي عام ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م. وكعادة هذا السلطان - الذي اتصف بالعلم والثقافة - عند بنائه المدارس التي تحمل اسمه، فقد زود هذه المكتبة بهدايا سخية، تضم مجموعات ضخمة من المصاحف والكتب، وقد أشار كرد علي إلى عدة مكتبات مدرسية أخرى، ارتبطت بشكل أو بآخر بالمسجد الأقصى[١]. وبجانب المسجد الأقصى، فقد وجدت مكتبات مساجد في العديد من مدن بلاد الشام. فمن هذه، مدينة عكا الساحلية التي وجد فيها مسجد كبير عرف باسم جامع الجزار. وقد أشار كرد علي إلى وجود خزانة كتب كبيرة في هذا الجامع، غير أنه لم يسرد أي تفاصيل عنها[٢]. أما الجامع المنصوري الكبير بمدينة طرابلس اللبنانية، فقد ضم بين جدرانه مكتبة كبيرة. ويذكر تدمري أن هذه المكتبة تلقت العديد من هدايا الكتب، كان أضخمها وأثمنها ما أوقفه عليها الشيخ مصطفى الميقاتي، أحد العلماء البارزين بمدينة طرابلس وذلك في عام ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م[٣]. وقد جاء ذكر هذه المكتبة في سياق حديث الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي عن الجامع المنصوري، قائلاً: « ... وجامع البلد الكبير في متوسطها، له صحن واسع مثل صحن الأزهر، أو أكبر، وفي دائره أروقة لواوين من كل جانب، وخلاوي للمعلمين والمدرسين،

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ : ١١٩-١٢١.

(٢) المصدر السابق، ٦ : ٢٠٢.

(٣) عمر عبد السلام تدمري، ص ٨٤، ص ص ١٢٩-١٣٠.

أعظم خلوة به خلوة الشيخ علي أفندي رشيد (الميقاتي)، فيها مكتبة عظيمة وساعات دقاقة لمعرفة الأوقات.. »[١]. كما عبر الرحالة الشاعر رمضان العطيفي الدمشقي عن حنينه إلى طرابلس وجامعها منشداً :

إني لمشتاق لها ولأهلها وجامعها المعمور عز منارة[٢]

وإذا اتجهنا شرقاً، نجد مكتبتين مشهورتين لجامعين معروفين في مدينة حماة السورية. أما الأولى فهي خزانة الكتب العائدة لجامع الشيخ إبراهيم. وهي مكتبة فخمة ضمت مقتنياتها مجموعة الكتب الخاصة بنوري باشا الكيلاني وغيره من آل الكيلاني وعوائل مدينة حماة[٣]. والمكتبة الثانية هي المكتبة الملحقة بجامع الدهشة. ويذكر كرد علي بأن أبا الفداء، أشهر حاكم في تاريخ مدينة حماة، أوقف مجموعة كتبه الضخمة على هذا المسجد[٤]. كما توافرت معلومات عن مكتبات مساجد بمدينة حلب، وأول هذه المكتبات تلك التي كانت ملحقة بجامع الكواكبي، والتي أنشأها المفتي الشهير الشيخ محمد بن حسن الكواكبي، الذي توفي عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م. وقد احتوت هذه المكتبة على مجموعات ضخمة من المخطوطات في شتى الموضوعات الشرعية، والآداب، واللغة العربية، وغيرها. كما تضمنت مجموعة الكتب والمراسلات الخاصة

(١) عمر عبد السلام تدمري، ٨٤.
(٢) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.
(٣) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ :.٢٠٤.
(٤) محمد كرد علي، " الكتب والمكاتب... "، ص ٥٠٩.

بالشيخ الكواكبي وللأسف فقد فقدت أكثر المجموعات التي كانت موجودة بهذه المكتبة وغيرها من خزائن كتب آل الكواكبي، وذلك بسبب الإهمال والإهداء غير المشروع من قبل بعض القائمين عليها[١]. وقد أشار الكيلاني إلى هذا الموضوع ـ نقلاً عن كامل الغزي صاحب كتاب «نهر الذهب في تاريخ حلب» ـ بقوله: «أدركنا في مدينة حلب عدة مكتبات غنية بالكتب المخطوطة النادرة قد تسلط عليها لصوص الكتب فيسلبوها كل ما حوته من الطرف والتحضر. وإننا منذ زمن الصبا حتى الآن نرى تجار الكتب المخطوطة يترددون إلى حلب ويملأون من مكتباتها الصناديق الكثيرة، عدا ما نراه من سواح الغرب وسماسرة المستشرقين الذين يختطفون الكتب النفيسة من أيدي طائفة من البسطاء لا يفرقون بين الطين والعجين يشترونها منهم بأبخس الأثمان»[٢].

وقد حظيت مدينة حلب بمكتبات أخرى، ومن ذلك خزانة الكتب بجامع الناصرية، وقد جاء ذكرها في سياق حديث كرد علي عن مكتبات مدينة حلب، إلا أنه لم يعط تفاصيل عنها[٣]. وبعكس هذه المكتبة، فإن هناك تفاصيل وافية عن خزانة الكتب بجامع الفاحية الواقع أمام باب القلعة. وقد قام بإنشاء هذا الجامع فروخ بن عبد المنان، وذلك بناء على أمر مولاه وزير الخليفة العثماني، خسرو باشا. وقد بني الجامع على أساس مسجد وتكية ومدرسة في

---

(١) محمد أسعد طلس، "المخطوطات وخزائنها..."، ص ص ١٦-١٩.

(٢) عبد الرحمن الكيلاني، ص ٦٧٣.

(٣) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦: ٢٠٣.

الوقت نفسه، كما ألحقت به خزانة كتب ضخمة حفلت بنفائس المخطوطات والكتب. وقد أوقف خسرو باشا وأخيه مصطفى باشا أوقافاً مجزية على الجامع وملحقاته. وقد ظلت خزانة الكتب بهذا الجامع تخدم الباحثين وطلاب العلم لأكثر من ثلاث مئة عام، إلى أن وقعت الزلزلة العظمى بمدينة حلب عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م فتهدم بنيان الجامع وتبعثرت مخطوطاته. وقد أعيد بنيان الجامع ومدرسته في عام ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م، وألحقت بهما خزانة كتب كبيرة للمرة الثانية(١).

كما نقرأ أيضاً عن خزانة الكتب بالجامع والمدرسة العثمانية أو الضيائية. وقد أنشأ الجامع والمدرسة الوزير ووالي حلب عثمان باشا الدروكي، وذلك في عام ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م. ويقال بأن هذا الوزير العالم أوقف على الجامع والمدرسة خزانة كتب عظيمة، كما عين لها «حافظاً» يرعى شئونها ويهتم بروادها(٢). أما أكبر وأقدم مكتبات المساجد في حلب، فهي المكتبة الصوفية التي وجدت بالجامع الأموي الكبير بتلك المدينة. ويمكن القول بأن مجموعات هذه المكتبة بدأت تتشكل بعد وقت قصير من بناء ذلك الجامع في أواخر عهد الدولة الأموية. ويقال بأن هذه المكتبة، التي كان لها مكان مميز في الجهة الشرقية من الجامع، احتوت على مجموعات ضخمة من الكتب، كان من بينها عشرة آلاف مجلد أوقفها عليها حاكم حلب الشهير سيف الدولة ابن حمدان.

(١) محمد أسعد طلس، " المخطوطات وخزائنها..."، ص ص ١٥-١٦.

(٢) المصدر السابق، ص ص ٢٥-٢٨.

وقد كان لهذه المكتبة أمناء يتولون الإشراف عليها ومتابعة تنظيم مجموعاتها[1]. وقد ذكر ابن سنان الخفاجي هذه المكتبة في قصيدته اليائية التي كتبها من إستانبول يداعب فيها أحد أصدقائه :

أبلغ أبا حسن السلام وقل له هذا الجفاءُ عداوة الشيعية

فلأطرفن بما صنعت مكابراً وأبثُّ ما لاقيت منك شكية

ولأجلسنك للقضية بيننا في يوم عاشوراء بالشرقية

حتى أُثير عليك فيها فتنة تنسيك يوم «خزانة الصوفية»[2]

وإذا ما اتجهنا جنوباً إلى دمشق، يستطيع المرء أن يحصي العديد من مكتبات المساجد التي أنشئت واشتهرت في هذه المدينة الإسلامية العريقة، ومن ذلك المكتبة التي ألحقت بمسجد درب المدنيين. ويقال بأن هذه المكتبة، التي اختير لها حجرة في أحد أقبية المسجد، كانت نشطة وفعالة خلال فترة حياة المؤرخ الكبير ابن عساكر[3]. كما يرد ذكر المكتبة السياغوشية التي كان مقرها في مسجد يقع بحارة القصاعين. وقد أنشأ هذه المكتبة حسن باشا ابن عبدالله عندما بني المسجد بأمر من الوزير الأعظم سياغوش باشا. وللأسف فإن معظم مقتنيات هذه المكتبة قد فقدت خلال السنوات اللاحقة لإنشائها ولم يتبق منها إلا أقل القليل[4]. كما تذكر المصادر مكتبة ثالثة، وهي المكتبة الملحقة بجامع

(١) محمد أسعد طلس، «المخطوطات وخزائنها...»، ص ص ١٢-١٥. أيضاً: الكيلاني، ص ص ٢١١-٢٢١.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦: ١٩١.

(٣) Youssef Eche, p.208

(٤) أسماء الحمصي، ص ٣٩.

يلبغا. ويعد هذا المسجد واحداً من أكبر ثمانية مساجد بمدينة دمشق، وقد شيده الأمير المملوكي يلبغا العمري، عام ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م. ويقال إنه كان يتسع لما يزيد على ألف طالب علم[1]. وقد أشار المنجد إلى عدد من جوامع دمشق التي كانت تعقد فيها حلقات تدرس - وبالتالي توافر خزائن الكتب فيها - مثل جامع سيدي عبد الغني، وجامع الأقصاب، والجامع العمري، وجامع المعلق، وجامع التوبة، وجامع السويقة، وجامع المصلى، وجامع صهيب، وجامع منجك، وجامع السرايا، وجامع الورد صغير، وجامع حسان[2].

إلا أن أقدم مساجد دمشق، عراقة ومكانة، هو الجامع الأموي. ويرجع تاريخ إنشاء هذا المسجد إلى عام ٩٦هـ/ ٧١٤م، في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك. وقد أصبح هذا المسجد منذ إنشائه، مفخرة أهل دمشق على مر العصور. وقد تميز هذا الجامع عن باقي مساجد بلاد الشام بحجم مقتنياته وكثرتها، فبينما كانت مساجد الشام تحتوي على مجموعة واحدة أو مجموعتين على أكثر تقدير، كان الجامع الأموي يحتوي على العديد من مجموعات الكتب. وحتى يمكن دراسة هذه المجموعات واستعراضها، بشيء من الإنصاف، فقد تمّ تقسيمها إلى ثلاث فئات، فالفئة الأولى هي تلك التي كانت تتعلق بخزائن الكتب المخصصة لخدمة طلاب العلم وحلقات الدرس بالمسجد، لاسيما حلقات المذاهب الأربعة. فقد ذكر أن حلقات الدروس التابعة للمذهب

(١) محمد أحمد دحمان، ص ١٣٥.

(٢) صلاح الدين المنجد، " وثيقة رسمية... "، ص ص ٣١٤-٣٢٠.

المالكي كان لها خزانة كتب خاصة بها. وبناء على ما جاء في كتابات كرد علي، فقد تولى الشيخ محمد عبد السلام التونسي، مفتي المذهب المالكي، أمانة تلك الخزانة، وكان ذلك إبان القرن العاشر الهجري[1]. تفيدنا المصادر بأن حلقات درس المذهب الحنبلي كانت تمتلك خزانتين من الكتب. وبناء على ما ذكره المؤرخ شهاب الدين أبو شامة فإن هاتين المكتبتين، نقلتا في وقت لاحق - وبصفة مؤقتة - إلى إبان حكم السلطان الأيوبي عيسى ابن العادل[2]. أمّا الفئة الثانية، فهي تمثل مجموعات الكتب التي أهديت للجامع الأموي من قبل العلماء والعامة بمدينة دمشق. وعادة ما كانت ترد هذه الكتب في صورة وقفيات، يتراوح عدد الوقفية الواحدة ما بين بضعة كتب إلى عدة مئات. ومن أوائل مجموعات الكتب التي أهديت إلى الجامع الأموي، تلك المهداة من أحمد بن الفرات، المتوفى في عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م. وقد ذكر المؤرخ ابن عساكر، هذه الهدية وأشار إلى كونها خزانة كتب قديمة . كما ذكرت المصادر - أيضًا - إهداء علي بن طاهر السلمي، قبيل وفاته عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م، مكتبته الخاصة إلى حلقة الدرس التي كان يلقي فيها دروسه في مجال النحو والصرف. كما يذكر عش وقفية العالم عبدالله بن الطويل، المتوفى عام ٥١٤هـ/١١٢٠م، التي أوقف فيها جميع ما يمتلك من كتب على الزاوية الغربية من الجامع. وبجانب ما ذكر، نقرأ أيضاً أسماء العديد من مواطني مدينة دمشق

(١) محمد كرد علي، «الكتب ،المكاتب...»، ص٥١٠.
(٢) Youssef Eche, P. 205-206.

وعلمائها الذين دفعتهم الغيرة الدينية والأخلاقية إلى إيداع مجموعات كتبهم الثمينة في الجامع الأموي. ومن هؤلاء تاج الدين ابن الحسن، ومحمد بن عمر الشافعي، وغيرهما[١]. والفئة الثالثة والأخيرة، هي تلك المجموعات والخزائن التي وجدت في المدارس والخلوات والمقصورات والمشاهد والأضرحة الملحقة بالجامع الأموي. وتعد المكتبة السمياطية، التي يرجع تاريخ إنشائها إلى ما قبل عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، من أوائل مكتبات هذه الفئة. وقد أخذت اسمها من المدرسة السمياطية التي كانت ملحقة بها. وقد وجدت المدرسة ومكتبتها بالقرب من البوابة الشمالية للجامع، التي كان يطلق عليها «باب العمارة». ويبدو أن هذه المكتبة فقدت معظم مقتنياتها، ولم يصل إلينا منها سوى إحدى وثمانين مخطوطة. وهناك إشارات إلى مكتبة أخرى كانت ملحقة ببيت الخطابة، وهى حجرة كان يستريح فيها خطيب الجامع، قبل وبعد خطبة الجمعة. ويبدو أن هذه المكتبة احتوت على مجموعة كبيرة من الكتب، أوقفها على الجامع العالم الدمشقي علي الدفتري عام ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م[٢].

وفي إشارة إلى هذه المكتبة، ذكر ابن جبير أنها كانت توجد بجوار المحراب، كما وصفها بأنها كانت مكتبة كبيرة تحتوى على العديد من المصاحف والكتب النفيسة، وأنها كانت تفتح أبوابها بعد أداء الصلاة مباشرة، حتى يتمكن الناس

(١) المصدر السابق، ص ص ٢٠٢-٢٠٨.

(٢) أسماء الحمصي، ص ص٣٨-٣٩.

من الاطلاع على ما فيها من كتب، والانتفاع بما جاء فيها من علم[١].

وبجانب ما ذكر عن خزانة بيت الخطابة، يرد في المراجع ذكر المكتبة الفاضلية، التي أنشأها ابن القاضي الفاضل أحمد البيقاني كجزء من دار الحديث الفاضلية. وقد كانت هذه المدرسة ومكتبتها – في بداية الأمر – بأحد الأبنية المتاخمة للجامع الأموي، ثم أصبح هذا البناء أو «المقصورة» ـ فيما بعد ـ جزءاً من الجامع نفسه. ويذكر عش أن المحدث الشهير تقي الدين عبد الرحمن اليالداني، المتوفى عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م أوصى بمعظم كتبه للمكتبة الفاضلية، بما في ذلك رسائله ومؤلفاته. كما وجدت في بعض الأضرحة التي ألحقت بالجامع خزائن كتب احتوت على مجموعات قيمة. ومن أمثلة ذلك، خزانة ضريح التربة الأشرفية التي يعزى إنشاؤها إلى الملك الأيوبي الأشرف موسى (٥٧٨هـ/١١٨٢م – ٦٣٥هـ/١٢٣٧م). هذا وقد تلقت «الخزانة الأشرفية» العديد من مجموعات الكتب الثمينة، خاصة من مؤسسها الأشرف موسى. ويقال إن الكاتب الشهير ابن خلكان، كثيراً ما كان يتردد على هذه المكتبة ليطالع ما فيها من مجلدات، مؤلفات ابن أبو الصقر الواسطي .ويذكر عش كذلك أن قاضي القضاة صدر الدين ابن العدمي، كان مسئولا عن إدارة هذه المكتبة، وذلك قبيل وفاته عام ٨١٦هـ/١٤١٣م[٢].

كما تذكر مكتبة أخرى من مكتبات الأضرحة، وهي المكتبة التي ألحقت

(١) صلاح الدين المنجد، مسجد دمشق، ص٢٦.

(٢) Youssef Eche, PP. 203-204.

بمشهد أبي بكر، في الزاوية الشرقية من الجامع الأموي، وقد احتوت هذه المكتبة على مجموعة ضخمة من الكتب التي أودعت كأوقاف أو هبات من أبناء دمشق، مثل العالم ابن فضل الله المتوفى عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م[١]. إلا أن أكبر مكتبات الأضرحة وأكثرها شهرة، تلك التي وجدت بمشهد ابن عروة. ويقال إن هذه المكتبة، التي أنشأها محمد بن عروة قبيل وفاته عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م، كانت زاخرة بدواليب الكتب التي أهداها ابن عروة للمكتبة، وذلك بجانب ما تبرع به بعض أثرياء مدينة دمشق من كتب ومخطوطات. ويذكر المؤرخون أنه في خلال فترة حكم السلطان الأيوبي عيسى ابن العادل، المتوفى عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، كانت هنالك محاولات - ولكنها باءت بالفشل - لتحويل هذه المكتبة إلى مكتبة إيداع مركزية، تحفظ فيها كل مجموعات الكتب الموجودة في الجامع الأموي[٢].

أما أكثر خزائن كتب الجامع شهرة وجدلاً فهي مكتبة «قبة بيت المال» التي كانت ملحقة ببيت المال، وتمثل موقعاً وسطًا بمسجد الأمويين. ويقال بأن هذه المكتبة اجتازت الكثير من المحن والكوارث الطبيعية والإنسانية التي ألمت بمدينة دمشق وجامعها العريق خلال فترة ثلاثة عشر قرناً. ويعزي البعض ذلك إلى أنها كانت مغلقة لفترة زمنية طويلة، امتدت حتى عام ١٣١٧هـ/١٨٩٩م. وقد

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٢) صلاح الدين المنجد، مسجد دمشق، ص ٢٥.

أحيطت وقائع إغلاق هذه المكتبة وإعادة فتحها بالكثير من الروايات. إلا أنه من الثابت أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وبناءً على اقتراح تقدم به الإمبراطور الألماني غليوم الثاني، أمر بإعادة فتح خزانة بيت المال. وبالفعل أعيد افتتاحها عام ١٣١٧هـ، حيث وجد بها آنذاك مجموعة كبيرة من المخطوطات المصنوعة من الرق، مدون عليها أجزاء كثيرة من القرآن الكريم، بجانب مخطوطات أخرى كتبت بلغات مختلفة، منها : الآرامية، واللاتينية، والإغريقية ؛ وقد تضمنت المخطوطات كتابات تتناول الأساطير اليونانية القديمة، والأدب، بجانب أشعار هوميروس وغيره من شعراء الحضارة اليونانية القديمة، هذا عدا عن كتابات تناولت العقائد والأديان السماوية الأخرى، بما في ذلك النصوص الكاملة للتوراة والإنجيل. وبجانب ذلك، وجد الكثير من الوثائق الشرعية والإدارية التي تتعلق بعقود البيع والشراء والزواج والإرث والوصايا والهبات وغيرها. وللأسف، قام السلطان العثماني بإهداء العديد من تلك المخطوطات القيمة والثمينة الى الإمبراطور الألماني، كما وزع الكثير على أعيان مدينتي إستانبول ودمشق أما ما تبقى – وهو أقل القليل – فقد نقل إلى دار الآثار بدمشق(١).

٢– شبه الجزيرة العربية :

وبينما كانت الشام – ومازالت – قلب العالم العربي الإسلامي فإن شبه

---

(١) محمد كرد علي، المصدر السابق،٦ : ١٩٩–٢٠٠.

الجزيرة العربية هي أول من رفع راية الإسلام، وناصر دعوة محمد ﷺ. وحيث إن مكة المكرمة كانت مركز هذه الرسالة ، فلا عجب إذاً أن يصبح الحرم المكي مركزاً روحيّاً، ونقطة التقاء العلماء وطلاب العلم من مشارق الأرض ومغاربها منذ الأيام الأولى للإسلام. ولا عجب، مرة أخرى، أن يحتوي هذا الحرم على مجموعات من الكتب، تدعم العملية التعليمية وتساندها، وقد وزعت هذه المجموعات وحفظت في أماكن متفرقة من أروقته المتعددة وفنائه الواسع. وكما هو الحال في الجامع الأموي بدمشق، فقد وجد في الحرم المكي أكثر من مكتبة واحدة. وتعد مكتبة المقام المالكي من أقدم هذه المكتبات، حيث يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الهجري. ويقال بأنها كانت تحتوي على العديد من دواليب الكتب. هذا؛ وقد ذكر عبد الجبار واقعة إهداء إمام المقام المالكي، محمد بن عبد الله المكناسي، لمؤلف ضخم يتكون من ستة أجزاء إلى خزانة المقام المالكي عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م[١]. كما ذكر عبد الجبار خزانة الكتب التي كانت بالمدرسة الشرابية، تلك المدرسة التي كانت تقع على يمين «باب السلام» وملاصقة تماماً للحرم، بحيث عُدَّت جزءاً منه. وقد احتوت هذه المكتبة – التي يعزى إنشاؤها هي والمدرسة إلى الأمير العباسي شرف الدين الشرابي عام ٦٤١هـ/١٢٤٣م – على مجموعات قيمة من الكتب في شتى المجالات العلمية والأدبية[٢]. وقد ذكر قطب الدين الحنفي، المتوفى عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م، أنه

---

(١) عب الله عبد الجبار، ص ٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٦.

على الرغم من استمرار نشاط المدرسة الشرابية حتى نهاية القرن العاشر الهجري، إلا أن معظم كتبها القيمة كانت قد فقدت ولم يعد لها وجود في ذلك الوقت(١). وتجدر الإشارة إلى وجود مدارس موقوفة أخرى بداخل أو قرب المسجد الحرام، ومن ذلك مدرسة الملك الأفضل العباس ابن المجاهد صاحب اليمن، ومدرسة دار العجلة القديمة، ومدرسة الأمير الزنجيلي نائب عدن، ومدرسة الملك المجاهد صاحب اليمن، ومدرسة الأرسوفي العفيف عبدالله بن محمد، ومدرسة ابن الحداد المهدوي، ومدرسة النهاوندي، وغيرها(٢).

وتعد مكتبة مدرسة قايتباي إحدى أهم مكتبات الحرم المكي. وقد أشار إليها معروف ـ نقلاً عن قطب الدين الحنفي ـ قائلاً: «في سنة ٨٨٢هـ أمر السلطان قايتباي وكيله وتاجره الخواجة شمس الدين محمد بن عمر الشهير بابن الزمن وشادّ عمائره الأمير سُنْقُر الجمالي أن يحصل له موضعاً مشرفاً على الحرم الشريف ليبني له مدرسة يدرس فيها علماء المذاهب الأربعة، ورباطاً يسكنه الفقراء... فاستبدل وكيله رباط السدرة ورباط المراغي وكانا متصلين، وكان إلى جانب رباط المراغي دار للشريفة شمسية من شرائف بني حسن اشتراها منها وهدم ذلك جميعه وجعل فيها اثنين وسبعين خلوة، ومجمعاً كبيراً، مشرفاً على الحرم وعلى المسعى الشريف ومكتباً و مئذنة. وصيَّر المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملون، والسقف المذهب. وقرر فيه أربعة مدرسين

(١) ناجي معروف. " المدارس الشرابية... "، ص ٣٢٧-٢٣٩.

(٢) أبو الطيب محمد التقي الفاسي، ١: ١١٧-١١٨.

على المذاهب الأربعة، وأربعين طالباً. وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم، وجعل مقرها المدرسة المذكورة. وجعل لها خازناً عيَّن له مبلغاً[1].

وبجانب المجموعات الثلاث سابقة الذكر، تحدثنا المصادر عن مكتبة الشرواني، التي أنشئت في أواخر القرن الثالث عشر الهجري بالقرب من بوابة أم هانئ. ويعزى بناؤها إلى والي الحجاز العثماني شرواني زاده محمد رشدي. وقد احتوت هذه المكتبة على كتب في شتى المعارف كالنحو والشريعة، والآداب، والتاريخ، وغيرها. ويقال إن عدداً من مؤلفاتها كتب باللغات الفارسية، والتركية، والأردية والجاوية[2].

كما تعد مجموعة كتب عبد الستار الدهلوي واحدة من أهم مجموعات الكتب التي أودعت في الحرم المكي. وقد أطلق عليها مسمى المكتبة الفيضية ويقال إنها احتوت على أكثر من ألف وسبع مئة مجلد اشتملت على مجموعة من المخطوطات قدرت بحوالي خمس مئة مخطوط[3].

أما أشهر مكتبات الحرم المكي، وأكبرها حجماً، فهي المكتبة المجيدية، التي أمر السلطان العثماني عبد المجيد بإنشائها في موقع قريب من بئر زمزم. وقد احتوت هذه المكتبة على عدة آلاف من الكتب، أرسلت إليها من إستانبول عاصمة الدولة العثمانية، كهدية من السلطان عبد المجيد، إلا أن معظم هذه

---

(١) ناجي معروف، المدارس الشرابية...، ص ٣١٩.

(٢) محمد عبد الرحمن الشامخ، ص ١٠٩.

(٣) عبد الله عبد الجبار، ص ٥٦، أيضاً: محمد رشاد عبد المطلب، " تقرير عن بعثة..."، ص١٥١.

الكتب. تلفت نتيجة السيول والفيضانات التي اجتاحت منطقة الحرم عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م. وفي عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م، تمّ اختيار موقع جديد أكثر أمناً وسلامة، وكان ذلك عبارة عن قاعة كبيرة تقع فوق باب دريبة، أحد أبواب الحرم. لذا فقد عرفت لفترة من الزمن بمكتبة باب دريبة، إلى جانب المكتبة السليمانية. كما بدأ البعض يطلق عليها اسم «مكتبة الحرم». وتدريجيّاً، وبمرور الوقت، بدأت مقتنياتها في النمو مرة ثانية. وقد أودع في هذه المكتبة العديد من مجموعات الكتب والمخطوطات القيمة التي أوقفها أو وهبها عدد من أفاضل المسلمين، مثل الشريف عبد المطلب، والشيخ صالح عطرجي، والشيخ عبد الحق الهندي، وغيرهم. وقد نقلت فيما بعد أكثر مجموعات وخزائن الكتب الموجودة بداخل أو في أطراف الحرم وأودعت في تلك المكتبة[١].

وإذا توجهنا صوب المدينة المنورة، نجد أن حال المسجد النبوي الشريف، لا يختلف كثيراً عن حال الحرم المكي، وذلك فيما يتعلق بمجموعات الكتب ووجود المكتبات. فقد وجد بالحرم النبوي العديد من مجموعات الكتب التي كانت تخدم العملية التعليمية والتثقيفية لجموع المسلمين. فمن الثابت، وكما ذكرنا في فصل سابق، أن مجموعات الكتب وجدت طريقها إلى الحرم النبوي منذ أن بدأ المسلمون يتخذونه مكاناً للتدريس والتعليم. ويبدو أن من أهم

(١) المصدر السابق والصفحة ذاتها. أيضاً: محمد خضر عريف، ص ص ٥٤٦–٥٥٠.

مجموعاته أو خزائن كتبه كانت تلك المكتبة التي خصص لها مكاناً وسطاً ما بين المنبر وقبر الرسول ﷺ. ويقال إنها كانت تحتوي على مجموعة كبيرة من الكتب والمصاحف، ويؤكد المؤرخون هذه الحقيقة، ومنهم المؤرخ الرحالة ابن جبير الذي ذكر رؤيته لخزانتين كبيرتين مملوءتين بالكتب عند زيارته للمسجد النبوي. وقد تلقت هذه المكتبة العديد من هدايا الكتب خلال تاريخها الطويل. ويذكر عبد الجبار أنه عندما احترق المسجد النبوي عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، امتدت النيران لتلتهم أكثر الكتب التي كانت موجودة فيه. وكرد فعل سريع، رصد السلطان المملوكي بمصر، الأشرف قايتباي، الأموال اللازمة لترميم الحرم النبوي وإزالة آثار الدمار الذي لحق به. كما اشتملت الميزانية المرصودة – فيما اشتملت – على الأموال التي تلزم لبناء مدرسة بالمسجد النبوي، عرفت باسم المدرسة الأشرفية. وعند اكتمال بناء المدرسة بنهاية عام ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م، أمر السلطان قايتباي بإرسال مجموعات كبيرة من الكتب شحنت من القاهرة إلى المدينة المنورة، بصحبة بهاء الدين أحد مستشاريه المقربين، وذلك بغرض إنشاء مكتبة تخدم المدرسة والمسجد[١].

وبجانب مكتبة المدرسة الأشرفية، فقد وجد في الحرم النبوي عدة مكتبات أخرى. ومن أمثلة ذلك، المكتبة المحمودية التي أمر بإنشائها السلطان العثماني محمود خان. وقد احتوت هذه المكتبة ـ في فترة من الفترات ـ ما يقارب خمسة

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٧. أيضاً : عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في . . .، البحث الأول، ص ص٣١-٣٢.

آلاف مجلد، قدِّم بعضها كهدايا من سلاطين الدولة العثمانية، والبعض الآخر كأوقاف أو هبات من أبناء المدينة المنورة[1]. أما المكتبة الثانية فهي الحميدية التي وجه السلطان عبد الحميد بإنشائها في الجانب الغربي من المسجد النبوي. ويقال بأن هذه المكتبة احتوت على حوالي ألفي مجلد. وثالثة المكتبات هي التي ألحقت بمدرسة بشير أغا، بقرب باب السلام. وقد احتوت هذه المكتبة على مجموعة كتب تقدر أيضاً بنحو الألفي مجلد[2].

ولم يقتصر وجود مكتبات المساجد على مكة المكرمة. والمدينة المنورة فحسب، بل انتشرت في أرجاء شبه الجزيرة العربية. وقد وجدت هذه المكتبات في العديد من المدن، الكبيرة منها والصغيرة. ويذكر في هذا السبيل، المكتبات الملحقة بمسجد ابن عباس بمدينة الطائف. وهي لا تزال موجودة، وقد كانت تحتوي - في وقت من الأوقات - على مجموعات ثمينة من الكتب، إلا أن معظمها فقد، ولم يبق إلا القليل[3]. كما تحدثنا المصادر أيضاً عن وجود مكتبات مساجد في مدينة عنيزة، في قلب الجزيرة العربية، وقد وجد فيها

(١) عمر رضا كحالة، " المنتخب من.... "، مج ٤٩، ع ١، ص ٦٩.

(٢) إبراهيم رفعت، ١ : ٤٢٣. أيضاً : عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش، ص ص٩-١٣. أيضاً : بكري شيخ أمين، ص ص ١٧٩-١٨٠، أيضاً :عبد الله عبد الجبار، ص ٥٧. أيضاً : محمد عبد الرحمن الشامخ، ص ص ١٠٩-١١٠. أيضاً : محمد رشاد عبد المطلب وغيره، " تقرير عن بعثة... "، ص١٥٢.

(٣) عبد الله عبد الجبار، ص ٥٧.

مكتبتان على الأقل، أكبرهما ألحقت بالجامع الكبير للمدينة، أما الصغرى فقد عرفت باسم المكتبة العلمية الصالحية، وكانت ملحقة بمسجد أم خمار، ويقال بأن كلتا المكتبتين كانتا تحتويان على أعداد طيبة من المخطوطات النادرة[١].

هذا ؛ وقد حظي الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية -أيضاً- بنصيب وافر من خدمات مكتبات المساجد. فقد ذكر أحد الباحثين في دراسة حول مجموعات مخطوطات اليمن، بأن الغالبية العظمى من مساجد مدينة تعز ألحق بها مكتبات، استخدمت مقتنياتها لخدمة طلاب العلم وغيرهم من الباحثين. وقد أشار الكاتب، وبشكل خاص، إلى مكتبة مسجد الملك المظفر، وما كانت تحتوي عليه من مجموعات كبيرة من المخطوطات النادرة. ومن المكتبات المهمة أيضاً، مكتبة الجامع الكبير بمدينة إب، التي يقال إنها كانت تحتوي على مجموعة قيمة من الكتب والمخطوطات المعدة لانتفاع المتعلمين. وبجانب ما جاء ذكره، فقد وجدت مكتبة بالجامع الكبير بمدينة حوث، تلك المدينة التي عرفت بعالمها الكبير نشوان ابن سعيد الحميري مؤلف كتاب « شمس العلوم »[٢]. وبالإضافة إلى ما سبق، تفيدنا المصادر بوجود مكتبة بالجامع الكبير بمدينة تريم، تعرف باسم مكتبة الكاف. ويقال بأن لهذه المكتبة فرع في مدينة سيئون المجاورة لتريم. كما توجد مكتبة في مسجد البار، أحد مساجد قرية القرين[٣].

---

(١) قاسم الخطاط، ص ٣٩٦.

(٢) فؤاد سيد، " مخطوطات اليمن... "، ص ص ٢١١-٢١٢. أيضاً : صالح أبو رقيق، "المخطوطات... العربية اليمنية "، ص ٦٤-٦٦.

(٣) محمد عبد العال أحمد، ص ص ١٧١-١٧٢.

أمّا إذا انتقلنا إلى العاصمة صنعاء، فنجد هناك أكثر من مكتبة. ومن ذلك مكتبة قبة طلحة الموجودة في مسجد قديم بتلك المدينة. ويقال بأن هذه المكتبة ـ التي تعرف أيضاً باسم قبة المهدي ـ كانت تحتوي على مجموعة قيمة من المصاحف المذهبة بعضها بخط ياقوت المستعصمي، وذلك بجانب مجموعة من المخطوطات الثمينة التي قدرها البعض بخمس مئة مخطوط. كما نقرأ أيضاً عن مكتبة جامع الروضة، الذي يقع في ضاحية من ضواحي مدينة صنعاء. ويقال بأن هذه المكتبة كانت ملاذاً للكثير من الطلاب وعلماء المدينة، حيث وجد بها مجموعة كبيرة من الكتب والمخطوطات النادرة، حتى أن بعض من زارها شبهها بمكتبة عامة نفيسة. وهي تقع في حجرتين كبيرتين بالجناح الشرقي من الجامع. ومما أثرى مجموعاتها أوقاف الكتب التي أوقفت عليها، ومن ذلك ما أوقفه ناظر الأوقاف قاسم بن حسين أبو طالب(١).

إلاّ أن أقدم وأكبر وأشهر مكتبة من مكتبات مساجد اليمن، هي مكتبة الجامع الكبير بصنعاء. ويعدّها البعض المكتبة العامة بالدولة. وقد عرفت هذه المكتبة باسم الخزانة المتوكلية، نسبة إلى مؤسسها الإمام يحيى حميد الدين، الذي أقام لها بناءً عام ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م في الركن الجنوبي الشرقي من الجامع. وقد قام الإمام يحيى بجمع الكتب الموقوفة على الجامع الكبير والتي كانت مفرقة في خزائن الجامع وعند الناس، ثم أودعها في تلك المكتبة. كما

(١) فؤاد سيد "مخطوطات اليمن..."، ص ص ٢١١-٢١٢. أيضاً: صالح أبو رقيق، "المخطوطات... العربية اليمنية"، ص ص ٥١- ٥٨.

قدم لها الكثير من هدايا الكتب والمخطوطات النفيسة . وعلى الرغم من حداثة مبنى المكتبة، إلا أن مجموعاتها، التي كانت بخزائن الكتب القديمة داخل الجامع وبجواره، تعدّ من أندر مقتنيات المكتبات وأكثرها أهمية، ليس في اليمن فقط، وإنما على امتداد العالم الإسلامي . ويقال بأن من أهم وأنفس ما فيها، مجموعة قيمة ونادرة كلها من مخطوطات ما قبل القرن السادس الهجري، كانت في حصن ظفار ذي بين، جمعها الإمام المنصور بالله عبدالله ابن حمزة بن سليمان المتوفى عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م. وتجدر الإشارة إلى هذه المكتبة، ومنذ الثورة اليمنية عام ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، عرفت باسم مكتبة الأوقاف[١] .

٣ـ العراق :

إذا كانت أرض الجزيرة العربية هي مهبط الرسالة، فقد كان العراق مهداً للحضارة الإسلامية وعظمتها . وقد امتدت الخلافة العباسية إلى ما يزيد على القرون الخمسة تمكنت خلالها من نشر العقيدة الإسلامية على رقعة واسعة من العالم، وبسط نفوذها وهيمنتها بشكل لم يعهده المسلمون قبل ذلك أو بعده . وقد اتخذ الخلفاء العباسيون بغداد عاصمة لهم، كما اشتهروا برعايتهم للعلم وأهله، وبذل الغالي والرخيص في سبيل تثقيف مجتمعاتهم . فلا عجب أن

(١) إسماعيل الأكوع وغيره، ص ص٦٣٧-٦٣٨ . أيضاً : فؤاد سيد، " مخطوطات اليمن... "، ص ص ١٩٥-١٩٧ . أيضاً : عبد القادر المغربي، ص ص ١٣٠-١٣٢ .

نراهم يهتمون بتشييد المدارس والمساجد وإرساء قواعد المكتبات، ليس فقط في عاصمتهم بغداد، وإنما في كافة الأمصار التي خضعت لهم.

والتراث العربي مليء بالشواهد المتناثرة هنا وهناك حول مكتبات المساجد التي أنشئت في مدينة بغداد وخارجها. وقد أشار عواد ـ بناء على ما جاء في كتاب «مخطوطات الموصل» لمؤلفه داود الجلبي ـ إلى أن الباحث جمع مادته العلمية، من خلال دراسته لأكثر من خمسين مكتبة بتلك المدينة، منها العديد من مكتبات المساجد، ومن ذلك: جامع الباشا، وبكر أفندي، والخاتون، والنورى، والسلطان، والزيواني، والأغوات، وخزام، وعبدالله، والعراقدة، والجامع الكبير، وغيرهم[١]. وعلى مسافة قريبة من الموصل، وجد في ميافارقين وديار بكر جامعان كبيران عرفا بجامعي آمد وميافارقين. وقد ألحق بهما مكتبة حافلة اشتملت ضمن مجموعات أخرى على مجموعة كتب الشاعر الكاتب أحمد بن يوسف المنازي، المتوفى عام ٤٣٧هـ/١٠٤٥م. وقد ظلت هذه المجموعة حتى زمن المؤرخ ابن خلكان التي ذكرها عند زيارته للجامعين بقوله: «وهي الآن موجودة بخزائن الجامعين ومعروفة بكتب المنازي»[٢].

وقد ذكر أيضاً أن الجامع الكبير لمدينة البصرة الساحلية احتضن مكتبة ضخمة احتوت على مجموعة كبيرة من الكتب. ويروى أنه عندما تهدم

(١) كوركيس عواد. "تطور فهرسة..."، ص ص١٤٣-١٤٧.

(٢) أبو العباس شمس الدين أحمد ابن خلكان، ١: ١٤٣.

المسجد عام ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، شرع أبو المظفر باتكين الرومي في إعادة بنائه مرة أخرى، وروعي في تخطيطه بناء حجرتين خصصت إحداهما للمكتبة، وقد قام أبو المظفر بإيداع كثير من الكتب في تلك المكتبة[١]. وقد أشار زكي إلى تنوع حلقات الدراسة التي كانت تعقد في الجامع الكبير، ومن ذلك حلقات النحو، والأدب، والشعر، والكلام، والفلسفة، والتفسير، والقصص، والأخبار، وغيرها[٢]. ولا عجب في ذلك، فالبصرة هي المدينة التي نبغ العديد من أبنائها، مثل الجاحظ، والمبرد، والأصمعي، والحريري، والخليل بن أحمد، وغيرهم. وقد كانت زاهرة زاخرة بالمكتبات وخزائن الكتب العامة والخاصة[٣].

وتذكر المصادر أيضاً المكتبة الرشدية في مدينة سامراء، التي ألحقت بجامع حسن باشا. ويقال إن هذه المكتبة احتوت على مجموعات من الكتب باللغتين العربية والتركية[٤]. كما يوجد في مدينة النجف مكتبة قيمة ملحقة بجامع الهندي، ويعزى إنشاؤها إلى العالم السيد محسن الطباطبائي الحكيم. وتحتوي هذه المكتبة على مجموعات كبيرة وثمينة من الكتب والمخطوطات، تتناول مجموعات كثيرة مثل علوم القرآن الكريم، والتفسير، والفقه، والحديث،

---

(١) ناجي معروف، " أصالة الحضارة... "، ص ٤٦٧.

(٢) أحمد كمال زكي، ص ص ٤٥-٥٠.

(٣) كوركيس عواد، " مدينة البصرة... "، ص ص ١٦٣-١٦٤.

(٤) عبد الرزاق شاكر البدري، ص ٣١.

والأخبار، والتاريخ، والجغرافيا، والأدب، والنحو، والفلك، وغير ذلك[١].
وللنجف ماضٍ عريق فيما يتعلق بالكتب والمكتبات. وقد أشار أحد الباحثين إلى هذا الأمر بقوله:

«ومن الأسباب التي تدعو إلى كثرة الكتب في النجف أنها معهد العلم ومهبط العلماء، وقد ألفوا في كل فن من فنون العلم، وخاضوا أغلب مجالاته. والنجف تجلب الناس إليها من الدول العربية والإسلامية لبيع الكتب، فما زالت فيها عادة قديمة مطردة حتى يومنا هذا، وهي إقامة سوق لبيع الكتب بالمزاد العلني كل خميس وجمعة»[٢].

إلا أن من أقدم مكتبات مساجد العراق وأكبرها وأكثرها شهرة، كانت بلا منازع المكتبة الحيدرية، التي ألحقت بالجامع الكبير لمدينة النجف. وقد عرفت بأسماء متعددة، منها الخزانة الفروية، ومكتبة الصحن الشريف، وخزانة كتب الإمام علي[٣]. ويبدو أن المكتبة الحيدرية لم تكتمل وتبلغ ذروتها إلا بحلول القرن الرابع الهجري. ويقال إنها حظيت بالدعم من ولاة الأمر، من سلاطين وأمراء ووزراء، كما حظيت برعاية واهتمام العلماء والعامة على حد سواء. ويعدّ عضد الدولة البويهي من أبرز الملوك الذين ارتبطت أسماؤهم بها[٤].

(١) محمد حسين الجلالي، ص ص ١٣–١٥. أيضاً: كوركيس عواد، تطور فهرسة...، ١٥٤.

(٢) محمد هادي الأميني، " مكتبات النجف... "، ص ٢٨.

(٣) كاظم الدجيلي، ص ص ٥٩٥–٦٠٠. أيضاً: حسين علي محفوظ، ص ص٢٣–٣٠. أيضاً: كوركيس عواد، تطور فهرسة...، ص ١٥٢–١٥٣.

(٤) كوركيس عواد. خزائن الكتب القديمة في العراق. بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٨، ص ١٣٠ - ١٣١.

وتذكر المصادر أن هذه المكتبة احتوت على مجموعة هائلة من المخطوطات التي وصفها أحد الكتاب بأنها مجموعة لا تقدر بثمن، حيث كانت ممهورة بتوقيعات مؤلفيها، أو أنها مكتوبة بخط المؤلف نفسه(١). كما احتوت على مجموعة كبيرة من المصاحف الرائعة، التي يرجع تاريخ تدوين البعض منها إلى القرن الأول الهجري(٢). وكما حدث مع العديد من المكتبات، فقد تعرضت المكتبة الحيدرية لبعض الصعوبات، ومن ذلك الحريق الذي تعرض له المسجد عام ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤م، والذي نتج عنه تلفيات كبيرة في مجموعات المكتبة، كان من أهمها احتراق المصاحف الثلاثة التي يقال إن عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) استنسخها بخط يده(٣).

وكعاصمة للخلافة العباسية، كانت بغداد المركز العلمي والثقافي للجزء الشرقي من العالم الإسلامي. وقد عمد الخلفاء العباسيون ووزراؤهم ونوابهم من حكام الأقاليم والأمصار إلى بناء المساجد والمكتبات بشكل لم يسبقهم فيه أحد من قبل. وقد كانت جهودهم في هذا المضمار واضحة وجلية، لدرجة لفتت أنظار المؤرخين واسترعت انتباههم. وقد أحصى الكاتب المؤرخ اليعقوبي في بداية القرن الرابع الهجري، ما يقارب ثلاثة آلاف مسجد في مدينة بغداد وحدها(٤). بينما رصد ابن رستة – المعاصر لليعقوبي – ما يزيد على الثلاثين

---

(١) Ahmad Shalaby, p.98.

(٢) سعاد ماهر، " مشهد الإمام علي..."، ص ١٩٦.

(٣) كوركيس عواد. خزائن الكتب...، ص ١٣١-١٣٢.

(٤) Mehdi Nakosteen, p. 47.

ألف مسجد في المدينة نفسها(١). ويعد جامع المنصور من بواكير المساجد التي بنيت بمدينة بغداد. ويعزى بناؤه إلى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور المتوفى عام ١٥٨هـ/ ٧٧٤م(٢). وقد ظل هذا المسجد ولفترة طويلة من الزمن مركزاً تعليميّاً مهمّاً، حيث تراوح عدد حلقات دروسه ما بين أربعين إلى خمسين حلقة، وكانت من الشهرة والتميز بحيث أصبحت قبلة المشتغلين بالعلم من علماء ودارسين(٣). وعلى الرغم من عدم توافر المؤشرات التي تؤكد وجود مكتبة ملحقة بهذا المسجد، إلا أن المنطق يشير إلى ضرورة وجودها، حيث لا يعقل أن يوجد مثل هذا المركز التعليمي المتميز بدون أن تلحق به خزائن كتب لمساندة العملية التعليمية ودعمها. وعلى كل حال فهنالك إشارة واحدة - على الأقل - تؤكد على وجود مكتبة ملاصقة للجامع، يحتمل أنها كانت تقدم خدماتها لطلاب حلقات الدرس فيه. ويقال بأن هذه المكتبة كانت ملحقة برباط الزوزوني، المجاور لجامع المنصور(٤).

وعلى خلاف جامع المنصور، فقد توافرت الكثير من المعلومات حول مكتبة جامع أبي حنيفة، الذي عرف بذلك نسبة إلى الإمام الكبير أبي حنيفة النعمان. ويقال إن مكتبة هذا المسجد كانت مكتبة رائعة، كما أثنى عليها

---

(١) Encyclopaedia of Islam, 3:328.

(٢) الكابتن كرسويل، ص ص ٣٢٤-٣٢٩.

(٣) Munir-ud-Din Ahmed, p115-117.

(٤) ناجي معروف، أصالة الحضارة...، ص ٤٦١.

الكثير من المؤرخين. وقد قام عدد من المشاهير بإيداع مجموعات كتبهم الخاصة فيها، يذكر منهم الطبيب يحيى بن جزلة، المتوفى عام ٤٩٣هـ/١٠٩٩م. كما أشار حاجي خليفة إلى أنه وجد فيها نسخة نفيسة من كتاب «الكشاف» للزمخشري دونها المؤلف بخط يده. ويقال بأن هذه المكتبة احتوت على أكثر مؤلفات الجاحظ. وقد استفاد من كنوز هذه المكتبة كثير من علماء المسلمين، مثل ابن الجوزي، وسبط ابن الجوزي، وغيرهما[١]. إلاّ أن من أكثر مقتنيات هذه المكتبة إثارة للجدل، كان العمل الموسوعي الضخم الذي يقال بأن عبدالسلام بن محمد القزويني قام بتأليفه في عدد يترواح ما بين ثلاث مئة إلى سبع مئة مجلد. ويروى أن القزويني هذا عندما عجز عن إيجاد شخص يقرأ معه هذه المجلدات الكثيرة، قام بإيداعها وقفاً على مكتبة جامع أبي حنيفة[٢].

كما نقرأ أيضاً عن خزانة الكتب الملحقة بمسجد الزيدي. وقد ذكر سبط ابن الجوزى واقعة إنشاء هذه المكتبة، حيث أورد قصة مفادها أنه عندما أعيد تعيين عضد الدين محمد ابن رئيس الرؤساء وزيراً للخليفة المستضيئ بأمر الله، استأذن الخليفة في إرسال ألف دينار إلى الشريف علي بن أحمد الزيدي، مبرراً ذلك بعهد قطعه على نفسه بأن يرسل هذا المبلغ إذا أعيد تعيينه مرة أخرى. ويقال بأن الخليفة المستضيئ بأمر الله لما سمع ذلك، لم يكتف بالإذن فقط بل

---

(١) عبد الله الجبوري، " مكتبة الأوقاف العامة...."، ص ص ٩٧-٩٩. أيضاً: كوركيس عواد، خزائن الكتب....، ص ص١٥١-١٥٤.

(٢) Youssef eche, pp192-193.

أضاف من عنده مبلغ ألف دينار أخرى. وبناءً على ما ورد في هذه الرواية، فإن الشريف الزيدى لم ينفق هذه الأموال على نفسه، أو على أهله، بل اشترى بها داراً بدرب دينار الصغير، ثم حول المبنى إلى مسجد، وأنفق ما تبقى من مبلغ الألفي دينار في شراء مجموعات من الكتب أوقفها على مكتبة تم إنشاؤها في المسجد نفسه. ويقال إن الشريف الزيدي، قبل وفاته عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، أوقف مجموعة كتبه الخاصة على المكتبة نفسها. وتفيدنا المصادر بتسلم المكتبة الزيدية للعديد من مجموعات الكتب على سبيل الإهداء أو الوقف، من أهمها تلك التي أهديت إليها من أبي الخير صبيح الحبشي، وأبي الخطاب العليمي عمربن محمد الدمشقي، والكاتب الشهير ياقوت الحموي. وقد ظلت هذه المكتبة تقدم خدماتها بشكل فعال حتى بداية القرن التاسع الهجري[١].

كما يرد في المصادر ذكر المكتبة الملحقة بمسجد موسى بن جعفر، التي يعزى إنشاؤها إلى الوزير العالم أبي المظفر الخطيب البغدادي المتوفى عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م. ويقال إن إجراءات الإعارة بهذه المكتبة كانت شديدة وذلك خوفاً على مقتنياتها من الضياع. وقد كان من ضمن مقتنياتها نسخة كاملة من القرآن الكريم، يقال إن الملك المعظم علي بن أحمد الناصر كتبها بخط يده . وتطالعنا المصادر أيضًا بوجود مكتبة ملحقة بمسجد حسين باشا، وإن كانت معظم مقتنياتها قد فقدت مع مرور الزمن. وبناءً على ما ذكره زيدان ، فإن

(١) كوركيس عواد، خزائن الكتب....، ص ص ١٥٤-١٥٧.

مجموعة الكتب التي تبقت في هذه المكتبة غير ذات قيمة، ولا يوجد فيها ما يستحق الاطلاع عليه(١). وتعد مكتبة جامع المستجد، الذي عرف أيضاً بجامع القمرية، من المكتبات المهمة التي كانت بمدينة بغداد. ويرجع تاريخ بناء المسجد إلى عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، إبان فترة حكم الخليفة العباسي المستنصر بالله. وقد ألحق بالمسجد خزانة كتب احتوت على العديد من مجموعات الكتب. وعلى الرغم من بقاء المسجد إلى وقتنا هذا، إلا أن معظم مجموعاته من الكتب الثمينة قد فقدت ولم يعد لها وجود، وذلك نتيجة لسوء الإشراف عليها، وإهمالها، بجانب السرقات التي أتت على أكثرها(٢).

أما مكتبة المدرسة المرجانية، التي أنشئت عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م، وكانت ملحقة بجامع مرجان، فيعزى إنشاؤها إلى مرجان، أحد موالي السلطان التتاري أويس ابن الشيخ حسن الإيلخاني. ويقال بأن هذه المكتبة، التي عرفت أيضاً باسم المكتبة النعمانية، تلقت معظم مجموعات كتبها الثمينة من العالم البغدادي نعمان خير الدين الألوسي. وبناء على ما ذكره الجبوري، فإن هذه المكتبة فقدت معظم ما كان فيها من كتب ومخطوطات نادرة(٣). كما يذكر - أيضاً - جامع القبلانية، الذي تولى بناءه والي بغداد العثماني، قبلان

(١) جرجي زيدان، ٤ : ١٣٠.

(٢) جرجي زيدان، ٤ : ١٣٠. أيضاً : كوركيس عواد، خزائن الكتب....، ص ١٦٢.

(٣) عبد الله الجبوري، مكتبة الأوقاف العامة.....، ص ص ٥١-٦٠. أيضاً : محمد أسعد طلس، الكشاف عن....، ص ص٥- ٦.

مصطفى باشا، وذلك خلال فترة حكمه من عام ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م وحتى عام ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م. وتشير الدلائل إلى وجود مكتبة بهذا المسجد كانت تحتوي على مجموعات كبيرة من الكتب، إلا أن معظمها فُقد أو تَلف مع مرور الزمن. ويقال بأنه كان لهذه المكتبة أمين يشرف على إدارتها، وذلك في أيام شهرتها ومجدها[١]. وقد ذكر عواد في كتاباته عن مجموعات المخطوطات في العراق، أنه كان يوجد أعداد كبيرة منها في جامعي السلطان علي، وعبدالقادرالكيلاني، وأن المكتبة القادرية الملحقة بالجامع الثاني، كانت تحتوي على أكثر من ست مئة مخطوط[٢].

أما باقي مكتبات المساجد في بغداد، فهي كثيرة، ويصعب حصرها، ويكفي أن نذكر منها مكتبات مساجد الكهيا، والرواس، والمصرف، والحيدرخانة، والأحسائي، والآصفية، والباجه جي، ونائلة خاتون، وملا محمد الجبوري، والجنيد البغدادي[٣]. كما يذكر في هذا الصدد بعض مكتبات المساجد الأخرى التي وجدت بمدينة بغداد، ومن ذلك خزانة الكتب الملحقة بجامع الخلاني ومكتبة أهل البيت العامة بمسجد التميمي. وكلاهما من المكتبات الحديثة نسبياً، ويوجد بهما مجموعات كبيرة من الكتب والمخطوطات

(١) عبد الله الجبوري، مكتبة الأوقاف العامة.....، ص ص ٩٠-٩١.

(٢) كوركيس عواد، تطور فهرسة....، ص ١٢٧. أيضاً: إبراهيم الدروبي، ص ص ١٨٩-١٩١.
أيضاً: عماد عبد السلام رؤوف، ص ص ٦١ - ٧١.

(٣) عبد الله الجبوري، مكتبة الأوقاف العامة.....، ص ص ٦٠-١٠٣.

القيمة[1]. والحقيقة أن ما ذكر في هذه العجالة ما هو إلاّ غيض من فيض. فقد وجدت مكتبات المساجد في كافة الأمصار والبلدان الإسلامية، كما كان لها دور تعليمي وتثقيفي لا يستهان به. ولعلنا نختتم هذا الفصل الطويل بأبيات من قصيدة للحاج علي علاء الدين الألوسي يصف فيها مكتبة جامع الحيدرخانة ببغداد :

يا حبذا مكتبة قد جمعت العلم فيها كتب لطائفُ
يعم أرباب العلوم نفعها فكل طالب عليها عاكف
كأنها للطالبين مورد فكل راو من نداها غارف
أنعم بها من نعمة قد عرفت للطف والينا بها عوارف[2]

(١) صالح الحيدري، ص ص ٢٨-٢٩. أيضاً : محمد الحيدري، ص ص ٣٨-٣٩. أيضاً : ناجي جواد المحامي، ص ص ٥٧-٥٨.

(٢) عبد الله الجبوري، مكتبة الأوقاف العامة....، ص ٧٦.

الفصل الخامس
معالم مكتبات المساجد وأنشطتها

مواقع مكتبات المساجد :

عندما يقال إن عالماً أو طالب علم استعار بعض الكتب من مكتبة هذا المسجد أو ذاك، فليس من الضروري أن يفهم من ذلك أن تلك الكتب كانت مرففة أو موضوعة في نفس المكان الذي تقام فيه الصلاة. فالغالبية العظمى من المساجد كان يوجد بها حجرات أو قاعات، أو أبنية ملحقة أو متاخمة لمبنى المسجد نفسه، روعي عند تصميمها أن تخدم أغراض المكتبة ووظائفها. وبصرف النظر عن الموقع، فإن هذه المكتبات كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمساجد التي ألحقت بها، وبالتالي اكتسبت خاصتي العمومية والانفتاح، كما هو حال المساجد ذاتها.

وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن هناك مكان ثابت أو مفضل لإقامة تلك المكتبات. ولكن ، وفي ظل المعلومات القليلة التي وصلت إلينا، يبدو أن هناك أنماطاً عامة كانت سائدة. فمثلاً، لم تنشأ كل المكتبات داخل حرم المساجد التي وجدت بها، فقد أشارت بعض المصادر إلى أن المكتبة العبدلية قد أقيمت في بادئ أمرها بمبنى منفصل متاخم لجامع الزيتونة. غير أنه بحكم الدور التعليمي الكبير الذي كان يضطلع به هذا الجامع الأمر الذي ترتب عليه استخدام مصادر هذه المكتبة بشكل متزايد، الأمر الذي ترتب عليه أيضاً نقلها إلى داخله فيما بعد(١).

(١) محمد عبد القادر أحمد، " المكتبة التونسية... "، ص١٨٥.

وقد كانت هناك مكتبات أخرى مشابهة لهذا النمط، مثل مكتبة جامع الغوري بالقاهرة، التي خصص لها مكان بجانب قبر مؤسسها، في مبنى مجاور على يسار الجامع(١). كما سبقت الإشارة إلى أن كلاً من مكتبة الشرابية ومكتبة قايتباي قد أنشئتا خارج باب السلام، أحد الأبواب الرئيسية للمسجد الحرام في مكة المكرمه(٢). وينسحب هذا الأمر أيضاً على المكتبة المحمودية والمكتبة الحميدية ومكتبة بشير أغا، اللاتي أقمن في أماكن قريبة جدًّا من المسجد النبوي في المدينة المنورة لدرجة اعتبرهن المسلمون جزءاً لا يتجزأ من ذلك المسجد(٣).

وفي الوقت الذي أنشئت فيه مكتبات قليلة خارج الجوامع، فقد وجدت الغالبية العظمى داخل المساجد. وعلى الرغم من أن موقع هذه المكتبات يختلف من مسجد إلى آخر، إلاّ أنه كانت هناك - أيضاً - بعض الأنماط الشائعة. فقد فضل البعض أن تكون المكتبات بالقرب من المنبر والمحراب، حيث يلقي الإمام خطبة الجمعة ويؤم المصلين. ويبرر إبراهيم وجود المكتبة في هذا المكان بأن المساحة الكبيرة التي تحيط بالمنبر والمحراب كانت تتيح فرصة أكبر للمكتبات لكي تتوسع عندما يودع فيها مجموعات جديدة يضاف إلى ذلك، أن الموقع ساعد على رؤية خزائن الكتب، وبالتالي زيارتها والاستفادة مما فيها(٤).

---

(١) William M.Randa111, P.228.

(٢) ناجي معروف، المدارس الشرابية....، ص ٣١٩، ٣٢٧.

(٣) إبراهيم رفعت، ١ : ٤٢٣.

(٤) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الأول، ص ص٤٠-٤٢.

وهناك أمثلة عديدة لهذا النمط من المكتبات. ففي معرض حديثة عن المكتبة العتيقة في مسجد القيروان، يروي بيرم بأن مجموعات هذه المكتبة كانت موضوعة في مقصورة بجوار المنبر. وأضاف ـ أيضاً ـ أن هذه المكتبة كانت متصلة بمدخل يؤدي إلى حجرة كانت مخصصة لاستراحة السلطان المعز بن باديس(١). كما نقرأ أن الكتب الكثيرة التي أهداها الأمير العثماني أحمد باشا الأول إلى المكتبة الحفصية، أو المكتبة الأحمدية، بجامع الزيتونة، وضعت في عشرين دولاباً على يمين المحراب ويساره(٢). وتعد المكتبة المنصورية في جامع القرويين بفاس، التي أنشئت حوالي عام ٩٩٦ / ١٥٨٧م، ثالث مثال على ذلك. فقد وجدت هذه المكتبة في مقصورة كبيرة ذات قبة مزخرفة بقرب المحراب. وكان لهذه المقصورة مدخلان، أحدهما يفتح على حجرة الخطيب، والثاني يفتح على قاعة خصصت للقراء(٣). وتشير المصادر أيضاً إلى أن مكتبة بيت الخطابة كانت بالقرب من منبر الجامع الأموي ومحرابه(٤).

وفي مساجد كثيرة أخرى كانت المكتبات تتخذ من الرواق الأوسط، أو ما يعرف بصحن المسجد، مقرّاً لها. ويبدو أن وجودها في هذا المكان كان ذا هدفين، فهو يتيح لعامة المصلين رؤيتها وبالتالي استخدامها، كما كان وسيلة

(١) محمد بيرم، ص ٢٤٣.

(٢) عبد الحفيظ منصور، ص ٦.

(٣) العابد الفاسي، " خزانة القرويين..."، ص ص ٥-٦.

(٤) أسماء الحمصي، ص ٣٩. أيضاً: صلاح الدين المنجد، مسجد دمشق...، ص ٢٦.

حماية من الحرائق التي كثيراً ما كانت تلتهم محتويات ما يحيط بالصحن. على أنه، ولسوء الحظ، لم يكن صحن المسجد آمناً دائماً. فالمكتبات التي اتخذت من هذا المكان مقرّاً لها، كان عليها أن تواجه مخاطر الفيضانات والسيول المدمرة. وقد سبق أن ذكرنا بأن المكتبة المجيدية، التي كانت بالمسجد الحرام في مكة المكرمة، ذاقت الأمرين من مثل هذه الأحداث المفجعة. وعلى الرغم من ذلك، فقد استمر إنشاء كثير من المكتبات في هذا المكان. ففي معرض حديثه عن المكتبة الحيدرية التي عرفت أيضاً باسم مكتبة الصحن الشريف، أشار عواد إلى أن هذه المكتبة شيدت في صحن الجامع الكبير - أو جامع الإمام علي - بمدينة النجف[١]. كما أشارت مصادر أخرى إلى أن مكتبة قبة بيت المال قد أنشئت في صحن المسجد الأموي في دمشق[٢].

وكان هناك نمط آخر لإقامة المكتبات في المساجد، وذلك بإنشائها بالجناح الشرقي أو بالناحية الشرقية من المسجد. وتعد المكتبة الصوفية في الجامع الكبير بمدينة حلب خير مثال على هذا الاتجاه. وبسبب موقعها هذا، فقد عرفت هذه المكتبة بالخزانة الشرقية[٣]. وهناك مثال آخر، وهو تلك المكتبة العلمية التي أنشأها السلطان المريني المتوكل أبو عنان في جامع القرويين. فتلك المكتبة - التي افتتحت عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م - كانت تقع في الجزء الشرقي من صحن ذلك

(١) كوركيس عواد، خزائن الكتب...، ص ١٣١.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦: ١٩٩.

(٣) المصدر السابق، ٦: ١٩١.

المسجد العريق[١]، كما تشير مصادر أخرى إلى أنه عندما نقلت المكتبة العبدلية إلى داخل جامع الزيتونة، وجه الأمير محمد بن مسعود، المتوفى عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م بوضعها في الرواق الشرقي من المسجد[٢]. ويروى - أيضاً - بأن المكتبة المتوكلية شيدت في الركن الجنوبي الشرقي من جامع صنعاء الكبير[٣].

كما عرف المسلمون نمطاً آخر، وهو إنشاء المكتبات بالقرب من أو فوق أبواب ومداخل المساجد. ويبدو أن السبب الرئيسي لوجود المكتبات في هذه الأماكن هو تيسير الوصول إليها، ومن ثم سهولة استخدام عامة المسلمين لمصادرها. ومن الأمثلة على ذلك المكتبة السمياطية، التي خصص لها قاعة كبيرة بالقرب من باب العمارة، الباب الرئيسي الشمالي للجامع الأموي[٤]. كما أن مكتبة مسجد ابن العباس في مدينة الطائف وجدت في غرفة ذات قبة على يسار الداخل إلى المسجد من بوابته الرئيسية المسماة بالباب العمومي[٥]. وتعد المكتبة المركزية التي أنشئت بالجامع الأزهر عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٧م مثالاً آخر على هذا النمط. فقد ورد أنه عندما تقرر بناء هذه المكتبة، رئي أن تكون في الأجزاء الخالية من المدرستين المملوكيتين المسماتين بالآقبغاوية والطيبرسية،

(١) العابد الفاسي، خزانة القرويين...، ص ٥.

(٢) صلاح الدين المنجد، بعثة معهد...، ص ٣٩١.

(٣) إسماعيل الأكوع وغيره، ص ٦٣٧.

(٤) أسماء الحمصي، ص ٣٨.

(٥) عبد الله عبد الجبار، ص ٥٧.

وهاتان المدرستان كانتا مقابلتين للبوابة الغربية للمسجد والمعروفة باسم باب عبدالرحمن كتخدا[١].

وكما ذكرنا، فقد شيدت بعض المكتبات فوق المداخل الرئيسية أو بالطابق الثاني بحيث تكون مطلة على صحن المسجد. ومن أمثلة ذلك المكتبة المجيدية التي كانت في أول أمرها بصحن الحرم المكي، ثم نقلت فيما بعد، بسبب فيضانات عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م، إلى قاعة فوق باب دريبة[٢]. كما يروى أن المكتبة النصرية في المسجد الأقصى، والتي تعرف كذلك بالمكتبة الغزالية احتلت هي والمدرسة ذات الاسم نفسه قاعتين فوق باب الرحمة[٣]. وهناك مكتبتان أخريان مشابهتان لهاتين المكتبتين. الأولى هي مكتبة الجامع الأحمدي في مدينة طنطا بدلتا النيل، والتي يقال إنها كانت تشغل غرفتين بالطابق الثاني، بجانب الغرف المخصصة لإدارة المسجد[٤]. أما الثانية فهي المكتبة الملحقة بمسجد محب الدين الواقف بالقاهرة. ويذكر إبراهيم أن هذه المكتبة كانت تشغل قاعة علوية تطل على موضأة المسجد[٥].

---

(١) محمد عبد الله عنان، ص ٢٩٩.

(٢) عبد الله عبد الجبار، ص ٥٩.

(٣) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦: ١١٩.

(٤) علي سامي النشار وغيره،ص١.

(٥) عبد اللطيف إبراهيم، " مكتبة عربية... "، ص ص ٦٣ - ٦٤.

تسمية مكتبات المساجد:

إذا أمعن أحدنا النظر في الأسماء التي عرفت بها مكتبات المساجد، لتبين له أن معظم هذه المكتبات كانت تسمى بأسماء المساجد التي ألحقت بها. وعلى الرغم من أن المسلمين كانوا يعدّون هذه المكتبات مأوى آمناً لحفظ كتبهم القيمة ومخطوطاتهم النادرة، إلا أنهم أحجموا – عن قصد أو غير قصد – عن تسمية هذه المكتبات سواء في الأندلس وشمال أفريقيا، أو في المشرق العربي.

وفي حالات قليلة، كان بعض هذه المكتبات يسمى بأسماء مؤسسيها، أو بأسماء من أسهموا إسهاماً كبيراً في إثراء مجموعات، قاموا برعايتها وإدارة شئونها. وتعد مكتبة أبي عنان و مكتبة أبي يوسف، والمكتبة المنصورية بجامع القرويين، خير مثال على ذلك. هذا فضلاً عن بعض المكتبات الأخرى مثل المكتبة الأحمدية والمكتبة العبدلية بجامع الزيتونة. وقد وجد في بلاد الشام مكتبات من هذا النوع، مثل المكتبة النصرية، والمكتبة الفارسية، والمكتبة الأشرفية بالمسجد الأقصى. كما يشار في هذا السبيل إلى المكتبة الفاضلية ومكتبة ابن عروة بالجامع الأموي، وهناك المكتبة المتوكلية بالجامع الكبير في صنعاء، والشرابية والشرواني في المسجد الحرام بمكة، ومكتبة بشير أغا والمحمودية والحميدية بالمسجد النبوي في المدينة المنورة. ومن المكتبات العراقية مكتبة المنازي في آمد وميافارقين ومكتبتا الزيدي والنعمانية في بغداد.

على أنه وجد بعض المكتبات ـ ولو أنها قليلة ـ عرفت بأسماء غير أسماء

المساجد الملحقة بها أو أسماء مؤسسيها. ومن أمثلة ذلك المكتبة العتيقة في جامع القيروان، والمكتبة الصوفية أو الشرقية في الجامع الكبير بمدينة حلب، ومكتبات بيت الخطابة وقبة المال في الجامع الأموي بدمشق. كما نرى ذلك أيضاً في المكتبة السليمانية بالحرم المكي، والمكتبة العلمية الصالحية في مسجد أم خمار بمدينة عنيزة، ومكتبة الكاف بالجامع الكبير بمدينة تريم باليمن، والحيدرية في جامع الإمام علي بالنجف، والتي كانت تعرف كذلك بالمكتبة الفروية أو مكتبة الصحن الشريف.

بناء مجموعات مكتبات المساجد:

من المهم الإشارة في البداية إلى أن تاريخ إنشاء العديد من مكتبات المساجد لم يتزامن بالضرورة مع تاريخ إنشاء المساجد التي وجدت بها. فهناك حالات تؤكد أن إقامة بعض المكتبات وتكوين مجموعاتها جاء متأخراً عشرات السنين، وأحياناً مئات السنين، عن تاريخ إنشاء المساجد التي ألحقت بها. وفي الوقت نفسه، هناك أمثلة عديدة على إنشاء مكتبات وإيداع مجموعات كبيرة من المصاحف والكتب فيها، وذلك حال الانتهاء من بناء المسجد. وقد تجلت هذه الظاهرة بشكل واضح عند بناء الجوامع والمساجد الكبيرة، حيث كان لها تقدير ومكانة خاصة لدى عامة الناس.

وينبغي أن نؤكد أيضاً بأن أغلب مكتبات المساجد قد أنشئت من قبل أفراد لهم اهتمامات وخلفيات اجتماعية واقتصادية متفاوتة. وكما هو متوقع، فقد كان للحكام والأمراء ورجال الدين فضل السبق إلى ذلك. ولا شك أن الارتباط

الوثيق بين الإسلام والحث على اكتساب العلم، كان عاملاً مهمّاً وراء دفع الحكام المسلمين إلى إيداع مجموعات المصاحف والكتب في أماكن عبادتهم، وخاصة في المساجد الجامعة. وقد يعزي البعض هذا إلى رغبة الحاكم بكسب رضى الرعية وحبها ولكن من الصعب أن ننكر أن لهذا النشاط أيضاً بعداً دينيّاً واجتماعيًّا وسياسيّاً وعلى الرغم من ذلك، فإنه لا يجوز أن نهضم حق الكثير من حكام المسلمين الذين دفعهم إخلاصهم وحرصهم على مقدرات بلادهم إلى إنشاء هذه المكتبات، وذلك بهدف تشجيع مواطنيهم على التعلم والتثقف وتحصيل المعرفة.

ولم يكن هؤلاء الحكام هم وحدهم الذين سعوا إلى إنشاء هذا النوع من المكتبات، بل حرص على ذلك كثير من الأثرياء وعلية القوم. كما حرص عليه العلماء والمفكرون، حتى تسابق البعض منهم إلى وقف كتبه أو إهدائها، وبشكل خاص إلى حلقات العلم التي كانوا يقومون بالتدريس فيها. وقد أشار أحد الباحثين في سياق حديثه عن تاريخ التعليم الإسلامي إلى ذلك بقوله: «كان طلاب العلم والمعرفة يترددون على حلقات العلماء، التي كانت تقام بالمساجد، ويغلب عليها طابع النقاش والمصارحة. وقد أفاد هؤلاء الدارسون وغيرهم من تلك المجموعات القيمة والمتنامية التي كان يوقفها أو يهبها الأمراء والأثرياء لهذه الحلقات»(١). وعلى أي حال، لم تكن عملية إنشاء مكتبات المساجد إلا الخطوة الأولى لتأكيد وجودها، أما الدعم المستمر والكريم لها من

(١) A.L.Tibawi, Islamic Education..., P.27.

قبل المسلمين ـ حكاماً وعامة ـ فكان له الدور الأكبر في بقائها وازدهارها ونموها.

وقد أخذت عملية تزويد هذه المكتبات بالكتب أكثر من أسلوب، حيث، كان ذلك يتم إما عن طريق تزويدها بعمل نسخ عن المخطوطات المتوافرة أو عن طريق شراء مخطوطات جديدة. إلا أن مجموعات الغالبية العظمى من هذه المكتبات نمت وازدهرت عن طريق الهدايا والوصايا والهبات والأوقاف. وتعدّ الوسيلة الأخيرة العامل الرئيسي وراء إثراء العديد من مكتبات المساجد، وبشكل لم يسبق له نظير.

وقد ظل نسخ المخطوطات، ولعدة قرون، هو الطريقة المثلى لإخراج كتب جديدة أو عمل نسخ إضافية من مخطوطات سابقة. وكان هذا الأسلوب معمولاً به من قبل الأفراد الأثرياء كما كان معمولاً به من قبل المؤسسات الاجتماعية ومنها بعض المكتبات التي خصصت بها أماكن لهذا الغرض، مثل بيت الحكمة في بغداد، ودار الحكمة في القاهرة، ومكتبة الزهراء في قرطبة، وغيرهم. ويقول حمادة في سياق حديثه عن هذا الموضوع: «والواقع أن أغلب المكتبات كان لديها نساخ يتناوبون العمل فيها. فقد ذكرنا سابقاً أن مكتبة بني عمار في طرابلس كان بها مئة وثمانون ناسخاً يتناوبون العمل فيها ليل نهار، وكذلك الحال مع أغلب المؤسسات. حتى أنه وجد بعض الأفراد عندهم نساخ ينسخون لهم الكتب لحسابهم الخاص ويدفعون لهم أجورهم من مالهم الخاص كالواقدي والقاضي أبي المطرف وغيرهما»[1].

وعلى الرغم من الترحيب الذي قوبل به هذا الأسلوب في تزويد المكتبات

---

(١) محمد ماهر حمادة، ص ١٧٥.

بالكتب إلا أنه - وحسبما يبدو - لم يكن له وجود في المساجد ومكتباتها. ولم يصادف هذا الباحث أي ذكر لموظف يعمل في مسجد أو في مكتبة مسجد، كناسخ، كان من واجباته الأساسية نسخ المخطوطات بهدف إثراء أو تنمية مجموعات ذلك المسجد أو مكتبته. ولكن هذا لا يعني - بالطبع - أن الكتب لم تكن تدون في المساجد، بل على العكس من ذلك، كانت المساجد، وخاصة الكبيرة منها، ملاذاً يأوي إليه العلماء لفترات طويلة أو قصيرة للدراسة والتعليم والكتابة.

ويروى في هذا الصدد أن العالمين الشهيرين الغزالي والبغدادي عاشا لفترة من الزمن في إحدى مآذن المسجد الأموي بدمشق[١]، ويبدو أن الغزالي قد أعجبته هذه التجربة لدرجة أنه عندما انتقل إلى القدس عزل نفسه في المدرسة النصرية التي تقع فوق باب الرحمة، أحد الأبواب الرئيسية للمسجد الأقصى، وظل هناك حتى أتم كتابه الشهير «إحياء علوم الدين»[٢]. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء العلماء، وعدداً لا يحصى غيرهم، لم تقتصر جهودهم فقط على التأليف، بل قاموا كذلك باستنساخ أعمال أخرى لعلماء سبقوهم. ومن أمثلة ذلك عالم الفيزياء والرياضيات ابن الهيثم الذي كان لكتاباته عن الضوء والعدسات أثراً واضحاً في أعمال كيبلر وديكارت. ويقال بأن هذا العالم أقام

---

(١) Johs pedersen, P. 528.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ص ٦ : ١١٩.

لفترة في حجرة فوق أحد المداخل الرئيسية للجامع الأزهر، كما درج على استنساخ المخطوطات العلمية وبيعها كوسيلة لكسب الرزق أثناء إقامته بالقاهرة[(١)].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف وجدت هذه المخطوطات المنسوخة وما شابهها طريقها إلى مكتبات المساجد، وكم كانت أعدادها ؟ بالطبع ليست هناك إجابة محددة عن هذا السؤال، وحسبنا أن نخمن بأن هؤلاء العلماء الذين أقاموا في تلك المساجد، قد أهدوا بعضاً من أعمالهم، التي ألفوها أو استنسخوها، إلى مكتبات هذه المساجد، وذلك رداً للمعروف ونظير ما كانوا ينعمون به من وسائل راحة وإقامة مجانية، وتوفير أدوات الكتابة كالورق والحبر والأقلام.

وعلى الرغم من أن تفسيرنا السابق ما هو إلا مجرد تخمين، فإن الذي لا شك فيه أن مكتبات المساجد، وخاصة ما كان منها ملحق بالجوامع، كانت تزود بنسخ من أعمال العلماء الذين كانوا يتولون التدريس في حلقات العلم بها. وخير شاهد على ذلك، الجامع الأزهر الذي كان التدريس فيه - كما في غيره من المساجد الكبرى - يعتمد أساساً على طريقة الإملاء، حيث أسهمت هذه الطريقة في تزويد مكتبته بأعداد كبيرة من المؤلفات القيمة. ويحدثنا أحد المصادر بأن مجموعة المخطوطات في الأزهر بلغت حوالي أربعة وعشرين ألف

(١) محمد ماهر حمادة، ص ١٧٦.

مخطوط بحلول عام ١٩٤٣م، وأن الكثير من هذه المخطوطات نتج عن الطريقة التي اتبعها العلماء في تدريسهم، حيث كان المعلم يستظهر محاضرته أو يمليها على طلابه، ثم يقوم الطلاب بتدوين هذه المحاضرة. وفي معظم الأحيان كان المعلم أو أحد تلاميذه يقوم بجمع هذه المحاضرات ثم يصححها وينقحها مكوناً منها نسخة كاملة تعد مرجعاً أصليّاً بعد ذلك. مثل هذه الكتب تودع في مكتبة الجامع الأزهر وفي أروقته لكي يستخدمها الطلاب والعلماء على حد سواء، فلا عجب إذاً أن يحتوي الجامع الأزهر على مجموعة كبيرة وقيمة من المخطوطات[١].

وبالإضافة إلى النَّسْخ، كان الشراء سبيلاً آخر لبناء وتنمية مجموعات مكتبات المساجد وتنميتها، وعلى الرغم من أن هذه الطريقة لم تكن بفاعلية أو سعة انتشار النسخ، إلا أنها أتاحت للعديد من مكتبات المساجد اقتناء مجموعات طيبة من الكتب ما كان يمكن الحصول عليها بأي وسيلة أخرى. وجدير بالإشارة إلى أن هذه الكتب التي كانت تقتنى عن طريق الشراء - باستثناء حالات قليلة - كانت، في الغالب الأعم، بمبادرة من الحكام والولاة والوجهاء، أي أنه لم يكن لأمناء المكتبات دور كبير في اختيار تلك الكتب أو الموضوعات التي تناولتها.

ومن الملاحظ أن عملية شراء الكتب لمكتبات المساجد موثقة بشكل جيد

(١) عبد الحميد يونس وغيره، ص ص ١٤٠ - ١٤١.

في مصادر الإنتاج الفكري. ويروي عش - على سبيل المثال - أن الأشرف أبو العباس سبط ابن الصفاح عندما بنى مسجده ومدرسته في حلب، ألحق بهما مكتبة زودها بعدد كبير من الكتب النفيسة التي اشتراها لهذا الغرض(١). كما أن الشريف الزيدي، إثر تلقيه ألفي دينار هدية من الخليفة المستضيئ بالله ووزيره عضد الدين محمد ابن رئيس الرؤساء، قام بشراء مبنى حوله إلى مسجد وأنفق عليه ما تبقى من المبلغ في شراء مجموعات من الكتب أوقفها على مكتبة تم إنشاؤها في المسجد نفسه(٢). وهناك مكتبات أخرى تم تزويدها بمجموعات كبيرة من الكتب عن طريق الشراء. فها هي المكتبة الأحمدية في جامع الزيتونة التي أثراها الوالي العثماني أحمد باشا الأول بما اشتراه لها من خزائن الكتب الخاصة، والتي تم إيداعها في احتفال مهيب أقيم لهذا الغرض عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م(٣). وكذا مكتبة مسجد المؤيد شيخ بمدينة القاهرة، التي يقال بأن ناصر الدين محمد البارزي - كاتب سر السلطان المؤيد - قام بإهدائها مجموعة قيمة من الكتب كلف شراؤها ألف دينار(٤).

ويروى كذلك أن الأمير محمد بك أبا الذهب، المتوفى عام (١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م)، اشترى لمكتبة مسجده بالقاهرة العديد من مجموعات

---

(١) Yousef Eche, P.247.

(٢) كوركيس عواد، خزائن الكتب...، ص ص ١٥٤-١٥٥.

(٣) عبد الحفيظ منصور، ص ص ٥-٦.

(٤) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الأول، ص ص ٢٨-٢٩.

الكتب، ومن ذلك خزانة خطيب المسجد، الشيخ أحمد بن محمد الرشيدي. وقد كان الأمير يفتخر بمكتبته هذه لدرجة أنه دفع مئة ألف درهم فضي ثمن مخطوطة نادرة اشتراها من مرتضى الزبيدي(١). وفي معرض حديثه عن بعض مكتبات المساجد في بغداد، يروي عبد الله الجبوري أن نائلة خاتون وهي أرملة ثرية من أصل تركي أسست مسجداً إحياءً لذكرى زوجها الراحل - مراد أفندي - وألحقت بهذا المسجد مدرسة ومكتبة اشترت لها كتباً ومخطوطات نفيسة(٢).

وكما ذكرنا سابقاً، كان شراء الكتب لمكتبات المساجد يقوم به في الغالب أشخاص ليسوا بمكتبيين. وتشير الأدلة إلى أن أمناء هذه المكتبات لم يطوروا وسيلة منظمة لاختيار وانتقاء الكتب، أو حتى التأثير في مجريات هذه العملية. وحتى عندما كان يتم تعيين أمين مكتبة بسبب مكانته العلمية أو الاجتماعية، فقد ظل أغلب هؤلاء الأمناء صامتين فيما يتعلق بموضوع اختيار الكتب. ولم يكن هناك استثناء من هذا الوضع إلا عندما كان أحد الأثرياء يوقف مالاً أو عقاراً على المكتبة، أو يوصي باستخدام مبلغ محدد في شراء كتب أو مجموعة معينة. وحتى هذه الحالات كانت قليلة جداً. كما أنه ليس هناك أية أدلة على أن أمناء مكتبات المساجد كانوا يستثمرون هذه الأموال وغيرها في شراء كتب كانوا هم أنفسهم يرون ضرورة اقتنائها لمكتباتهم.

(١) حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد...، ١: ٣٥٢.

(٢) عبد الله الجبوري، مكتبة الأوقاف العامة...، ص ٨٩.

بالإضافة إلى النسخ والشراء كمصدرين من مصادر بناء مجموعات مكتبات المساجد، كان هناك مصدر ثالث هو الهدايا، وقد كانت هذه الهدايا تمنح كهبات غير مشروطة، أو على هيئة وقف أو إرث أو وصية، تصحبها وثيقة بذلك، كما هو الحال بوثائق الوصايا والأوقاف. وقد كان إهداء الكتب من أهم وسائل إثراء مجموعات مكتبات المساجد. ويزخر الإنتاج الفكري بأمثلة كثيرة لهذا النمط من الكرم، لاسيما من قبل الملوك والسلاطين والأمراء ونوابهم، الذين تنافسوا في التبرع بالكتب لتلك المكتبات. ففي كتابه «زهرة الآس في بناء مدينة فاس»، يروي أبو الحسن الجزنائي أن الملك الأديب أحمد المنصور السعدي، الملقب بالذهبي، أوقف الكثير من مجموعات الكتب على المكتبة المنصورية التي أنشأها بجامع القرويين، وأن بعضها كان من غرائب الكتب ما لم يسمع بمثله قط[١]. وتذكر المصادر أيضاً هدايا الكتب التي قدمها ملوك بني وطاس وبني مرين، وخاصة السلطان أبا عنان، إلى جامع القرويين. كما يروى أن السلطان العلوي، محمد بن عبد الله، ومن بعده ولده وخليفته محمد المهدي، قاما بإهداء كتب قيمة للجامع نفسه[٢]، ويذكر كنون في سياق حديثه عن مخطوطات مدينة تطوان، أن نفس السلطان محمد بن عبدالله أوقف كتباً على مكتبة الجامع الكبير بتلك المدينة. كما أشار إلى أن من بين تلك الكتب كانت المجلدات العديدة التي قام بتأليفها العالم المالكي أبو

(١) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في....، ص ص ٢١٤-٢١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ص ٢٣٥-٢٣٦، ٢٤٧.

علي ابن رحال شرحاً على كتاب مختصر الشيخ خليل[١]. كما يروي شبوح، في معرض حديثه عن جامع القيروان في تونس، أن العديد من حكام الأسرة الصنهاجية أهدوا هذا الجامع مجموعات قيمة من الكتب والمصاحف[٢]. ويذكر أيضاً في هذا السبيل، السلطان المملوكي الأشرف قايتباي الذي حكم مصر خلال الفترة ٨٧٢هـ/١٤٦٨م وحتى عام ٩٠١هـ / ١٤٩٦م. وقد قام هذا السلطان العالم الأريحي بإثراء مكتبات عديدة في مصر، بالإضافة إلى المكتبات التي أسسها بجوار الحرمين المكي والمدني، وأرسل إليها الكثير من هدايا الكتب[٣].

ونقرأ أيضاً أن مكتبة المدرسة الشرابية بقرب المسجد الحرام تلقت العديد من هدايا الكتب، كان من أكثرها قيمة وقفية الكتب التي أوقفها عليها مؤسسها الأمير العباسي شرف الدين الشرابي عام ٦٤١م / ١٢٤٣هـ[٤]. كما يروي طلس - نقلاً عن كتاب «تاريخ الإسلام»، لمحمد بن أحمد الذهبي - أن سيف الدولة ابن حمدان أوقف عشرة آلاف مجلد على الجامع الكبير في حلب. وقد حفظت هذه المجموعة في المكتبة الصوفية أو الشرقية التي أشرنا إليها من قبل[٥]. كما تشير مصادر أخرى إلى أن المكتبة الحيدرية، في الجامع

(١) عبد الله كنون، ص ١٧٣.

(٢) إبراهيم شبوح، ص ٣٤٠.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في ....، البحث الأول، ص ص ٣١-٣٢.

(٤) ناجي معروف، المدارس الشرابية...، ص ٣٢٧.

(٥) محمد أسعد طلس، " المخطوطات وخزائنها....، ص ص ١٢-١٣.

الكبير بمدينة النجف تدين بكثير من مخطوطاتها القيمة لسخاء وكرم سلاطين العراق وأمرائها ووزرائها وعلمائها وأثريائها. ولعل السلطان البويهي عضد الدولة، المتوفى ٣٧٢م / ٩٨٢هـ، كان من أكثر هؤلاء كرماً وسخاءً[١].

وإدراكاً منهم بقيمة مكتبات مساجدهم، حرص الكثير من علماء المسلمين ومثقفيهم - سواء كانوا أثرياء أو غير ذلك - على التبرع بالكتب لتلك المكتبات. والأمثلة على هذا كثيرة، ومن ذلك ما يرويه الفاسي من أن أبا العباس الوطاسي قد أوقف نسخة من كتاب «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني على جامع القرويين في عام ٩٣٩هـ / ١٥٣٢م. ويذكر الكاتب نفسه بأن أبا عبدالله محمد العجماوي أوقف أحد مؤلفاته الضخمة على طلاب العلم بالجامع ذاته[٢]، كما تشير مصادر أخرى إلى أن أبا صالح الخير ابن ياسين الرجراجي، المؤذن بجامع القيروان ترك ثمانية مجلدات وصية لطلبة العلم الذين كانوا يرتادون حلقات الدرس في هذا المسجد العريق. ويذكر شبوح أن المجموعة التي أوصى بها العالم الزاهد أبو عثمان سعيد الحداد، الذي عاش أثناء فترة حكم الأغالبة في تونس، تعد من أهم وصايا الكتب التي تلقاها جامع القيروان[٣]. كما تلقى هذا الجامع هدية سخية من الكتب من العالم الورع أبي بكر عتيق السوسي. وتشير المصادر إلى أن هذه الكتب كانت في الأساس هدية

---

(١) كوركيس عواد، خزائن الكتب...، ص ١٣١.

(٢) العابد الفاسي، خزانة القرويين...، ص ص ٩-١١.

(٣) إبراهيم شبوح، ص ٣٤، ص ٣٦٣.

من السلطان الصنهاجي المعز بن باديس قدمها لأبي بكر السوسي تقديراً لعلمه وصلاحه، إلا أن ذلك العالم الفاضل رأى أن الفائدة منها ستكون أكبر وأعم فيما لو أودعت خزائن كتب جامع القيروان، وهذا ما حصل فعلاً(١).

ولم تنقطع روح الكرم والسخاء بالكتب، كما تكررت المرة تلو المرة وعلى امتداد العالم الإسلامي. ففي اليمن أوقف قاسم بن حسين أبو طالب كتبه وكتب عائلته على مكتبة مسجد الروضة في مدينة صنعاء(٢). كما تلقى الجامع الأموي هبات عديدة من الكتب، تراوحت أعدادها ما بين بضع إلى عدة مئات من المجلدات. وقد قدم هذه الهبات الكثير من علماء دمشق، ومن هؤلاء أحمد بن علي بن الفرات وعلي بن طاهر السلمي، وعبد الله بن عبدالكريم ابن الطويل، وتاج الدين الكندي ابن الحسن، ومحمد بن عمر الشافعي، والصاحب بهاء الدين علي بن محمد، والحسن بن محمد الطحان، وغيرهم(٣). وفي بغداد، تلقى المسجد الزيدي هدايا كثيرة من الكتب من الثري أبى الخير صبيح الحبشي، وأيضاً من التاجر الرحالة أبي الخطاب العليمي عمر بن محمد الدمشقي، وكذلك من الكاتب والجغرافي الشهير ياقوت الحموي. وفي بغداد أيضاً، تلقى مسجد أبي حنيفة هبات عديدة من مجموعات الكتب القيمة التي كانت أصلاً مكتبات خاصة. وتشير المصادر إلى

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب، " العناية بالكتب... "، ص ٨٧.

(٢) فؤاد سيد، مخطوطات اليمن، ص ٢١١.

(٣) Yoossef Eche, PP.202-208.

أن مكتبة هذا المسجد احتوت على كتب كان يملكها علماء بارزون مثل الجاحظ، والطيب يحيى ابن جزلة، والزمخشري، وغيرهم(١).

وتشير المصادر إلى أن مكتبة جامع الأحسائي كانت تضم مجموعة الكتب الخاصة بإبراهيم فصيح الحيدري، وهو عالم عراقي شهير توفي عام ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م. كما يذكر في هذا الصدد، الخزانة النعمانية بجامع المرجان - أيضاً في بغداد - التي يقال بأنها تلقت مجموعات من هدايا الكتب، كان أهمها ما أودعه فيها العالم البغدادي نعمان خير الدين الألوسي(٢)، وفي سياق حديثه عن مكتبة مسجد أبي العباس المرسي بالإسكندرية، يذكر زيدان أن هذه المكتبة تلقت الكثير من هدايا الكتب، ليس فقط من مؤسسها، عبدالفتاح البنا وعلي ستا، وإنما أيضاً من عدد من وجهاء المدينة، مثل محمد أفندي توفيق، وورثة محسن ومصطفى المنزلاوي، ومصطفى باشا خليل، وغيرهم(٣). وتشير مصادر أخرى إلى أن المكتبة الأحمدية في طنطا أهديت إليها المكتبات الخاصة العائدة لكل من خليل أغا لالا، والشيخ محمد الجندي وغيرهما(٤). ويذكر أن الفقيه النحوي يحيى بن عبدالوهاب الدمنهوري أوصى قبل وفاته في عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م بوقف خزانة كتبه على جامع العافية الذي بناه الظاهر بيبرس

(١) كوركيس عواد، خزائن الكتب...، ص ١٥١-١٥٦.
(٢) عبد الله الجبوري، مكتبة الأوقاف العامة...، ص ص ٥١-٥٧، ٨٤.
(٣) جرجي زيدان، ٤: ١٠٩-١١٠.
(٤) محمد رشاد عبد المطلب وغيره، " تصوير المخطوطات... "، ص ٣٤٣.

بضاحية من ضواحي مدينة القاهرة[1].

وقد تلقى الجامع الأزهر هدايا كثيرة من الكتب، أكثر من أي مسجد آخر في مصر. ويذكر أحد المصادر أن كثيراً من العلماء المصريين أهدوا مكتباتهم الخاصة إلى خزائن،كتب هذا الجامع. وقد أورد المصدر أسماء العديد من هؤلاء العلماء[2].

حجم المقتنيات:

بغض النظر عن طريقة الاقتناء، فقد وجد في بعض مكتبات المساجد أعداد كبيرة من الكتب. فيروى -على سبيل المثال- أن المكتبة الحيدرية في الجامع الكبير بالنجف، احتوت في وقت من الأوقات على ما يتراوح بين أربعين ألف وأربع مئة ألف مجلد[3]. كما يقال بأن مكتبات جامع الزيتونة في تونس كان بها أكثر من مئة ألف كتاب، وأن المكتبة الأحمدية وحدها كانت تضم ما لا يقل عن ستة وثلاثين ألف مجلد[4]. ويروي جودت – نقلاً عن المقريزي – أن مكتبة الجامع الأزهر تلقت هدايا كتب بلغت أكثر من خمسين ألف مجلد، وذلك من قبل الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله[5]. وتجدر الإشارة إلى أنه في

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في....، البحث الأول، ص ١٦.

(٢) عبد الحميد يونس وغيره، ص ص١٤٩-١٥١.

(٣) كاظم الدجيلي، ص ٥٩٥.

(٤) محمد عبد القادر أحمد، "المكتبة الونسية..."، ص ١٨٦.

(٥) صالح جودت، ص ١٧٨.

الوقت الذي كانت فيه بعض المكتبات تتباهى بالأعداد الكبيرة من الكتب التي وجدت فيها، كانت معظم مكتبات المساجد تحتوي على أعداد متواضعة تتراوح ما بين عدة مئات وبضعة آلاف من المجلدات. ففي اليمن، تشير المصادر إلى أن المكتبة المتوكلية في الجامع الكبير بصنعاء كانت تحتوي على مجموعة تقدر بحوالي ستة آلاف مجلد، من بينها ألفي مخطوط(١). كما يروى أن مكتبة قبة طلحة، بأحد مساجد صنعاء، كانت تضم مجموعة طيبة من المصاحف، بالإضافة إلى خمس مئة مخطوطة(٢). وتذكر مصادر أخرى أن السلطان العثماني عبد المجيد عندما أنشأ المكتبة المجيدية بالحرم المكي أودعها ما يقارب أربعة آلاف كتاب(٣).

وكان بالمكتبة الصوفية في الجامع الكبير بحلب مجموعة من الكتب تضم ما لا يقل عن عشرة آلاف مجلد(٤). ويروى أن مكتبة مسجد الدهشة بمدينة حماة تلقت وقفاً مقداره سبعة آلاف كتاب(٥). ونقرأ أيضاً أن المكتبة النعمانية في جامع المرجان بمدينة بغداد كانت تضم ألفاً وأربع مئة كتاب ومخطوطة(٦)

(١) إسماعيل الأكوع وغيره، ص ٦٣٧.

(٢) فؤاد سيد، مخطوطات اليمن....، ٢١٢.

(٣) عبد الله عبد الجبار، ص ٥٦.

(٤) محمد أسعد طلس، المخطوطات وخزائنها...، ص ص ١٢-١٣.

(٥) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦: ١٩٣.

(٦) عبد الله الجبوري، مكتبة الأوقاف العامة...، ص ص ٥٦-٥٧.

أمّا مكتبة مسجد الدردير بالقاهرة فكان بها حوالي ألف ومئة كتاب، وذلك في الوقت الذي احتوت فيه المكتبة العباسية بالإسكندرية على أكثر من ستة آلاف وخمس مئة كتاب(١). وقد وجد في مكتبة مسجد محب الدين الواقف، الذي أنشئ بالقاهرة عام ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م، أقل من مئتي وخمسين كتاباً ـ غير المصاحف والربعات الشريفة(٢).

وعلى أية حال، يجب أن نشير إلى أن أعداد الكتب التي ذكرت في سياق الفقرات السابقة تمثل المجلدات الموجودة وليس العناوين، حيث يتوقع أن يكون من العنوان الواحد أكثر من نسخة واحدة. ولقد كانت أعداد النسخ من العنوان الواحد تتكرر، وبشكل خاص في مكتبات المساجد الكبيرة والجوامع، حيث كانت طريقة التعليم فيها تعتمد على وسيلة الحفظ والاستظهار وبالتالي، تكرار العمل الواحد ونسخه من جانب الطلاب. ولا ننسى أن الشهادة التي تمنح للطالب، والتي تعرف بالإجازة، كانت تمنح له لا لتفوقه في موضوع معين، وإنما لدراسته وحفظه لكتاب معين تحت إشراف أحد المدرسين. ونتيجة للمشاركة الجادة من قبل كل من المدرسين والطلاب في نسخ الكتب وإيداعها في مكتبات مساجدهم، فإننا نجد نسخًا متعددة للعمل الواحد، وخاصة الأعمال الشهيرة. فلا عجب إذاً، أن نرى العالم الأندلسي عبد الملك بن زيادة الله

(١) جرجي زيدان، ٤ : ١٠٤، ١٠٩ – ١١٠.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم، مكتبة عربية...، ص ٦٤.

اليمني ينشد مسروراً بالتفاف ألف تلميذ حوله في جامع قرطبة، ومع كل تلميذ محبرته وقلمه لينسخ ما يمليه عليه :

إني إذا احتوشتني ألف محبرة يكتبن حدثني طوراً وأخبرني
نادت بعَقْوَتي الأقلام معــــلنة هذي المفاخر لا قعبان من لبن[1]

التنوع الموضوعي للمجموعات:

يبدو أن طبيعة التعليم في المساجد أثرت تأثيراً واضحاً في التوجه الموضوعي لمجموعات مكتبات المساجد. فقد كانت هذه المكتبات تقتني مصاحف كثيرة، جميلة التدوين والزخرفة، بالإضافة إلى المؤلفات التي تتناول موضوعات دينية مثل التفسير، وعلم التوحيد، والأحاديث النبوية، والفقه والتشريع، وغير ذلك. ثم اتسع هذا التوجه، حيث نرى هذه المكتبات وقد احتوت على أعمال أدبية، واجتماعية، وعلمية متعددة وذات قيمة معرفية كبيرة.

وهناك من الأدلة ما يدعم هذه الحقيقة بشكل كبير. ففي عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، نشرت الحكومة المغربية قائمة لبعض نوادر المخطوطات التي وجدت بخزائن كتب جامع القرويين والتي آلت إلى مكتبة جامعة القرويين. وقد تم توزيع تلك المخطوطات على الموضوعات الأساسية التالية : المصاحف، والإنجيل، والقراءات، وتفسير القرآن، والحديث، والسيرة النبوية، والنحو، واللغة، والأدب، والتاريخ، والأنساب والتراجم، والجغرافيا، والتوحيد، والتصوف،

---

(١) خوليان ريبيرا، ٥ : ٧٢.

والوعظ، والفقه وملحقاته، والفلسفة، والسياسة، والفلاحة، والكيمياء، والتنجيم، والفلك، والطب، والموسيقا[١].

أما المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة، فقد تناولت مخطوطاتها ومجموعات كتبها موضوعات دينية وأدبية ولغوية، وذلك بجانب موضوعات أخرى مثل : التاريخ، والتراجم، والمناقب، والبحث، والتصوف، والوثائق، والحساب، والهندسة، والفلك، والمعادن، والجغرافيا، والفلاحة، والطب، وتعبير الرؤيا، والفراسة، وسر الحرف، وغير ذلك[٢].

ولا شك أن هذه الموضوعات لم تكن مقتصرة على مكتبتي جامع الزيتونة والقرويين، بل هناك مكتبات أخرى كانت تقتني كتباً في هذه الموضوعات وغيرها فها هي مكتبة المسجد الأحمدي بطنطا – على سبيل المثال – تضم أعمالاً صنعت تحت خمسة وعشرين موضوعاً، منها : الطب، والموسيقا، والحساب، والجبر، وصناعة الأصباغ، وغيرها[٣].

ولم تكن هذه المكتبة سوى واحدة من مكتبات المساجد المصرية الكثيرة التي كانت تعرف بمجموعاتها المتعددة والمتنوعة. وتشير بعض المصادر إلى أنه عندما انتهى ترميم جامع ابن طولون بمنطقة القطائع بالقاهرة، أمر السلطان المملوكي السلطان حسام الدين لاجين طبيبه الخاص، شرف الدين محمد ابن

(١) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في...، ص ٢٣٩.

(٢) عبد الحفيظ منصور، ص ٨.

(٣) علي سامي وغيره، ص ٢.

أبي الحوافر بإلقاء محاضرات في الطب بذلك الجامع. فلا عجب أن نرى مكتبة هذا المسجد تضم بعضاً من أشهر المؤلفات الطبية[١]. ويذكر أحد الباحثين أنه بجانب تدريس مواد تتعلق بموضوعات دينية وأدبية، فقد اهتم علماء الجامع الأزهر بتدريس الجغرافيا، والفلك، والهندسة والطب، والرياضيات، وغيرها من العلوم النظرية والتطبيقية. ولا شك أنه كان لهذا التنوع في الموضوعات التي كانت تدرس في أروقة هذا الجامع العريق، أثره الكبير على تنوع مجموعات خزائنه وتعدد موضوعاتها[٢]. وقد أشار الزياتي في كتابه عن تاريخ الأزهر إلى أن المكتبة الموجودة بالمدرسة الأقبغاوية كانت تشتمل على كتب في ثلاثة عشر موضوعاً أو« فنًّا ». أما مقتنيات المدرسة الطيبرسية فقد اشتملت على خمسة عشر موضوعاً، منها : الفلك، والميقات، والميزان، والحساب، والهندسة، والطب[٣].

ويبدو أن هذا التنوع في المجموعات لم يكن قاصراً على المكتبات الكبيرة، بل تعداه إلى مكتبات المساجد الصغيرة. فمكتبة مسجد محب الدين الواقف الصغيرة في القاهرة – على سبيل المثال – كانت تضم مؤلفات في الطب، والجراحة، والعقاقير، والموسيقا، والفروسية، والشعر[٤]. كما أن المكتبة

(١) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الأول، ص١٨.

(٢) Mohiddin Alwaye, "Al-azhar..." ,P.2.

(٣) سليمان رصد الحنفي الزياتي، ص ص ١١٣– ١١٤.

(٤) عبد اللطيف إبراهيم، مكتبة عربية...، ص ص ٦٥–٦٦.

اليوسفية، في مسجد علي بن يوسف في مراكش، كانت تضم كتباً في علم اللغة، والتراجم، والفلسفة، والأدب، والتصوف، والمنطق، والرياضيات، والطب، والموسيقا[1]. وفي بغداد كانت مكتبة جامع أبي حنيفة تضم المجموعة الطبية لابن جزلة، المتوفى عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م، بالإضافة إلى العمل الموسوعي الضخم الذي قام بتأليفه أحد كتاب المعتزلة، عبد السلام بن محمد القزويني، والذي سبقت الإشارة إليه في الفصل السابق.

ومن اللافت للنظر أن مكتبات المساجد احتوت على أعمال لا يتوقع أحد أن تكون موجودة بها. فقد كتب عبد الوهاب أنه وجد في المكتبة العتيقة بجامع القيروان، ترجمة عربية لكتاب «تاريخ الأمم القديمة» الذي ألفه القديس المسيحي يرونيم الروماني قبل وفاته عام ٤٢٠م[2]. كما تشير مصادر أخرى إلى أن نسخاً مزخرفة ونفيسة من الإنجيل والتوراة، وكتباً أخرى عن موضوعات متصلة بهما، قد أودعت في مكتبة جامع القرويين في فاس[3]، وأيضاً في مكتبة قبة بيت المال في الجامع الأموي في دمشق[4]، ومكتبة الجامع الأزهر[5]، والمكتبة الأحمدية في طنطا[6]، والمكتبة المتوكلية بالجامع الكبير

(١) G. Deverdun, P.56.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب، بيت الحكمة...، ص ١٢٨. أيضاً: هلال ناجي، ص ص ١٣-١٤.

(٣) العابد الفاسي، خزانة القرويين...، ص ١٦.

(٤) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦: ١٩٩-٢٠٠.

(٥) عبد الحميد يونس وغيره، ص ١٤٨.

(٦) علي سامي النشار وغيره، ص ٢.

في صنعاء[1]. ويذكر في هذا الصدد ما كتب عن خزانة القرويين: «أغنى المكتبات العامة في المغرب وأعظمها وهي فخر للمغرب ولفاس. ضمت نوادر من المخطوطات لا توجد في مكان. وكثير منها نُسخ قديمة جداً... وقد صدر لها فهرس قديم لا يتضمن كل ما فيها. ففي الخزانة نوادر غريبة جداً ما تزال تحت النظر والبحث يتتبعها مديرها ويكتشفها. وهو في سبيل وضع فهرس مفصل لجميع مخطوطاتها اطلعنا على جزء ضخم منه»[2].

وبالإضافة إلى ذلك، فقد احتوت بعض مكتبات المساجد على كتب في الطب البيطري، وطب الأعشاب والطلاسم، والمعاشرة الجنسية، والمساحة، وفنون الحرب، وعلم الكف والرمل[3]. وقد ذكر المستشرق الفرنسي رينو أنه أثناء فحصه لكتب جامع القرويين، عثر على المخطوطة الأصلية لمؤلف «الأرجوزة المعلومة»، وهي الدراسة الشهيرة عن السم والترياق التي كتبها العالم الأندلسي لسان الدين بن الخطيب[4]. كما يروي الكتاني أنه وجد بالمكتبة نفسها مجلدين كبيرين لا يتضمنا شيئاً سوى وثائق تتعلق بأملاك قبيلتين من القبائل المغربية، هما المرابيح من بلاد جير والساورة بأرض البيض. وتعود هذه الوثائق إلى عام ١١١١هـ / ١٦٩٩م[5].

(١) صالح أبو رقيق، " المخطوطات... العربية اليمنية "، ص ٥.

(٢) العابد الفاسي، " المكتبات العامة.... "، ص ١٦٣.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في....، البحث الثاني، ص ص ٢٨-٣٠.

(٤) لسان الدين بن الخطيب، ص ١٨٨.

(٥) محمد إبراهيم الكتاني، ص ٢٠٥.

أما مجموعة المكتبة العتيقة في جامع القيروان بتونس، فكانت متنوعة في موادها وموضوعاتها. فبالإضافة إلى اقتنائها للكتب في الموضوعات المألوفة، يقال إن هذه المكتبة كانت تضم رسوماً، ووثائق، وسجلات كثيرة تتعلق بموضوعات مختلفة. ومن الوثائق التي كانت بهذه المكتبة وثيقة ترجع إلى عام ٦١١هـ / ١٢١٤م، تتضمن اعترافاً لشخص اسمه يوسف بن كليب بأنه قام عمداً بضرب شخص آخر اسمه قاسم بن خليفة بن سمحة، وأنه يتعهد بقبول ما يفرض عليه جزاء ما فعل. ووثيقة أخرى مكتوبة بعد الوثيقة الأولى بحوالي ثلاثين سنة، وهي عبارة عن إفادة بوفاة شخص اسمه موسى بن علي الصنهاجي، كما اشتملت على زواجه وطلاقه من فاطمة بنت خنوس الوستاني. كما وجدت وثيقة ثالثة مكتوبة على رق مؤرخة في عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م، وهي عبارة عن رسم صداق بين بناتة بن معمر البجلي والزوجة فضة بنت عقيل بن سلامة البجلي، بمبلغ قدره ستة وستون ديناراً[١].

وتجدر الإشارة كذلك أنه فضلاً عن التنوع الموضوعي، كان يوجد بمكتبات المساجد كتب بلغات أخرى غير العربية. فنقلاً عن البتنوني، يقول الشامخ إن مكتبتي الشرواني والمجيدية بالمسجد الحرام بمكة المكرمة كانتا تحتويان على مؤلفات بالفارسية والأوردية والجاوية والتركية[٢]. كما يروي كرد علي بأن المجموعات النادرة والقيمة التي وجدت بمكتبة قبة بيت المال في الجامع الأموي

(١) محمد عبد القادر أحمد، " المكتبة التونسية... "، ص ص١٨٤-١٨٥.

(٢) محمد عبد الرحمن الشامخ، ص ١٠٩.

عند افتتاحها رسميّاً عام ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م، كانت مدونة باللغات العربية واليونانية، والقبطية، والأرمنية، والعبرية، والسامرية، واللاتينية، والكرجية، وبعض اللهجات العامية الآرامية - الفلسطينية القديمة[١]. كما وجدت كتب مترجمة إلى اللغة العربية. وقد أشرنا إلى ترجمة كتاب «تاريخ الأمم القديمة» الذي كان بالمكتبة العتيقة بجامع القيروان. كما نقرأ عن وجود كتب مترجمة عن اللاتينية والإيطالية بمكتبة المسجد الأحمدي بطنطا[٢].

تنظيم المجموعات:

لم يكن اقتناء مكتبات المساجد لمجموعات الكتب إلا الخطوة الأولى في إتاحتها لروادها، وكغيرها من خزائن الكتب الإسلامية، يبدو أن هذه المكتبات، وخاصة مكتبات الجوامع، كانت تعمل على إعداد قوائم وفهارس بالكتب المتوفرة فيها، وذلك تيسيراً للوصول إلى هذه الكتب والاستفادة منها. ولا شك أن هذا النشاط كان له أثره في ضبط موجودات المكتبة، كمّاً ونوعاً. ويذكر في هذا الصدد أن السلطان المتوكل أبا عنان عند تأسيسه لمكتبته في جامع القرويين بفاس عام ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م، عين لها أميناً ليضبط محتوياتها. وقد

---

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ : ١٩٩-٢٠٠.

(٢) علي سامي النشار وغيره، ص ٢.

جاء ذكر ذلك في كتاب «الجذوة» لابن القاضي، حيث قال : «وأما خزانة الكتب التي يدخل إليها من أعلى المستودع الذي بها، فإنه لما كان من رأي أبي عنان حب العلم وإيثاره والتهمم فيه والرغبة في انتشاره والاعتناء بأهله. انتدب بأن صنع هذه الخزانة، وأخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من العلوم كعلوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان، وغير ذلك من العلوم على اختلاف أنواعها، وعين لها قيماً ليضبطها، وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٥٠هـ»(١). وتشير مصادر أخرى إلى أن العالم المغربي، أبا مالك عبد الواحد الفاسي، أعد فهرساً مختصراً لمجموعة المخطوطات التي كانت موجودة في المكتبة المنصورية بالجامع نفسه(٢). وهناك إشارة أخرى إلى أن فهرساً قد طبع عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م ، ضم العناوين العربية التي وجدت بهذه المكتبة حتى ذلك التاريخ. وقد ذكر الكتاني أن هذا الفهرس - ويعرف بفهرس بل - ليس ذا قيمة كبيرة(٣). كما أعدت في السنوات الأخيرة عدة فهارس جزئية لحصر مجموعات الكتب الموجودة بجامع القرويين(٤).

ولا شك أن جامع القرويين لم يكن هو الوحيد الذي وجد فيه هذا النشاط.

(١) العابد الفاسي، خزانة القرويين...، ص ٤.

(٢) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في....، ص ٢٣٩.

(٣) محمد إبراهيم الكتاني، ص ٢٠٥، ٢١٠.

(٤) العابد الفاسي، خزانة القرويين...، ص ص ٨-١٦، أيضاً : صالح أبو رقيق، " المخطوطات... العربية اليمنية "، ص ص ٢١٢-٢٤٠، أيضاً : عز الدين التنوخي، ص ص ٦٨٤-٦٨٥.

فمن خلال فحصه لمجموعة مخطوطات جامع القيروان بتونس، عثر شبوح على فهرس يرجع إلى عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م، وكان مفصلاً جداً في وصفه وتعريفه بالمصاحف والكتب الموجودة بالمكتبة آنذاك، كما ذكر شبوح بأنه كان مكوناً من إحدى عشرة صفحة من الرق، ومكتوباً بخط كاتب يدعى علي بن حسين الخالديني. ويبدو أن تدوين هذا الفهرس كان مهمّاً لدرجة أن قاضي مدينة القيروان، أبا العباس أحمد الربعي، وستة آخرين وقعوا عليه باعتبارهم شهوداً على محتوياته. وقد أشار كاتب الفهرس إلى أنه تمّ إعداده من أجل: «اختبار النسخ من حيث الزيادة والنقص. والنظر في ذلك بأتم وجوه النظر والاجتهاد، وضم ما تفرق من أجزائها، ورد كل شكل منها إلى شكله، وإعادته إلى موضعه، وجبر ما وقع الجبر فيه منها»[١].

وقد كان للمكتبة العبدلية، أو الصادقية، في جامع الزيتونة فهرساً دونت فيه مقتنياتها الكثيرة. وقد أشار زيدان بأن هذا الفهرس طبع عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م[٢]. ومن جهة أخرى، لم يكن للمكتبة الأحمدية ـ بالجامع نفسه ـ فهرس مطبوع يتضمن مجموعاتها النفيسة، بل كان لها قائمة كتبت بخط اليد. وقد اطلعت بعثة المخطوطات التي أرسلها معهد المخطوطات العربية إلى تونس عام ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م على هذه القائمة، كما اطلعت على نوادر

(١) إبراهيم شبوح، ص ص ٣٤٢-٣٧٢.

(٢) جرجي زيدان، ٤ : ١٣٤.

المخطوطات الموجودة بهذه المكتبة(١).

وتشير المصادر إلى وجود فهرس ضخم احتوى على عناوين الكتب الموجودة بخزائن الجامع الأزهر حتى عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م. ويقال بأن هذا الفهرس، الذي كان يتكون من ستة مجلدات كبيرة، ضم أكثر من مئة ألف عنوان(٢) وقد ذكر عنان بأن المستشرق الألماني جوستاف فليجل عثر في إحدى مكتبات مدينة فيينا بالنمسا على فهرس قديم لمحتويات خزائن الكتب بالجامع الأزهر. وكتب عنان - الذي لم يشر إلى عنوان أو تاريخ إعداد هذا الفهرس - أن فليجل نشر بعد ذلك ملخصاً له. كما أشار عنان إلى فهرس آخر أعده المستشرق تيتوس بوركهارت عندما زار الجامع الأزهر في بداية القرن التاسع عشر الميلادي. وقد ترجم هذا الفهرس إلى اللغة الإنجليزية ونشر في عام ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م بعنوان «فهرس كتب الجامع الأزهر»(٣). وفي عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م تم إعداد فهرس رابع، وذلك إثر عملية جرد المجموعات المتناثرة في أروقة الجامع. وقد جاء هذا الفهرس في مجلدين ضما حوالي عشرين ألف مجلد، فقد الكثير منها فيما بعد. ويقال إن هذا الفهرس نفسه فقد لفترة من الزمن حتى وجد بطريق الصدفة خارج الجامع في عام ١٣٢٩هـ / ١٩١١م، وقامت المكتبة بشرائه بمبلغ زهيد قدره مئة وخمسون مليماً(٤).

---

(١) صلاح الدين المنجد، بعثة معهد...، ص ٣٩٢.

(٢) أبو الوفا المراغي، " المخطوطات في..."، ص ٦٠.

(٣) محمد عبد الله عنان، ص ٢٩٨.

(٤) محمد البهي، " مكتبة الجامع...»، ص ص ٢٧-٢٨.

وبالجانب الشرقي للدولة الإسلامية، حرصت مكتبات المساجد كذلك على إعداد فهارس لمقتنياتها. فقد كان لدى مكتبة الحرم المكي فهرس بمخطوطاتها، تضمن عناوين وأسماء مؤلفي تلك المخطوطات. ويبدو من هذا الفهرس - الذي لم يذكر تاريخ إعداده - أن المكتبة كانت تضم نسخاً كثيرة قد تصل إلى عشرين من بعض العناوين(١). وفي سياق حديثه عن المخطوطات في اليمن، يذكر سيد أن المكتبة المتوكلية في جامع صنعاء الكبير، كان لها فهرس حسن أعده العالم القاضي محمد الحجري، ورتبت الكتب فيه حسب موضوعاتها. وقد طبع هذا الفهرس في نحو ثلاث مئة وخمسين صفحة من القطع الكبير(٢).

كما نقرأ أيضاً أنه كان لمكتبتي جامع السلطان علي وجامع الكيلاني في بغداد، فهارس مكتوبة بخط اليد، وأن فهرس مكتبة مسجد الكيلاني كان يضم ست مئة وثمانية وخمسين عنواناً(٣). وهناك دلائل إلى أنه كان لدى مكتبة جامع أبي حنيفة فهرس مفصل بمجموعاتها. ويفهم ذلك من وثيقة تعود إلى عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م أثبت فيها تعيين ضياء الدين التركستاني في وظيفة أمين مكتبة هذا المسجد. كما اشترط كاتب الوثيقة أن يقوم الأمين الجديد بجرد مجموعة الكتب الموجودة بالمكتبة، ثم يقوم بعد ذلك بمقارنة ما توصل

---

(١) محمد رشاد عبد المطلب وغيره، " تقرير عن... "، ص ١٥١.

(٢) فؤاد سيد، " مخطوطات اليمن "، ص ١٩٦.

(٣) كوركيس عواد، تطور فهرسة...، ص ١٢٧، أيضاً : عبد السلام رؤوف، عدة مقالات.

إليه بما جاء في فهرس كان موجوداً في المكتبة، وذلك في محاولة للتثبت من فقدان أي كتب منها. وفي حال ثبوت فقدان أي كتاب، فإن على ضياء الدين أن يعمل جاهداً على إيجاده وإعادته للمكتبة[1].

ترتيب الكتب على الأرفف:

كثيراً ما تصف الكتابات المتوافرة أمناء مكتبات المساجد ومساعديهم بأنهم أفراد مجتهدون في عملية استرجاع الكتب وترفيفها. وفي واقع الأمر، تشير سلاسة الطريقة التي كانت تتم بها هذه العملية - أي الاسترجاع والترفيف - إلى أن مجموعات مكتبات المساجد كانت جيدة التنظيم. وعلى الرغم من قلة المعلومات المتوافرة عن طبيعة هذه العملية وخطواتها، فإن هناك أدلة كافية على أن الوسائل المتبعة في الإجراءات الفنية التي كانت تتم في مكتبات المساجد - سواءً أكان ذلك تصنيفاً أو ترفيفاً أو غيرها - لم تكن مختلفة عن الوسائل والسبل التي كانت تمارس في أنواع أخرى من المكتبات الإسلامية.

وبشكل عام، فقد لجأت مكتبات المساجد، التي كانت تمتلك مجموعات صغيرة، إلى وضع كتبها إما في صناديق خشبية وإما في كوّات بالحوائط أعدت خصيصاً لهذا الغرض، وحيث إن هذه المجموعات كانت تتألف أساساً من المصاحف والأعمال التراثية والدينية المعروفة، لذا لم تكن هناك حاجة ماسة لوسيلة متقدمة تيسر أمر ترتيبها واسترجاعها. ومن الملاحظ أن أمناء هذه

(١) كوركيس عواد، خزائن الكتب....، ص ص١٥١-١٥٢

المكتبات كانوا من شدة ألفتهم ومعرفتهم بمجموعات كتبهم من ناحية، ولقلتها من ناحية أخرى، يحفظون هذه الكتب ويعرفون أماكنها عن ظهر قلب. غير أن الأمر تغير عندما ازدادت المجموعات وتعددت وتنوعت موضوعاتها، وبالتالي أصبح أمناء هذه المكتبات بحاجة إلى طرق متطورة لتنظيم ما لديهم من كتب.

ومع ازدياد مجموعات الكتب بمكتبات المساجد، دعت حاجة التخزين إلى استخدام الأرفف، والدواليب، وخزانات الكتب، بأنماطها المختلفة. وكانت معظم الدواليب والخزانات توضع ملاصقة لحوائط الغرف والقاعات، وعلى ارتفاع متوسط لا يبرر استخدام السلالم. إلا أنه في ظل الحاجة إلى سعة تخزين وترفيف أكبر، فقد لجأت بعض المكتبات إلى إطالة هذه الدواليب رأسيًّا حتى تصل إلى السقف. ونقلاً عن كتاب «تاريخ مساجد بغداد وآثارها» لمحمود شكري الآلوسي، ذكر طلس بأن كامل بك الزند عندما أسس مكتبته في جامع الكهيا بمدينة بغداد، وضع الكتب في دواليب خشبية كانت ترتفع حتى تصل إلى السقف. وقد ذكرت هذه المكتبة في أبيات من الشعر دونت على باب الجامع:

ذا جامع فيه رياض التقى　　مزهرة فليعمل العامل

مكتبة فيه لأهل الهدى　　ينال من جوهرها السائل

على التقى مذ تم أرخته　　قد نار هذا المسجد الكامل(١)

(١) محمد أسعد طلس، الكشاف عن... ، ص ٣.

ويبـدو أن فكرة استـخـدام الأرفف لحـفـظ الكتب انتـشـرت في الأمـصـار الإسلامية بسرعة. ولم يقتصر هذا الاستخدام على مراكز الحضارة الفكرية في المجتمع الإسلامي، وإنما وجد أيضاً في مكتبات قد يصفها البعض بالصغر والبساطة. ففي حديثه عن التراث العربي المخطوط في موريتانيا، كتب أحمد : ومنذ الفتح الإسلامي انتشرت المساجد في البلاد، وبدأ الناس في تعلم القراءة والكتابة ونسخ القرآن الكريم، والدراسة في المساجد، ووجدت في زوايا من المساجد رفوف متواضعة وضعت عليها نسخ من المصحف الشريف، وطائفة من الكتب والعلم احتساباً لله تعالى، ابتغاء الأجر والثواب وحبس بعض الحكام والعلماء والقادة بعض ما عندهم من مخطوطات على هذه المساجد. ومن قبل حبس المسلمون الفرس وآلات الحرب للجهاد في سبيل الله[١].

وبشكل عام، فقد كانت معظم الدواليب والأرفف، المستخدمة في حفظ الكتب، مصنوعة من الخشب، مع تفاوت جودة الصنعة وجمال النقش والزينة. ويذكر عش أن كتب أحد المساجد التي شيدت في حلب عام ٧٦٧هـ / ١٣٨٥م، كانت محفوظة في خزائن خشبية صممت بإتقان نادر وذوق رفيع، وذلك وفق أفضل معايير صناعة الأثاث في ذلك الوقت[٢].

وعلى الرغم من أن بعض الدواليب والخزائن كانت مفتوحة، تيسيراً للحصول على ما بها من كتب، إلا أن الغالبية العظمى كانت مغلقة ومراقبة.

---

(١) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في...، ص ٢٦٣.

(٢) Youssef Eche, P. 246.

وقد كانت هذه الخزائن مجهزة بأبواب ذات مفصلات، أو بمصاريع تسحب من أعلى إلى أسفل. وفي كلا الحالتين، كانت الأبواب أو المصاريع تقفل بأقفال محكمة. ولأنهم لم يألفوا وضع الكتب على حافتها، فقد آثر المسلمون وضع كتبهم مسطحة أو منبسطة أحدها فوق الآخر، مكونة بذلك مجموعات صغيرة يسهل وضعها على الأرفف، ومن ثم يخصص لكل قسم موضوعي من أقسام المعرفة جانب أو مكان مستقل.

وتجدر الإشارة إلى أن ترتيب الكتب حسب موضوعاتها لم يكن أمراً فريداً تميزت به مكتبات المساجد وحدها، بل يبدو أنه كان الأسلوب المتبع في معظم المكتبات الإسلامية الأخرى. كما لجأت المكتبات إلى أسلوب آخر ساعد على استرجاع الكتب وترفيفها، وهو كتابة اسم المؤلف وعنوان الكتاب إما في ظهر الكتاب أو على الحافة السفلى من أوراقه. وكثيراً ما كانت تكتب عناوين الكتب وأسماء مولفيها على الأرفف وحاويات الكتب. ولا شك أن هذه الممارسات - رغم بدائيتها إذا ما قورنت بالأساليب الحديثة في الضبط الببليوجرافي ـ تعد جيدة حيث يسرت عملية التعرف على الكتب، وبالتالي استرجاعها وترفيفها بسرعة. وقد أشار شلبي إلى هذا الموضوع قائلاً: «لم تخلُ مكتبة ذات شأن، سواء كانت عامة أو خاصة، من فهرس يُرجع إليه لسهولة استعمال مجموعة الكتب، وكانت هذه الفهارس منظمة للغاية، فهي تشمل الكتب التي بالمكتبة مرتبة على حسب موضوعاتها. وبجانب هذه الفهارس العامة كانت هناك ورقة خاصة ملتصقة بكل دولاب من دواليب الكتب، وقد

كتب على هذه الورقة عناوين الكتب التي يحويها ذلك الدولاب وأرقامها فيه، وبالإضافة إلى عنوان الكتاب ورقمه كانت الفهارس تشمل ملاحظات عن الكتب التي فُقِدت بعض أوراقها أو لم توجد جميع أجزائها »(١).

قاعات المطالعة:

فضلاً عن عمليات الفهرسة والتصنيف، كانت مكتبات المساجد تحرص على توفير إمكانيات القراءة والكتابة لروادها. وقد كانت الغالبية العظمى من المكتبات - وخاصة الكبيرة منها - توفر غرفة واحدة على الأقل لهذا الغرض. وعلى الرغم من عدم وجود دليل على استخدام الكراسي والمناضد في هذه الغرف فقد حرصت المكتبات على أن تكون هذه الغرف مضاءة بشكل جيد، ومفروشة بالسجاد والحصر والمراتب للجلوس عليها. وفي هذا الصدد تشير بعض المصادر إلى أن السلطان المريني - المتوكل أبا عنان - فضلاً عن إنشاء مكتبته في جامع القرويين عام ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م، أمر بإنشاء زاوية للقراء في الجزء الشرقي من المسجد. ويقال إنه فرش هذه الزاوية وجهّزها بشكل فاخر وجميل(٢).

ويروى أن مكتبة المسجد الأحمدي في طنطا كانت مكونة من قاعتين، إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة(٣). ويغلب الظن أن القاعة الكبرى كانت

---

(١) Ahmad Shalaby, PP. 79-82.

(٢) إيفرست ليفي بروفنسال، ص ص ٦٨-٦٩.

(٣) علي سامي النشار وغيره، ص ١.

تستخدم للقراءة. ونقرأ أيضاً أن المكتبة الأزهرية التي أنشئت عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٧م كانت بها قاعة خاصة للمطالعة، وقد ظلت هذه القاعة تستخدم لهذا الغرض حتى عام ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م عندما أصبحت جزءاً من مكاتب إدارة المكتبة(١). وفي معرض كتاباته عن جامع عمرو القديم بأحد أطراف القاهرة، يروي المقريزي بأن القاضي أحمد بن أبي زكريا أمر في أواخر عام ٤٢٢هـ / ١٠٥٠م ببناء درج يربط المكتبة بسطح المسجد(٢). وبرغم أن المقريزي لم يبرر سبب ذلك، إلاّ أنه يمكننا أن نخمن بأن القاضي أحمد – الذي يبدو أنه كان يعمل في منصب كبير – أراد أن ييسر على رواد المكتبة الصعود إلى السطح، حيث يمكنهم الاطلاع والدراسة في جو أبرد وأقل ازدحاماً من المكان المتاح داخل المكتبة أو بقربها.

وكانت مكتبة الجامع الغوري – الذي لا تبعد عن الجامع الأزهر– تتكون من قاعتين، الصغرى منها تضم الكتب، والثانية خصصت للاطلاع والإدارة(٣). وكما هو الحال في شمال أفريقيا قاعات للاطلاع والقراءة في مكتبات مساجد الجزء الشرقي من الدولة الإسلامية. فطبقاً لما جاء في كتاب «الحوادث الجامعة»، يروى أن أبا المظفر باتكين الرومي، أحد وزراء الخليفة العباسي المستنصر بالله، أمر بإعادة بناء الجامع الكبير في البصرة، عندما احترق عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م،

---

(١) عبد الحميد يونس وغيره، ص ١٤٥.

(٢) أحمد بن علي المقريزي، ٣: ١٩٥.

(٣) William M.Randall, P.228.

على نفقته الخاصة، كما أمر بتخصيص غرفتين بمدخل ردهة المسجد، أودع بإحداهما أعداد كبيرة من الكتب[١]. أما الثانية، فالأغلب، أنها تركت لاستخدام الرواد والمشرف على المكتبة. ونقرأ أيضاً أن كامل بك الزند خصص لمكتبة جامع الكهيا ببغداد حجرتين في الطابق العلوي، حجرة داخلة وضع فيها الكتب، وأخرى خارجة للمطالعين[٢]. كما تذكر المصادر أن مؤسسي مكتبتي جامع الخلاني وجامع التميمي- أيضاً في بغداد - حرصوا على توفير قاعات واسعة للقراءة والاستذكار[٣].

إتاحة الكتب للرواد :

بصرف النظر عن تنظيمها للمقتنيات وتوفيرها تسهيلات القراءة، تبرز أهمية المكتبة في مدى قدرتها على تلبية احتياجات المستفيدين، وذلك عن طريق إعارة الكتب. وفي مقالته عن أثر المكتبات في الارتقاء بمستوى التعليم الإسلامي، ذكر شافي أن إتاحة الكتب بحرية كاملة لجميع القراء كان شعاراً أساسيّاً للمكتبات العامة العربية، حيث توافرت فيها تسهيلات قلما تتوافر للمكتبات الحديثة. فقد حرصت تلك المكتبات على منح روادها حرية كبيرة في استعارة الكتب والاستفادة منها، كما وفرت لهم مستلزمات الكتابة والنسخ بيسر ودون مقابل[٤].

---

(١) ناجي معروف، أصالة الحضارة...، ٤٦٧.

(٢) محمد أسعد طلس، الكشاف من....، ص ٣.

(٣) صالح الحيدري، ص ٢٨، أيضاً : محمد الحيدري، ص ٣٨.

(٤) Muhamad ShafiI, P.35.

وإذا كان هذا الكلام صحيحاً، ولو جزئيّاً، إلا أنه لا يوجد دليل قوي يدعم تعميمه على جميع المكتبات، فعلى الرغم من أنه كانت هناك مكتبات إسلامية كريمة في سياستها عند إعارة الكتب، إلا أن الكثير من المكتبات ـ ومن ذلك أغلب مكتبات المساجد ـ وضعت ضوابط وقيوداً مشددة على إعارة الكتب، ولا سيما الإعارة الخارجية. وقد وجد هذا التوجه قبولاً وتأييداً حتى لدى بعض المثقفين، ومن هؤلاء أحد شعراء مدينة حلب الذي أنشد ناصحاً بأنه يجب على المرء أن لا يعير كتبه أبداً، ولا حرج من إيجاد الأعذار. وإن كان لابد من الإعارة، فليأخذ صاحب الكتاب رهناً، وإلا فقد كتابه وندم على فعلته(١).

وفي هذا الصدد كتب أحمد قائلاً: «وقد وجدت في عهد مبكر عادة الاستهانة بالكتاب المستعار أو عدم رده، وكان ذلك سبباً في أن كره بعض الأدباء والعلماء إعارة كتبهم خوفاً عليها. وقال رجل لأبي العتاهية: أعرني كتابك. فقال: إني أكره ذلك. فقال الرجل: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره؟ فأعاره الكتاب. وطلب الشافعي من محمد بن الحسن كتباً فمنعها، فكتب له الشافعي:

ياذا الذي لم تَر عَيْـ ن من رآه مثله

العلم يأبى أهـــلُه أن يمنعوه أهلَهْ (٢)

وقد أشار شلبي ـ وباستفاضة ـ إلى ما يمكن أن نسميه بمبادئ الإعارة من

(١) Olga Pinto,, P.234.

(٢) Ahmad Shalaby, PP.82-83.

وجهة النظر الإسلامية، والتي تشمل ضوابط مادية ومعنوية تحكم عملية إعارة الكتب، واستخدامها، وإعادتها : وقد كان تيسير الاستعارة داعياً لأن يستغني بها بعض العلماء، فلم يجدوا من الضروري أن يشتروا الكتب ويبذلوا المال ثمناً لها، ومن هؤلاء أبو حيان الغرناطي الذي يقول : «إذا أردت كتاباً استعرته من كتب الأوقاف وقضيت حاجتي».

ولم تكن الاستعارة على أية حال مطلقة تماماً، بل وُضعت عليها قيود لتنظيم العمل وسيره، ومن ذلك أنه كان من نظام مكتبة القاهرة أنها تُعير كتبها للطلبة الساكنين في القاهرة فقط.

وكان يكثر أن يُطلَب إلى المستعير أن يدفع ضماناً أوما يطلق عليه الآن (تأمين) ولكن كان يعفى العلماء وأفاضل الناس من دفع ذلك الضمان، فلقد مَدَح ياقوت الرومي المشرفين على المكتبات ببلدة(مَرْو) إذ سمحوا له أن يستعير مئتي مجلد دون أن يدفع ضماناً.

وكثيراً ما كان يُحدَّد وقت للمستعير بحيث يلزمه رد الكتاب دون تجاوز هذا الوقت ؛ فإن ابن خلدون سجَّل في الوثيقة التي أهدى بها كتابه العبر إلى مكتبة جامع القيروان : أنه لا يجوز إعارة الكتاب إعارة خارجية إلا إذا كان المستعير شخصاً موثوقاً به وأميناً، على أن يدفع ضماناً مهمّاً، وأن يردَّ الكتاب في مدة لا تتجاوز شهرين.

ومستعير الكتاب ينبغي أن يحافظ عليه تمام المحافظة، ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه، ولا يُحَشِّي ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه أو خواتمه أو

هوامشه إلا إذا علم رضا صاحبه، ولا يعيره لغيره، ولا يدفعه ضماناً لشيء. وعلى المستعير ألا يطيل مقام الكتاب عنده من غير حاجة، بل يرده إذا قضى حاجته أو انتهت المدة التي أذِن له بها. ولا يحبسه إذا طلبه المالك، وليتبع على العموم قول الشاعر:

أيها المستعير مني كتاباً ارض لي منه ما لنفسك ترضى(١)

ومما لا شك فيه أن الالتزام ببعض القواعد السابقة أو بكلها ، أو إضافة قواعد أخرى جديدة، كان يختلف من مكتبة لأخرى. ولكن القيود التي كان يضعها المهدي على هديته، أو الكتب التي يوقفها على مكتبة معينة، كان يلتزم بها عادة، ففي وثيقة وقفية الكتب التي أوقفها علي بن سليمان الأبشادي على مكتبة جامع الأزهر عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م، تعليمات واضحة بالطريقة الواجب اتباعها في إعارة الكتب الموقوفة، حيث يقول الواقف: «وعلى الخازن المذكور..... وكتابة اسم من يطلب منه كراساً ويأخذه منه ثم إذا أعاده مسح اسمه بحبر يشتريه من عند نفسه» كما اتبع ذلك بضوابط أخرى أكثر صرامة، حيث يشترط على الناظر، وفي كل زمن بعد وفاة كاتب الوثيقة، أن: «لا يخرج من جميع الكتب المذكورة شيئاً من أي مكان به برهن ولا غيره ولا يطلع على شيء منها أحد من الحكام مطلقاً بمصر أو المدينة المذكورتين أو أرباب المناصب بهما مطلقاً أو أحد من جهتهم مطلقاً أو اللايذين بهم مطلقاً بحيلة

(١) أحمد شلبي، ص ص٨٣-٨٤.

ولا بغيرها مطلقاً بنفسه أو من أهله مطلقاً لضرورة أو غيرها مطلقاً ومتى فعل ذلك وثبت عليه بالطريق الشرعي من غير ضرر ناله بسبب ذلك من ضرب أو إهانة أو خوف على نفس أو مال بل فعل ذلك اختياراً منه وتقرباً إلى خواطرهم كان إذ ذاك معزولاً من النظر على ذلك وانتقل النظر لمن بعده إن كان له علم بهذا الشرط وهكذا في كل ناظر عليه في كل زمن»[١].

ويذكر في هذا الصدد أيضاً مكتبة جامع الأبيض بقلعة الجبل بالقاهرة، التي أنشأها هي والجامع السلطان المملوكي فرج بن برقوق في عام ٨١٢هـ / ١٤٠٩م. فقد اشترط السلطان برقوق على أمين المكتبة أن يأخذ تواقيع المستعيرين قبل تسليمهم الكتب، وذلك في قوله: « .... وعلى أنه من حضر إليه يطلب شيئاً من ذلك فإن كان أهلاً لمطالعة ذلك والاشتغال به وكان من أهل المكان وممن يوثق به دفعه إليه وأخذ خطه منه فإذا عاده إليه دفع خطه ولا يمكنه من التأخير مدة بعيدة يخشى منها حصول النسيان بل يتعاهده بالسؤال وأخذ ما أخذه منه فإذا طلب غيره إجابة لذلك وفعل كما فعل أولاً »[٢].

وعلى الرغم من وجود ضوابط مشددة لإعارة الكتب في بعض مكتبات المساجد، إلا أن أكثرها ـ لسبب أو آخر ـ لم يتمكن من التحكم بهذه العملية بالشكل المطلوب. ففي حديثه عن مكتبة جامع القرويين، يذكر أحمد أنه كان بها دفاتر للإعارة وسجلات لإخراج الكتب. ولكن ـ رغم ذلك ـ فقد الكثير من

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الثاني، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق، البحث الأول، ص ٢٦، ٦١.

المخطوطات التي كانت موقوفة من أيام الدولة المرينية ولم يبق لها أي أثر(١).
كما نقرأ ـ نقلاً عن قطب الدين الحنفي ـ أن كثيراً من مجموعات مكتبة مدرسة قايتباي بالحرم المكي قد فقدت بسبب الإهمال وعدم أمانة بعض المستعيرين(٢). كما أن كثيراً من المخطوطات النفيسة في مكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة بتونس أعيرت منذ زمن بعيد ولم تعد(٣). وربما كان أحد أسباب تدهور مجموعة هذه المكتبة العريقة، الثقة البالغة لأحد رعاتها المعروفين، وهو الوالي العثماني أحمد باشا الأول. فمما يرويه أحمد بن أبي الضياف عن هذه المكتبة، أن أحمد باشا سمح بإخراج الكتب منها لمدة عام كامل(٤).

ولم تكن مكتبة الأحمدية هي المكتبة الوحيدة التي سمحت بإعارة كتبها لفترات طويلة إذا ما قورنت بمعايير اليوم، فهناك مكتبة المدرسة المحمودية بالقاهرة التي أسسها الأمير المملوكي جمال الدين محمد الأستادار عام ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م. فقد جاء في وقفية هذه المكتبة، الملحقة الآن بجامع الكردي في آخر شارع قصبة رضوان، أن الأمير جمال الدين سمح بإعارة الكتب لمدة شهر، شريطة عدم أخذها خارج نطاق الخانقاه التي كان من ضمنها المكتبة

(١) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في...، ص ٢٣٦.

(٢) ناجي معروف، المدارس الشرابية...، ص ٣١٩.

(٣) صلاح الدين المنجد، بعثة معهد.....، ص ٣٩٢.

(٤) عبدالحفيظ منصور، ص ص٥-٦.

والمدرسة[١]، والحقيقة أن هذا شرط طيب لو التزم به.

ويذكر في هذا الصدد، أن ابن خلدون عندما أوقف نسخة من كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر» على خزانة القرويين بفاس - أذن بإعارة كتابه الشهير لمدة شهرين إلا أنه اشترط أن تقتصر الإعارة على الثقات من الرواد الذين يمكن أن يودعوا مبلغاً من المال، وذلك كضمان لإعادة الكتاب إلى المكتبة[٢]. وبالطبع لم يكن ابن خلدون يقصد من ذلك الحد من استخدام كتابه، بل الحفاظ على تلك النسخة لرواد المستقبل.

وهناك مهدون آخرون وضعوا شروطاً مشابهة. فقد كتب عواد نقلاً عن ابن الساعي ـ المؤرخ البغدادي ـ أنه عند تعيين ضياء الدين التركستاني أميناً لمكتبة جامع أبي حنيفة في بغداد عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م، تضمن عقد تعليمات للأمين الجديد بعدم إعارة الكتب إلا للثقات من القراء، وأن يؤخذ رهن مناسب قبل إعارة أي كتاب[٣]. وتشير مصادر أخرى إلى أن مكتبة الجامع الكبير في صنعاء لم تكن تعير كتبها لروادها إلا بعد أن يودعوا رهناً ماليّاً تزيد قيمته على قيمة الكتب المعارة ذاتها. وقد كان الدافع وراء هذا الشرط قناعة مؤسس المكتبة بأن فقدان الآلاف من الكتب كان بسبب عدم تحصيل ودائع

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الأول، ص٦٢. أيضاً: فؤاد سيد، نصان قديمان...، ص ١٢٧.

(٢) Encyclopaedia of Islam, 2; 1047.

(٣) كوركيس عواد، خزائن الكتب...، ص ١٥٢.

مالية كافية قبل إعارتها [١].

وإذا اعتبر البعض أن مثل هذه الشروط كانت قاسية، إلا أنها أهون مما اتبعه بعض مهدي وموقفي الكتب، وهو رفض الإعارة الخارجية تماماً، فها هي مكتبة مدرسة ومسجد المؤيد شيخ تضع قوانين صارمة على إعارة الكتب. ويقال بأن الملك المؤيد أبا النصر شيخ المحمودي – مؤسس هذه المكتبة – أصدر أوامره بأن لا تعار الكتب خارج حدود المسجد[٢]. كما نقرأ أيضاً أن وقفية السلطان قانصوه الغوري على مكتبة مدرسته وجامعه بالقاهرة، كان بها تحذير واضح بعدم إعارة الكتب، حيث يرد النص التالي : « ... ومن طلب منه كتاباً في علم من العلوم أو فن من الفنون يدفعه له فينتفع به في المدرسة ولا يمكنه من الخروج به من المدرسة ولو دفع إليه شيئاً يساوي أضعاف قيمته فإذا انتفع كل منهم بما يطلبه في نسخ منه أو مطالعة فيه أو مقابلة عليه بالمدرسة رده الخازن إلى الخزانة »[٣].

ومن ناحية أخرى، سعت معظم المكتبات إلى تيسير سبل الإعارة الداخلية وتشجيعها. ويبدو أن هذه السياسة جاءت ملبية لاحتياجات الغالبية العظمى من الرواد . وقد عبر العالم المؤرخ أبو حيان النحوي عن هذا الوضع عندما ذكر بأنه يستطيع أن يستعير أي كتاب يرغبه، بينما لو أراد أن يقترض مبلغاً من

(١) فؤاد سيد، مخطوطات اليمن، ص ١٩٦–١٩٧.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الأول، ص ٦٤.

(٣) المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها.

المال لشراء الكتاب نفسه، فإنه قد لا يجد من يقرضه ذلك المبلغ(١). وفي سياق حديثه عن وقفية محب الدين الواقف لمكتبة مسجده، يذكر إبراهيم بأن محب الدين أصدر تعليماته لأمين المكتبة بأن يعير الكتب لأي شخص يريد مطالعتها أو نسخها مادامت بقيت في المسجد(٢) . وتشير مصادر أخرى إلى أن الأمير محمد بك أبا الذهب، عندما أنشأ مكتبة مسجده بالقاهرة، اشترط أن تكون الكتب متوافرة دائماً بالمكتبة(أي لا تعار خارجها)، وذلك حتى يسهل على الرواد القراءة والدراسة والبحث والنسخ. كما أوصى بأن تتاح مجموعات الكتب للطلاب والأساتذة على حد سواء(٣).

وفضلاً عما سبق، يبدو أنه كانت هناك ممارسات أخرى للإعارة في بعض مكتبات المساجد. فها هي مكتبة الأزهر - على سبيل المثال - تجيز إعارة بضع ملازم من الكتاب، يستبدل بها المطالع غيرها إذا فرغ منها. ولعل المكتبة الأزهرية انفردت بهذا التقليد الذي وسّع من دائرة الانتفاع بكتبها. وقد عرف هذا التقليد من الأزهر باسم «التغييرة» وظل معمولاً به لسنوات عدّة(٤). ويذكر في هذا السبيل، أن مكتبة مسجد الدردير سمحت لطلاب الجامع الأزهر(القريب) بالإعارة من مجموعاتها شريطة أن يلتزموا بنظمها

(١) Olga Pinto, P. 234.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم، مكتبة عربية...، ص ٦٩.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الخامس، ص ص١١-١٢.

(٤) أبو الوفا المراغي، " المخطوطات في... "، ص ص ٥٩-٦٠.

وقوانينها[1]. وفي معرض حديثه عن مكتبة العبدلية، والمعروفة أيضاً بالصادقية، بجامع الزيتونة، يشير زيدان إلى أن هذه المكتبة كانت مفتوحة للجميع، إلا أنها كان لديها ضوابط وقواعد خاصة بالقراءة والنسخ [2]. وجاء كذلك بوقفية جامع الغورى بالقاهرة أن على أمين المكتبة أن يفتحها يومين في الأسبوع[3]. أمّا مكتبة أهل البيت في جامع التميمي ببغداد، فهي تفتح أبوابها للمطالعين كل يوم عصراً وليلاً بصورة منتظمة[4].

أمناء مكتبات المساجد:

حرصت مكتبات المساجد - كغيرها من المكتبات الإسلامية الأخرى - على أن تلبى حاجات روادها على أحسن وجه ممكن. ولتحقيق ذلك سعت إلى تعيين ذوي المواهب وأهل العلم والثقة في وظيفة أمناء المكتبات . وقد كُتب في هذا الصدد : «إن محبي الكتب من المسلمين، اختاروا رجالاً ذوي مؤهلات غير عادية ليكونوا أمناء لمكتباتهم. وربما يرجع النشاط الواضح للمكتبات العربية إلى كفاءة ونوعية الرجال الذين تولوا أمور تلك المكتبات. وإن دل ذلك على شيء، فهو يدل على إدراك هؤلاء بأهمية عملهم، وأن القيام بواجبات الأمين مهنة جديرة بكل الاحترام والتقدير[5].

(١) جرجي زيدان، ٤ : ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق، ٤ : ١٣٤ .

(٣) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في . . .، البحث الأول، ص ٦٦ .

(٤) محمد الحيدري، ص ٣٩ .

(٥) Ruth Stellhorn Mackeensen, “Bachground of ...”, 52: 24.

ولقد كان تعيين شخص يتولى إدارة شئون مكتبة مسجد ما، ظاهرة شائعة نسبيًّا في المجتمع الإسلامي. وكان من يشغل مثل هذه الوظيفة يعرف بأسماء مختلفة مثل : وكيل، وناظر، وصاحب، وقيم، ومحافظ، وخازن، وأمين . وتشير بعض المصادر إلى أن السلطان المرينى المتوكل أبا عنان، عندما أسس مكتبته في جامع القرويين عام ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م، عيّن لها أميناً مسئولاً عن إدارة شئونها وتنظيم مجموعاتها[١]. وبناء على ما جاء في كتاب « مرآة المحاسن »، أنه عندما تم إنشاء المكتبة المنصورية في جامع القرويين عام ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م، أمر مؤسسها السلطان أحمد المنصور الذهبي بأن يقوم بإدارتها ورعايتها أبناء الشيخ[٢]. وعلى الرغم من عدم ذكر اسم ذلك الشيخ أو أسماء أبنائه، إلا أنه يمكننا التخمين بأنهم كانوا رجالاً ذوي مكانة وثقة، كما كان والدهم من قبل.

وفي معرض حديثه عن مجموعات الكتب بالحرم المكي، يذكر زيدان أنه كان لكل من مكتبتي الشروانى والمجيدية أميناً يشرف على شئونهما[٣]. وعندما أسس السلطان قايتباي المكتبة الملحقة بمدرسته في الحرم المكي عام ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م، اشترط تعيين خازن لها، كما وفر له الحريات اللازمة لأداء عمله[٤].

(١) العابد الفاسي، خزانة القرويين...، ص٤ .

(٢) المصدر السابق، ص٦ .

(٣) جرجي زيدان، ٤ : ١٣٢ .

(٤) ناجي معروف، المدارس الشرابية، ص ٣١٩.

وتشير مصادر أخرى إلى أنه عند إتمام تأسيس مكتبة جامع القبلانية، قام والي بغداد العثماني ـ قبلان مصطفى باشا – بتعيين محافظ لها، ليدير أمورها ويعتني بمجموعاتها النفيسة[١]. وفي دراسته المستفيضة عن المساجد التاريخية في القاهرة، يذكر عبد الوهاب أن السلطان حسن بن قلاوون قام بتعيين أمين للمكتبة الملحقة بالمدرسة التي أنشأها بجامعه[٢].

ومن الملاحظ أن بعض المكتبات كان يعين بها أكثر من أمين واحد، أو أمين ومساعد واحد أو أكثر، وأن أحمد باشا الأول عندما أسس المكتبة الأحمدية في جامع الزيتونة، عين لها أمينين أو «وكيلين»، يأتي كل واحد منهما يوماً لمساعدة الرواد وتصريف شئون المكتبة[٣]. ومن اللافت للنظر أنه لم يذكر تبرير لهذا التناوب بين الأمينين، وإن كنا نستطيع أن نرجعه إلى حرص مؤسسها على أن تظل المكتبة مفتوحة طوال أيام الأسبوع. كما يذكر أحمد أن الأمير أبا عبد الله محمد ابن الحسين، مؤسس المكتبة العبدلية بجامع الزيتونة، عين عدة «نظار» لإدارة شئون تلك المكتبة. وحتى يضمن حسن الأداء، وضع المسئولية النهائية في يدي إمام الجامع، أبو البركات ابن عصفور[٤]. ويذكر كذلك أن شمس الدين الواسطي عندما أسس مكتبته في مسجده بالقاهرة عين لها أميناً ومساعداً[٥].

(١) عبد الله الجبوري، مكتبة الأوقاف العامة...، ص ص ١ : ١٧٤.

(٢) حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية...، ١ : ١٧٤.

(٣) عبد الحفيظ منصور، ص ٦.

(٤) محمد عبد القادر أحمد، " المكتبة التونسية... "، ص ١٨٥.

(٥) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الأول، ص ٢٠.

ويتبين من خلال تحقيق ونشر وقفية شرف الدين عيسى الزواوي التي جاءت مصاحبة لمجموعة كتبه الخاصة التي أودعها رواق المغاربة بالجامع الأزهر، أن مكتبات أروقة الجامع الأزهر كان لها أمناء. حيث جاء فيها أن خازن رواق المغاربة واسمه شمس الدين محمد المغربي هو الذي تسلم مجموعة من الكتب في عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م(١)، كما يروى بأن خزانة كتب رواق الحنفية بالجامع الأزهر كان لها أمين خاص بها، وكان هذا الرواق يستخدم للدراسة والسكن. ويذكر الخطيب أن أبا بكر راتب باشا عندما أتم ترميم هذا الرواق عام ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م، ألحق به خزانة كتب ثمينة عليها «قيّم» يرعى شئونها(٢). وقد ذكرالكاتب نفسه في موضع آخر، أنه إلى جانب هذين الرواقين، كان لخزائن الكتب بأروقة الترك والشوام والصعايدة أمناء، يقومون بشئون تلك الخزائن، وكانوا خاضعين لمراقبة دار الكتب الأزهرية الكبرى(٣).

ومما سبق يتضح أن مسئولية تعيين أمين مكتبة المسجد كانت تقع في معظم الحالات على كاهل مؤسس المكتبة وورثته. وهناك حالات أخرى تم فيها تعيين الأمناء من قبل الحكام ونوابهم، أو من قبل أئمة المساجد ، وتذكر المصادر حالة تم فيها تعيين أمين المكتبة عن طريق الانتخاب أو الانتخاب الجماعي. فقد جاء في الوقفية التي صاحبت هدية الكتب التي قدمها علي الأبشادي إلى رواق

---

(١) عبداللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الثالث، ص ٦

(٢) محب الدين الخطيب، ص ص ٢٣-٢٤ .

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣.

الريافة بالجامع الأزهر عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م، أنه يجب أن يتم تعيين «الخازن» عن طريق الاختيار الجماعي من قبل منسوبي الرواق، وأنه لا يعتد بهذا التعيين إلاّ بشرط رضى الجميع واتفاقهم عليه[١].

وكانت وظيفة أمين المكتبة في المجتمع الإسلامي ذات اعتبار وتقدير. وقد أشير بوضوح في وقفية مكتبة جامع الأبيض الذي أنشئ عام ٨١٢هـ / ١٤٠٩م بالقاهرة، إلى المواصفات التي يجب أن يتحلى بها أمين المكتبة، ومن ذلك الامتياز في الخلق والعلم، وسعة الأفق، ودماثة الأخلاق، والثقة، واليقظة، والنضوج العقلي، والأمانة، ونزاهة النفس، وقلة الطمع[٢].

وقد ذكر الكاتب نفسه أن الأمير محمد أبا الذهب حدد في وقفية جامع المحمدي بالقاهرة، مواصفات «خازن» مكتبته ومنها الصلاح، والأمانة، والعفة الدينية والأخلاقية[٣]. وقد أوجزت ماكينسين موقف المسلمين تجاه هذه المهنة بشكل صحيح بقولها : «لقد حظيت وظيفة أمين المكتبة في بلاد المسلمين في العصور الوسطى بكل احترام. فقد كانت تلك المكتبات... تدار من قبل كبار العلماء الذين يتم اختيارهم بناءً على معرفتهم بالكتب. كما كانوا أعلاماً بارزين وذوي مكانة في مجتمعاتهم في ذلك الوقت... ولم يكونوا مجرد خدم للدارسين والمثقفين الذين كانوا يرتادون هذه المكتبات»[٤].

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الثاني، ص ٥٢

(٢) المصدر السابق،البحث الأول، ص ٧١.

(٣) المصدر السابق، البحث الخامس، ص١١.

(٤) Ruth Stellhorn Mackeensen, “Four Great...” P. 281.

ولأنها مهنة جديرة بالاحترام، فقد كان الكثير من العلماء البارزين يتطلع إلى شغلها. ففي سياق سرده للأحداث الرئيسية التي وقعت خلال عام ٥١٧هـ / ١١٢٣م ذكر المؤرخ المصري ابن ميسر، في كتابه «أخبار مصر» أنه في ذلك العام تم تعيين أبي الفخر صالح خطيباً للجامع الأزهر وأميناً لمكتبته. ونظراً للمكانة الكبيرة التي كان يحظى بها أبو الفخر في ذلك الحين، فإن هذا التعيين أكدّ بوضوح مكانة الجامع الأزهر ومكتبته وتقديرهما من قبل الحكام وعامة الناس على حد سواء[١]. كما تجلت أهمية الصوفية بالجامع الكبير في حلب، وذلك من خلال معرفتنا بالأشخاص الذين تولوا أمانتها، مثل محمد القيصراني ذلك الشاعر والأديب وعالم الرياضيات والهندسة والفلك الشهير، وقد كان هذا العالم أميناً لتلك المكتبة إلى قبيل وفاته عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م[٢]؛ وقد تولى أمانة هذه المكتبة أيضاً العالم النحوي أبو المحاسن ثابت بن أسلم بن عبدالوهاب النحوي الحلبي[٣].

كما نقرأ أيضاً عن مكتبة مسجد الزيدي في بغداد، التي تولى إدارة شئونها رجال مرموقون مثل أبي الخير صبيح الحبشي الذي كان خطاطاً ماهراً ومحدثاً معروفاً، وقد تولى أمانة تلك المكتبة حتى وفاته عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م، ومن مآثره أنه أوصى بكثير من كتبه الخاصة لهذه المكتبة[٤]. وقد تولى أمانة هذه

(١) محمد عبد الله عنان، ص ٢٩٨.

(٢) محمد أسعد طلس، المخطوطات وخزائنها...، ص١١٢.

(٣) Youssef Eche, P. 134.

(٤) كوركيس عواد، خزائن الكتب...، ص١٥٥.

المكتبة العالم عبد العزيز بن دلف. ويقال إن هذا الرجل كان يؤدى واجباته بإخلاص وهمة ونشاط لدرجة أن الخليفة المستنصر بالله عينه أميناً لمكتبة مدرسته الشهيرة ، المدرسة المستنصرية، وذلك قبل وفاته في عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م(١). وفي مدينة بغداد أيضاً، تعاقب على مكتبة جامع أبي حنيفة في عصرها الذهبي أمناء بارزون، كان من أهمهم ابن الأهوازي، وعبد العزيز الخوارزمي، وضياء الدين التركستانى الذي عين أميناً عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م بالإضافة إلى عمله كمدرس في الجامع(٢). كما تولى مكتبة حلقة المالكية بالجامع الأموي في دمشق، محمد بن عبد السلام التونسي، مفتي المذهب المالكي في تلك المدينة(٣).

وإلى جانب مكانتهم العلمية، فقد تضمنت واجبات أمناء المكتبات العديد من المهام. ويذكر سيد أن كلاً من كتاب «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، وكتاب «معيد النعم» للسبكي، قدّم وصفاً مفصلاً لواجبات أمين المكتبة(٤). وقد لخص شلبي هذه الواجبات على النحو التالي : «كان الخازن يشرف على الناحية العلمية والناحية الإدارية بالمكتبة ؛ فهو يمد المكتبة بالكتب الجديدة، ويلاحظ دقة الفهارس وحسن تنظيمها وشمولها، وييسّر للقراء

(١) ناجي معروف، تاريخ علماء....، ص ٢٧٦.

(٢) كوركيس عواد، خزائن الكتب....، ص١٥١.

(٣) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ : ١٩٤.

(٤) فؤاد سيد، نصان قديمان...، ص ١٢٥.

عملهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعليه المحافظة على الكتب من الضياع، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك، والضن بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدِّم في الإعارة الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء وكان الغالب أن يكون للمكتبة خازن واحد يقوم بهذه المهمة، ولكن بعض المكتبات كانت ضخمة أو كثيرة الرواد فثقل العبء على خازن واحد، ومن أجل هذا كان يعين اثنان أو يعين للخازن مساعدٌ أو أكثر ليتعاونوا جميعاً في خدمة القراء، وتيسير الاطلاع لهم»(١).

ولم يكن الوضع في مكتبات المساجد يختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً. فقد أشار بروفنسال - نقلاً عن الجزنائي - إلى الواجبات المنوطة بأمين مكتبة السلطان أبي عنان بجامع القرويين. وتمثلت هذه الواجبات في تنظيم مجموعة الكتب، وتسجيل محتوياتها، وصيانتها، وإتاحتها للقراء. كما حدد محب الدين الواقف واجبات أمين مكتبة مسجده بالقاهرة، وتمثلت في المحافظة على الكتب، وتنظيفها، ومناولتها لمن يحتاج إليها أوإلى شيء منها مطالعة أو نسخاً أو مقابلة. أما وثيقة وقفية الأتابكي أزبك من ططخ على جامعه، فقد وضحت مهام أمين المكتبة وأن عليه أن يتولى: «إحراز الكتب المذكورة بالخزانة ونفضها من الغبار وتعهدها على العادة وصونها عما يفسدها ومناولتها لمن يريد المطالعة فيها والكتابة منها بحيث يكون ذلك بالجامع المذكور وغير ذلك مما جرت عادة خزان الكتب بعمله في مثل ذلك»(٢).

(١) Ahmad Shalaby, P.85.

(٢) إيفرست ليفي بروفنسال، ص ٦٨.

وفي وقفية مكتبة جامع المحمدي بالقاهرة، حدد الأمير محمد بك أبو الذهب واجبات أمين المكتبة، وهي أن يتولى صيانة الكتب وحمايتها، وإتاحتها للاستخدام سواء في مجال التدريس، أو القراءة، أو المراجعة، أو الكتابة، أو المقابلة . كما اشترطت الوقفية إلزام الأمين شخصيّاً بتعويض ما قد يفقد من كتب المكتبة[١] . وعن تعيين ضياء الدين التركستاني «أميناً لمكتبة جامع أبي حنيفة في بغداد عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م، كتب المؤرخ البغدادي ابن الساعي أن من ضمن واجبات الأمين الجديد أن يثبت : ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها، معارضاً ذلك بفهرسته، متطلباً ما عساه قد شذّ منها . وليأمر خازنها بعد استصلاحه بمراعاتها ونفضها في كل وقت، ومرمة شعثها، وأن لا يُخرج شيئاً منها إلا إلى ذي أمانة، مستظهراً بالرهن عن ذلك»[٢] .

وفي قصة الفخر عثمان ـ وهو فخر الدين عثمان البكري ـ درس وعبرة لأمناء المكتبات في كل زمان ومكان . فالفخر عثمان هذا تمّ تعيينه أميناً للمكتبة المحمودية بالمسجد الذي أنشأه بالقاهرة عام ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م الأمير المملوكي جمال الدين محمد الأستادار . وحرصاً منه على سلامة الكتب التي بعهدته، قام الفخر عثمان بوضع ضوابط صارمة على إعارة أي منها، مما أثار غضب الرواد ونقمهم، حتى لقبه البعض بالطاغي . وقد ذكر شمس الدين السخاوي قصة هذا الرجل في كتابه «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» بقوله : «واستمر

(١) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في . . .، البحث الخامس، ص ص٩-١١ .

(٢) كوركيس عواد، خزائن الكتب . . .، ص ١٥٢ .

الفخر يباشرها بقوة وصرامة وجلادة، وعدم التفات إلى رسالة لكبير أو صغير. حتى إن أكابر الدولة وأركان المملكة، كان الواحد منهم يحاوله على عارية كتاب واحد، وربما بذلوا المال الجزيل. فيصمم على الامتناع، بحيث اشتهر ذلك، إلى أن رفع فيه شخص أنه يرتشي في السر، فاختبرت الكتب وفهرست. فنقصت العشر سواء، لأنها كانت أربع آلاف مجلدة، فنقصت أربع مئة، فألزم بقيمتها، فقومت بأربع مئة دينار، فباع فيها موجوده وداره. وتألم أكثر الناس له، ولم يكن عيبه سوى كثرة الحيف على فقراء الطلبة وإكرام ذوي الجاه، وكان شديد الضبط لها(خزانة الكتب) ثم حصل له من سلط عليه بالخديعة إلى أن وقع التفريط، فذهب أكثر نفائس الكتب». وقد كتب سيد ـ الذي أورد هذا النص ـ بأن السخاوي ذكر أيضاً بأنه تم استدعاء الفخر عثمان حيث عزر بالضرب بين يدي السلطان(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن السياط الجائرة التي ابتلي بها الفخر عثمان لم تكن هي دائماً المكافأة التي كان يتلقاها أمناء المكتبات الإسلامية نظير عملهم في هذه المهنة. بل على العكس من ذلك، هناك دلائل قوية على المكافآت المجزية التي كانت تقدم لهؤلاء الأمناء مقابل أمانتهم وأداء أعمالهم بإخلاص وصبر وتفانٍ فعلى سبيل المثال، تذكر المصادر بأن الأمير محمد أبا الذهب أمر بتخصيص ستين نصفية من الفضة عن كل يوم عمل وستين إردباً من القمح سنويّاً لأمين مكتبة مسجد المحمدي(٢). كما يروى أن أمين مكتبة أبي عنان

---

(٢) فؤاد سيد، نصان قديمان....، ص ١٢٨-١٢٩.

(١) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الخامس، ص ١١.

بجامع القرويين كوفئ من قبل مؤسس هذه المكتبة بجراية مؤبدة - أي مدى الحياة - تكرمة له وعناية بأمره(١).

وبالمثل كان يدفع لأمين مكتبة قايتباي في الحرم المكي راتباً مقابل عمله. ويذكر معروف - نقلاً عن قطب الدين الحنفي - أن وكيل السلطان قايتباي في مكة، الخواجة شمس اليد محمد بن عمر الشهير بابن الزمن، خصص مبلغاً لخازن تلك المكتبة(٢). إلا أن قطب الدين لم يحدد قيمة هذا المبلغ. ونستطيع أن نحدده - بشكل تقريبي - قياساً على ما كان يدفعه السلطان قايتباي لأمين مكتبته بالقاهرة، وهو راتب شهري يبلغ مئتي درهم، بالإضافة إلى جراية يومية تبلغ رطلين من الخبز، أي حوالي سبعة كيلوجرامات. وتجدر الإشارة إلى أن إبراهيم أعطى مزيداً من المعلومات عن الرواتب الشهرية التي كان يتقاضاها الكثير من أمناء المكتبات في مصر خلال فترة حكم المماليك(٣).

وإلى جانب الرواتب الثابتة، كان أكثر أمناء المكتبات يمنحون هدايا وهبات وجرايات مغرية. ويذكر في هذا السبيل، هبات القمح والخبز واللحوم والحلويات وغير ذلك. كما تشير المصادر إلى أنهم كانوا يتلقون هدايا وعلاوات مالية في المناسبات الخاصة، وفي الأعياد الدينية والرسمية(٤). كما كانت

---

(١) إيفرست ليفي بروفنسال، ص ٦٨.

(٢) ناجي معروف، المدارس الشرابية...، ص ٣١٩.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الأول، ص ص ٨١-٨٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٢.

تخصص مبالغ للصرف منها على نشاطات تلك المكتبات. ويروي إبراهيم أنه بالإضافة إلى خمسة أنصاف الفضية التي خصصها الأبشادي كراتب شهري لأمين مكتبته في الجامع الأزهر، كان هذا الرجل الكريم يقوم بتوفير المبالغ اللازمة لإصلاح وترميم الكتب، وإعداد وتجهيز الخزائن والدواليب، وتعويض الأحبار والأقلام التي كان يستهلكها رواد المكتبة(١).

وفضلاً عن توليهم أمور المكتبات، كان يسمح لهؤلاء الأمناء بتولي وظائف أخرى، خاصة عندما كانت مكتباتهم لا تفتح إلا في أوقات قليلة، أو عندما تكون وظيفة أمين المكتبة تطوعية غير مدفوعة الأجر. فيروى – على سبيل المثال – أن الشيخ محمد الشافعي الجناحي عين أميناً لمكتبة مسجد الأمير محمد بك أبي الذهب بالقاهرة، وذلك بالإضافة إلى وظيفة التدريس بالمسجد نفسه، وكان أخوه الشيخ حسن الجناحي يتولى أمر المكتبة عند غيابه(٢). وقد سمح لضياء الدين التركستاني – الذي ذكرناه في فقرة سابقة - بالاحتفاظ بوظيفته الأساسية وهي التدريس بجامع أبي حنيفة، وذلك عندما عين أميناً لمكتبة الجامع نفسه عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م(٣).

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من أن الغالبية العظمى من أمناء المكتبات كانوا رجالاً وشرفاء، إلا أن هناك قلة منهم أسهمت – عن قصد أو غير

(١) عبداللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الثاني، ص ١٦.

(٢) المصدر السابق، البحث الخامس، ص ١١.

(٣) كوركيس عواد، خزائن الكتب....، ص ١٥١.

قصد - في دمار وخراب مكتباتهم، وذلك عن طريق سلب ونهب الكنوز التي جمعت فيها بكد واجتهاد على مر السنين . فعلى سبيل المثال، تشير المصادر إلى أن المجموعة الضخمة للمكتبة الحيدرية بالجامع الكبير في النجف، التي قدرت بنحو أربع مئة ألف مجلد في وقت من الأوقات، قد تضاءلت بسرعة لتصل إلى نحو مئة ألف كتاب فقط. و قد أشار الدجيلي إلى أن ضياع الكثير من مخطوطاتها النفيسة كان بسبب السرقات التي ارتكبها بعض المستعيرين من ذوي النفوس الضعيفة، أو فقدان الإشراف الدقيق والأمين من قبل بعض القائمين عليها(١).

وهناك أمناء تجردوا من الضمير والمسئولية، فعبثوا وصالوا وجالوا في مجموعات مكتباتهم حتى جردوها من كل ثمين وقيّم، كل ذلك في سبيل حشو جيوبهم بالمال الحرام. ويذكر في هذا الصدد، الأمناء الذين أوكل إليهم أمر كتب خزائن الجامع الأزهر بعد انفراط عقد مكتبته المركزية الأولى عام ١١٦٧هـ / ١٧٥٣م، حيث يقال بأن هؤلاء الأشخاص - الذين لقبوا بالمغيرين - قاموا ببيع الكثير من المخطوطات النفيسة لصالح جيوبهم الخاصة. وقد أشار أحد الكتاب إلى ذلك قائلاً : «كان في الأزهر خزائن كتب وضعت في بعض الأروقة والحارات وبعضها في المساجد القريبة كجامع الفكهاني وجامع العيني ونيط حفظها جميعها بأشخاص يقال لهم المغيرون فتصرفوا فيها تصرفاً سيئاً للغاية

(١) كاظم الدجيلي، ص ٥٩٥.

صح معه إطلاق اسم المغيرين عليهم، لأنهم غيروا وضعها وشتتوا جمعها، ومزقوا جلودها وأوراقها وتركوا ما لا عناية لهم به منها في التراب يأكله العث ويبليه التراب، وهذا غير ما تصرف فيه الملاك وصار بأيدي باعة الكتب يباع على نفاسته بالثمن البخس، ولم يبال المتصرف الأول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكتب من العبارات التي تفيد وقفها على طلبة العلم والعلماء، وبالجملة فلم يكن ليعرف للكتب قيمة ولا لينتفع بها لعدم إمكان الانتفاع»[٢].

وقد تجاوزت النفوس الضعيفة حدود خزائن الجامع الأزهر. ففي حديثها عن غروب الشمس عن ديار العرب والإسلام، أشارت عائشة عبدالرحمن إلى هذه القصة قائلة: «كانت هذه الذخائر التي بقيت لنا، مودوعة في المساجد والزوايا، بضاعة رخيصة لا تساوي وزنها ورقاً عند خدام المساجد الموكول إليهم أمرها. ورحم الله أجدادنا: وقفوا ما جمعوا من كنوز تراثنا الروحي والعلمي لخدمة العلم والدين، وأودعوها بيوت الله، وهم يحسبون أنها في دور العبادة بمأمن من الضياع. ولم يدروا أن سوف يأتي علينا وعليها حين من الدهر، يؤتمن فيه خدام المساجد والزوايا على هذه الكنوز دون رقيب، فيبيعونها بالكوم لباعة الترمس والفول كي يغلفوا فيها بضائعهم قبل أن تكثر الصحف والمجلات وتؤدي هذه المهمة. وقد حدّث شاهد عيان من أساتذتنا، أنه رأى بعينيه خادم

(٢) أبو الوفا المراغي، كلمة تاريخية...، ص ٢٧٦.

مسجد المؤيد يملأ السلال بنفائس المخطوطات، ويبيعها لمن يطلبها بأبخس الأثمان، وربما قبل بعض القوت عوضاً عن الثمن»[١].

ولم تقتصر مثل هذه الكوارث على المغرب الإسلامي، فقد وجد ضعاف النفوس بين أمناء مكتبات المشرق العربي أيضاً. وقد ذكر كرد علي هذا الأمر قائلاً: «حدثني الثقة أن أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم في دمشق، ويختلف إلى متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة وكان يبيعها على الأغلب، وأكثرها في غير علوم الفقه والحديث، من قنصل بروسيا إذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها أبيض، وبقي هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام فاجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها إلى بلاده فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها، والغالب أن معظم الكتب العربية المحفوظة في خزانة الأمة في برلين هي من بلاد الشام»[٢].

ولا ننسى في هذا الصدد العالم الأديب محمد بن محرز الوهراني وما جاء في رقعته عن مساجد دمشق من طرافة ومرارة في آن واحد. وقد أوجز المنجد خلاصة هذه الرقعة في مقدمة نشره لها بقوله: «وقد رأينا نشر هذه الرقعة لأنها من النصوص المتعلّقة بتاريخ مدينتنا دمشق، وخاصةً بتاريخ مساجدها.

---

(١) عائشة عبد الرحمن، ص ٣٩.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦: ١٩٩.

وخلاصتها أن مساجد دمشق والضياع التي من حولها أصابها في زمن نور الدين الخراب والضياع. فاجتمعت هذه المساجد، ولجأت إلى أميرها وسيدها جامع بني أمية. وكتب لها جامع النيرب قصة قدّموها إليه، ذكر فيها ما تلقاه المساجد من جور العمال، ونهب الوقوف، وخراب الحيطان والسقوف. ثم تكلّم جامع المزَّة، ثم مشهد برزة. فلما استمع مسجد دمشق إلى الكلام أشار أن يكتبوا شكواهم إلى قاضي القضاة أبي سعد بن عصرون. فقرأها وكتب على ظهرها هجاءً لمسجد دمشق. فغضب المسجد، ورفع شكواهم مع شكواه إلى الملك الزاهد نور الدين. فلما وقف نور الدين على ما كتبوا اهتمّ فأصلح أحوال المساجد. وعزل ابن عصرون»(١).

والحقيقة أن توافر - أو انتفاء - وازع الدين والضمير والعرف والأخلاق لدى القائمين على شئون المكتبات الإسلامية - أو غيرها من المكتبات - وعلى مر العصور، يعدّ أمراً يصعب التكهن به أو التنبؤ بنتائجه. وربما ضرب أمين على الوتر الحساس لهذا الموضوع عندما كتب قائلاً: «كان إنشاء هذه المكتبات تقرباً إلى الله، وعمل خير في هذه البقاع المقدسة، وهي صدقة جارية، وتَعْدِل كلّ صدقة في المَكّتَيْنِ آلاف أمثالها في البلاد الأخرى. لذلك كان السلاطين والأمراء والأتقياء يوقفون الكتب في مكة والمدينة، ويضمنون بأوقاف أخرى للإنفاق على القائمين بأمرها. وما كان يراقب هؤلاء الحفظةَ إلاّ اللهُ، ثم وجدانُهم.

(١) صلاح الدين المنجد، " الوهراني ورقعته... "، ص ٢٤١.

ولهذا اختلفت العناية بهذه المكتبات باختلاف حَفَظتها وسَدَنتها. فقد يُهيأ لإحداها رجلٌ أمين غيور حريص فينمّي عددَها ويسعى إلى حفظ ما فيها والعناية بها، كما فعل القُطْبي الذي تسلم أمانة مكتبة بمكة، ولم تكن محتوياتها لتزيد على عدة آلاف، وحين أسلم الروح كان عدد ما فيها أربعة عشر ألف مجلد. وقد يكون حظ مكتبة أخرى تاعساً إذا تسلمها غير حريص أو أمين، فتمتد إليها الأيدي السارقة، وتتبدد مع الأيام، وتذروها الرياح، أو تجرفها السيول. فكم مرة أغرقت سيول مكة المكتبة داخل الحرم لأن غرفتها كانت واطئة، وكم تحدثت الأخبار عن (أمين بن حسن الحَلْواني) أنه نقل آلاف المخطوطات النادرة من هذه الخزائن إلى أوربا فباعها »[٢].

(٢) بكري شيخ أمين، ص ص ١٨٢-١٨٣.

الفصل السادس
أفول عصر مكتبات المساجد

لم تكن أعمال التخريب المتعمدة التي ارتكبها بعض أمناء المكتبات من ذوي النفوس الضعيفة، سوى جزء ضئيل من المحن التي حلت بمكتبات المساجد، والتي أدت في نهاية الأمر إلى تقليص وتبديد كثير من مصادرها النفيسة. ولم تكن هذه الظاهرة مستقلة بنفسها، بل ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتدهور الذي أصاب العلوم والثقافة الإسلامية. ويتفق معظم المؤرخين على أنه في الوقت الذي كانت فيه أوربا تتقدم بسرعة نحو عصر النهضة، كان العالم العربي والإسلامي ينحدر بشكل واضح نحو حالة من الركود الثقافي تحت وطأة دول الاستعمار. وقد صور أحد الباحثين هذا الوضع المأساوي بقوله: «لا يكون حكماً قاسياً إذا قلنا إنه - ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي - قد وهن نشاط المدارس الإسلامية، كما ضعفت الملكة الفكرية والتناغم الثقافي والحضاري الذي عرفه العالم الإسلامي حتى ذلك الحين. وقد وعى المسلمون هذه الحقيقة وأدركوها حق الإدراك، وربما تجلى ذلك فيما جرى على ألسن الناس من وصف طلاب العلم «بالسخاء» - أي المنبوذين أو المغضوب عليهم - بعد أن كان يطلق عليهم «الطلبة»، أي ذوي الهمم والباحثين عن كل ما هو أفضل»(١).

وكغيرها من مؤسسات التعليم العامة الأخرى، تأثرت المساجد بهذا الاعتلال الثقافي الذي اعترى الدولة الإسلامية، حتى أصبحت غالبية حلقات التدريس تنفر من العلوم النظرية والتطبيقية أو النقاش والبحث العلمي المبدع.

---

(١) S. Khuda Bukhsh. "The Educational system...", P. 463.

وفي معرض حديثه عن جامع القرويين في فاس سجل لانداو ذلك الانحطاط الفكري في هذه المؤسسة التعليمية العريقة، بقوله : «على الرغم من أن جامع القرويين استمر في اجتذاب الدارسين من كل شمال أفريقيا، فإن مناهجه تجمدت أكثر وأكثر واتجهت نحو التمسك الشديد بالتعليم التقليدي، كما كان الحال في العصور الوسطى عندما كانت أوربا غير متأثرة بالتقدم الفكري في بقية العالم. فعندما كانت المغرب تنعم بحريتها واستقلالها، كان التدريس في جامع القرويين لا يقتصر فقط على علوم: التوحيد، والنحو، والمنطق، والبلاغة، والشعر، بل أيضاً الرياضيات، والهندسة، والفلك، والطب. إلا أنه، ومع منتصف القرن التاسع عشر وفي عهد الوصاية الفرنسية، نجد أن التركيز أصبح على تدريس: الفقه، والفرائض، والتوحيد، والحديث، والتصوف، والفلسفة، والمنطق. ولا نلاحظ وجود أي مادة علمية في المجتمع الدراسي على الإطلاق»[1] .

وللأسف، فقد أصبح كثير من المسلمين ينظر إلى اقتناء كتب عن موضوعات علمية أو دنيوية على أنه أمر مخالف للعقيدة. وتجنباً لريب البدع ونحوها، تم استبعاد ونبذ عدد كبير من الكتب من مكتبات المساجد وغيرها من المكتبات الأخرى. وقد زاد الطين بلّة، أن أكثر العلماء ووجهاء المجتمعات الإسلامية ـ ممن كان يؤمل فيهم حصافة الرأي والعقل ـ انضموا إلى عامة الناس

---

(١) Rom Landau, P. 105.

في انتقاد أي فكرة جديدة خلاّقة ومبدعة. كما اتجهت المجتمعات الإسلامية إلى كبت حرية الكتابة والتأليف، والتحرز على أكثر ما يكتب إلا ما كان يتعلق بموضوعات دينية بحتة. وقد برر كثير من الناس هذا التصرف بما جاء - في بعض الأقوال - على لسان الخليفة عمربن الخطاب رضي الله عنه عندما استشاره عمرو بن العاص رضي الله عنه فيما يجب عليه أن يفعل بكتب مكتبة الإسكندرية، حيث قال: «وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله، فلا حاجة إليها، فتقدم بإعدامها»[١].

ولذلك يمكن القول بأن غياب الملكة الفكرية وترسخ الجمود الذهني، ابتداءً من القرن الخامس عشر الميلادي وحتى وقتنا الراهن، يعد أحد العوامل المهمة التي أدت إلى تدهور أوضاع مكتبات المساجد بل إلى زوال الكثير منها، ولمزيد من الإيضاح يمكن تصنيف العوامل التي أدت إلى هذا الوضع - الذي أثر على مكتبات المساجد وغيرها من مساجد المكتبات الإسلامية الأخرى - إلى ثلاث فئات رئيسية؛ تتمثل الأولى في العوامل الخارجية، وتتمثل الثانية في العوامل الداخلية، أما الثالثة فهي عوامل طبيعية.

أولاً - العوامل الخارجية:

يقصد بالعوامل الخارجية تلك الأعمال التخريبية المتعمدة التي ارتكبتها بعض القوى الخارجية الدخيلة على الأمة الإسلامية. ففي سياق حديثه عن

(١) Ruth S. Mackensen. "Moslem Libraries...", 85-86.

مجموعات المخطوطات في كل من الجزائر وليبيا، يشير أحمد إلى سلب الإيطاليين والفرنسيين وقوى الاحتلال الأخرى لثروات مكتبات مساجد هاتين البلدين. فعن الجزائر يقول: «كما تعرضت مكتبات المساجد وخزانات الزوايا والتكايا أكثر من غيرها للنهب والسرقة. وقد اتخذ هذا السطو أحياناً صبغة رسمية كما وقع لكتاب (العبر) لعبد الرحمن ابن خلدون الذي نقل إلى المكتبة الوطنية الأهلية في باريس بأمر من الإمبراطور نابليون الثالث»(١).

كما تناول أحمد وضع خزائن الكتب في ليبيا بقوله: «ومما يدعو إلى الأسف أن ليبيا شأنها شأن بقية البلاد العربية كانت تضم كثيراً من المخطوطات في مساجدها وزواياها ومدارسها الدينية، ولكن كثيراً منها نهب وسرق... وأسوق هنا رواية حقيقية يرويها إيطالي معروف كان مرافقاً لقوات الاحتلال الإيطالية في سنة ١٩١١م. هذا المستشرق الإيطالي اسمه البروفسور (أوجينيو جرافيني)... يقول... إنه كان يشاهد الجنود الإيطاليين يحملون الوثائق والمخطوطات العربية والسجلات فوق عربات ويلقونها في البحر بأمر من السلطات العسكرية الإيطالية، وكانت هذه المخطوطات والوثائق من كثرتها تشبه الجبال في تكدسها وعلوها وارتفاعها. ويروي أنه نجح بعد محاولات في إقناع سلطات الاحتلال في ضرورة التوقف عن هذا العمل وإعطائه الفرصة في جمع الباقي والمحافظة عليه»(٢).

---

(٢) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في....، ص ١٥٧.

(١) المصدر السابق، ص ص ١٧٨-١٧٩.

وفي حديثه عن جامع الزيتونة بتونس، ذكر المنوني ـ نقلاً عن المؤرخ أبي عبدالله ابن أبي دينار القيرواني ـ أنه أثناء الغزو الإسباني لتونس عام ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م، قام الإسبانيون بانتهاك حرمة هذا الجامع، كما بعثرت ودمرت بعض كتبه ونهب البعض الآخر. ويروى أن الشوارع المحيطة بالجامع امتلأت بالكتب لدرجة أن بعض المارة لم تستطع تجنب الدعس عليها(١).

ويذكر في هذا الصدد ما كتبه أحد الباحثين عن نكبة المكتبة التونسية، بقوله: «ففي خلال الأحداث عبثت الأيدي بمحتويات المكتبات التونسية خطفاً وتمزيقاً وتحريقاً ودوساً بسنابك الخيل، وخير دليل على تشتت بعض محتويات المكتبة التونسية ما يوجد من آثار جامع الزيتونة بمكتبة الفاتيكان من الكتب النادرة، التي عليها خطوط ملوك بني حفص كما نجد كتب الفاطميين عند الإسماعيليين في الهند»(٢).

ولم يقتصر تدمير الكتب على شمال أفريقيا. ففي دراستها عن المكتبات الإسلامية، تذكر ماكينسين أن من شدة استيائه من الاهتمام الذي أبداه مواطنوه بالدراسات الإسلامية، أمر الكاردينال الإسباني زيمينيز، المتوفى عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، بإحراق ثمانين ألف كتاب عربي في ميدان غرناطة العام(٣). وتشير مصادر أخرى إلى أنه في الوقت الذي تحول فيه الجامع الكبير

(١) محمد المنوني، ص ٨٣٢.

(٢) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في......، ص ١٤٠.

(٣) Ruth S. Mackensen.. "Moslem Libraries"..., 83-84.

في قرطبة إلى كنيسة كاثوليكية ، تحول فيه جامع طليطلة إلى إسطبل لإيواء خيول الإسبان. وقد تحدثت عائشة عبدالرحمن عن نكبة خزائن الكتب العربية في الأندلس، قائلة : «وأحرقوا خزائن الكتب العربية على عادة العصر، فلم يسلم مما جمعه أمراؤها وألفه علماؤها من ألوف الذخائر غير ما حُمل إلى أوربا، وبقية ضئيلة ظلت مختفية حتى هدأت العاصفة وارتوى التعصب الجامح، فكانت هذه البقية نواة لمكتبة الأسكوريال بمدريد، أشهر مكتبة بإسبانيا في العصر الحديث »(١).

وحتى الجامع الأزهر لم يسلم من يد الدمار والتخريب، وذلك خلال الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت لمصر عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م. ويروي عبدالرحمن الجبرتي أحد المؤرخين المعاصرين لتلك الحملة تفاصيل القصف الفرنسي وانتهاكهم لحرمة الجامع الأزهر بقوله : «وبعد هجعة من الليل دخل الفرنج المدينة، ومروا في الأزقة والشوارع. وهدموا ما وجدوا من المتاريس وانتشروا في الطرقات وتراسلوا رجالاً وركباناً، ثم دخلوا الجامع الأزهر راكبين على خيولهم، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وقبلته، وعاثوا بالأروقة وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا أمتعتهم ودشتوا الكتب والمصاحف وطرحوها على الأرض وداسوها، وجردوا كل من وجدوه به وأخرجوه، وأصبحوا مصطفين بباب الجامع، وكل من حضر للصلاة يراهم فيكر

---

(١) عائشة عبد الرحمن، ص ٣.

راجعاً. ونهبوا بعض الدور التي بالقرب من الجامع، وخرج سكان تلك الجهة يهرعون للنجاة بأنفسهم(١).

وفي النصف الشرقي من الدولة الإسلامية، لم تسلم المكتبات أيضاً من عبث وتخريب القوى الأجنبية. ففي حديثه عن مصائب الكتب والمكاتب، أشار كرد علي إلى دخول الروم مدينة حلب وإحراقهم لها سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م، ثم حرقهم لمدينة حمص وغيرها من مدن ساحل شرق البحر الأبيض المتوسط(٢). إلا أن أعظم ضرر وقع على خزائن الكتب في بلاد الشام والعراق، كان خلال هجمات جيوش المغول أو التتار، الذين احتاجوا شرق الأمة الإسلامية اجتياح الجراد بدءاً من منتصف القرن السابع الهجري. فبالإضافة إلى الخسائر الفادحة في الأرواح والممتلكات، قام التتار بإتلاف أعداد كبيرة من الكتب والمخطوطات النفيسة التي لا تقدر بثمن ولا يمكن تعويضها. ويجمع أغلب المؤرخين أن المغول عندما دخلوا بغداد عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، أحرقوا الكثير من مكتبات تلك المدينة، كما استخدموا الكتب وقوداً يشعلون بها نيرانهم(٣). أما ما لم يدمر أو يحرق، فقد قذف به في دجلة، حتى سدت الكتب مجرى النهر، وسار الناس عليها ما بين شطيه وكأنها جسر معقود(٤).

---

(١) صالح جودت، ص ٩٣.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦: ١٩٦-١٩٧.

(٣) Mehdi Nakosteen, P. 78.

(٤) عائشة عبد الرحمن، ص ٣٦.

وكما حلت نكبة التتار ببغداد، حلت أيضاً بمدينة دمشق وخزائن كتبها. وقد أدى الغزو المغولي لدمشق إلى تدمير ونهب آلاف لا تحصى ولا تعد من الكتب، ومن ذلك كثير مما كان يوجد في خزائن المساجد والجوامع. ويذكر كرد علي أن تيمور لنك قام في عام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م بإضرام النار لمدة ثلاثة أيام متتالية في دور دمشق ومدارسها وجوامعها، مما تسبب في احتراق أكثر خزائن كتب تلك المدينة[١]. وقد ذكر الكاتب نفسه - في موضع آخر - أنه هلك خلال تلك الحادثة كثير من سكان دمشق - كان من ضمنهم نحو ثلاثين ألف نسمة - معظمهم من النساء والأطفال، لجأوا إلى الجامع الأموي ظنّاً منهم أن النيران لن تصله، ولكن هجمة التتار وصلت إليهم حتى في ذلك المكان الذي يفترض أن يكون آمناً من كل اعتداء[٢].

وبالمثل قام تيمور لنك ورجاله بتدمير العديد من خزائن الكتب في مدينة حلب، ومن ذلك خزانة الجامع الكبير. ويحدثنا مؤلف «نهر الذهب في تاريخ حلب» عن الدمار الذي لحق بمكتبات تلك المدينة فيقول: «أما المكتبات المفقودة في حلب، وكانت على جانب عظيم من الغنى فهي مكتبة بني الشحنة، ومكتبة بني العديم، ومكتبة بني الخشاب، وغيرهم من الأسر العلمية التي كانت من أجلّ بيوتات العلم في حلب، ومن تلك المكتبات مكتبة الجامع

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ : ١٩٨.

(٢) محمد كرد علي، " دمشق : مدينة... "، ص ٣٣.

الكبير، ومكتبات المدارس الكبرى كالمدرسة السلطانية والعصرونية والحلوية والشرقية والرواجنة، فإن جميع هذه المكتبات فقدت برمتها في حادثة تيمور لنك، فمنها ما استأثر به تيمور لنك وأتباعه !!، ومنها ما انتهبته العامة أثناء تلك الحادثة وطرحوه في زوايا بيوتهم، ثم باعوه بأبخس الأثمان»[١].

ولم يكن هلاك خزائن الكتب على يد المغول وحدهم، بل شارك في ذلك الغزو الصليبي الذي انقض على قلب الأمة الإسلامية - ولقرنين كاملين - يدمر ما يدمر، ويحرق ما يحرق، وينهب ما ينهب. ولا عجب أن يصف أحد المؤرخين هذه الحالة بقوله : «فالمصيبة الأولى بل العظمى التي أصابت الكتب في الشام كانت على عهد الصليبيين»[٢]. والحقيقة أن الصليبيين - وكما كان الحال مع التتار - لم يفرقوا بين الخزانة وتلك، أو هذا النوع وذاك. فكلها كانت كتب، وكلها كانت قابلة للنهب والتدمير. فها هي خزانة أسامة بن منقذ أحد أصحاب قلعة شيزر، يُنهب ويُبعثر ما فيها من كتب فاخرة بلغ تعدادها أربعة آلاف مجلد[٣]. وهذه خزانة كتب بني عمار في طرابلس، يدخل إليها قس متعصب جاهل، فيرى ما يرى من مصاحف كثيرة جميلة ومزخرفة، فيأمر بحرق المكتبة عن بكرة أبيها، حتى أصبحت أثراً بعد عين، وفقد المسلمون

---

(١) سامي الكيالي، ص ٢١٦.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ : ١٩٨.

(٣) المصدر السابق والصفحة ذاتها.

بذلك كتباً لاتعد ولا تحصى قيمة وعدداً[١].

ولم يقتصر نهب وتدمير خزائن الكتب الإسلامية - ومن ذلك مكتبات المساجد - على حروب وصراعات تاريخية قديمة، وإنما واجهت هذه الخزائن - أو بعضها على الأقل - مصائر محزنة نتيجة فتن وأهوال أكثر حداثة. فقد تأثرت المكتبات الإسلامية بانفراط عقد الأمة وضعف الهمة، كما انعكس عليها سلباً مجريات أحداث الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما تبع ذلك من استبداد وتسلط القوى الأجنبية وهيمنتها على كثير من أجزاء العالم العربي والإسلامي. ومع زوال الخلافة العثمانية، عمّت ظلمة الليل الغاشي، وهان التراث على أهله، وتسربت كنوز المسلمين إلى الغرب وهم نيام، وأبيحت خزائن كتبنا للأجانب، فاستحلوا ما استحلوا، وسرقوا ما سرقوا، وابتاعوا ما ابتاعوا. ويحدثنا كرد علي عن ذلك قائلاً: ومن المصائب التي أصيبت بها الكتب أن بعض دول أوربا ومنها فرنسا وحكومات ألمانيا وبريطانيا العظمى وهولندا وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين، وكان القوم ولا سيما بعض من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم[٢].

(١) Olga Pinto, PP. 235-236.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ : ١٩٨-١٩٩.

ثانياً ـ العوامل الداخلية :

ربما يقع اللوم الأكبر على المسلمين أنفسهم في تلك الخسارة المأسوية التي حلت بكثير من مجموعات الكتب، داخل المساجد أو خارجها. وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من الكتب فقد بسبب الإهمال أو الجهل، إلا أن أعداداً موازية ـ أو حتى أكثر ـ أتلفت، أو نقلت، أو عبث بها بطريقة أو أخرى. فعلى سبيل المثال، لم يشعر سلاطنة الدولة العثمانية بحرج أو بوخز الضمير عندما وجدوا مكتباتهم هناك في إستانبول وقد امتلأت بأعداد لا تحصى من الكتب النادرة، التي صادرها مندوبوهم من المكتبات العربية التي كانت خاضعة لسلطانهم، وقد تناولت عائشة عبدالرحمن هذا الموضوع بقولها : ولم يكن حرص السلاطين على اجتلاب هذه الثروة العلمية والأدبية عن تقدير لقيمة المخطوطات أو الانتفاع بها، على نحو ما شهدنا من صنيع الخلفاء في عصور القوة والنهضة. وإنما سلبوها إرضاء لشهوة التملك والاقتناء، واستكمالاً لمظهرية السلطان. وكان أقصى ما قدروه من قيمة لها، هو استغلالها في التعزير بالجماهير المتدينة، التي يحكمها الترك العثمانيون باسم الإسلام. فراح السلاطين يبنون المساجد التي تحمل أسماءهم، ويكدسون فيها الذخائر من تراث العربية والإسلام، حيث بقيت هناك أكواماً تملأ السراديب والدهاليز، دون أن تُعرف لها قيمة أو يرجى منها نفع[١].

---

(١) عائشة عبد الرحمن، ص ٣٨.

ومما يذكر في هذا الصدد، أن أغلب الإدارات التركية التي تعاقبت على حكم تونس، نهبت كثيراً من الكتب القيمة التي وجدت بالمكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة، وذلك قبل أن يعيد تنظيمها الوالي أحمد باشا الأول عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م. وربما كانت أكبر هذه السرقات ما أقدم عليه باي قسنطينة عندما أخذ الجانب الأكبر من نفائسها في عام ١١٦٩هـ / ١٧٥٥م[١].

وتشير مصادر أخرى إلى أن الحاكم العثماني لمصر سليم شاه، قام بسلب الكثير من الكتب النادرة والمخطوطات النفيسة من الجامع الأزهر، وغيره من المساجد والمؤسسات العلمية في مصر، وأرسلها إلى وطنه تركيا[٢].

وبجانب تونس ومصر، عانت ليبيا من سطو العثمانيين على تراثها الفكري والاجتماعي. ففي حديثه عن التراث العربي المخطوط في ليبيا، أشار أحمد إلى هذا الموضوع بقوله : «وللأسف فإن كثيراً من المخطوطات العربية والوثائق التاريخية قد تم السطو عليه وحملت إلى إستانبول إبان العهد العثماني ١١٢٥هـ / ١٧١١م، وكذلك إبانَ العهد العثماني من ١٣٢٩هـ / ١٩١١م. وخاصة الفرمانات السلطانية العثمانية، ومعروف أن تركيا عندما خرجت من ليبيا حملت معها كثيراً من المخطوطات والوثائق الموجودة حتى الآن في تركيا، وبعضها على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تتعلق بالحدود الليبية والتونسية،

(١) محمد عبد القادر أحمد، " المكتبة التونسية. . . "، ص ١٨٦.

(٢) عبد الحميد يونس وغيره، ص ١٤٢.

وتحدد أماكن القبائل الليبية، وحركتها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وأسماء الأماكن الخاصة بها والجبال والوديان، وعيون المياه وغير ذلك. وكثير من هذه الوثائق المأخوذة مدون باللغة العربية. وقد بليت ليبيا خلال العهد الأول والثاني بهذا النهب لمخطوطاتها ووثائقها شأنها شأن جميع البلاد العربية. التي دخلها الأتراك، فهم لم يكتفوا بسلب عمالها الفنيين وحرفييها ومهندسيها وحملهم إلى إستانبول لتعميرها وبناء مساجدها وتزيينها بالخطوط والزخرفة العربية، وإنما تعدوا أيضاً على أثمن ما يمكن أن تملكه أمة من الأمم.. وهو تراثها المتوارث الذي دونه الأجداد، والمتمثل في مخطوطاتها التي تحوي أثمن ما خلفته العقول الفذة في مختلف الفنون والعلوم والآداب»[١].

وفي الأحداث التي أحاطت بإعادة فتح مكتبة قبة بيت المال في الجامع الأموي بدمشق، ما يؤكد عدم إحساس أو اكتراث ولاة الأمر العثمانيين بتراث الشعوب التي تخضع لسلطانهم. وما يروى في هذا الصدد كفيل بإيضاح هذه النقطة: «ومن الخزائن المشهورة التي بعثرت في عهدنا ولم نعرف متى جمعت خزانة قبة صحن الجامع الأموي بدمشق وكانت مملوءة برقوق نفيسة ففتحت سنة ١٣١٧هـ بأمر السلطان عبدالحميد الثاني إجابة لمقترح الإمبراطور غليوم الثاني الألماني فعثروا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي ومنها قطع مهمة من مصاحف وربعات وقطع من الأشعار

(١) محمد عبد القادر أحمد، المكتبة التونسية...، ص ١٨٦.

المقدسة بالآرامية الفلسطينية وكتابات دينية وأدبيات دينية وقصص رهبانية ومزامير عربية مكتوبة بالحرف اليوناني ومقاطيع شعرية لهوميروس، وكراريس وأوراق بالقبطية والكرجية والأرمنية في موضوعات دينية إلا قليلاً، وجذاذات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة وتقاويم أعياد السامريين وصلوات وصكوك للبيع والأوقاف وعهود زواج وبينها مقاطيع لاتينية وإفرنسية قديمة وقصائد شعرية يرتقي عهدها إلى أيام الصليبيين ونسخ إنجيل برقوق. فأهدى السلطان معظمها لعاهل ألمانيا ووزع قسم منها على بعض رجال الآستانة ورجال دمشق واستُخلصت بعض قطع منها حفظت الآن في دار الآثار في هذه المدينة وأهمها تلك القطعة الكوفية المكتوبة على رق من ربعة شريفة وقفها عبدالمنعم بن أحمد سنة ٢٩٨ هـ وعلى الوجه الثاني نَقْش مذهب باسم واقفها. ورأى شيخنا زين العابدين صلوات الله عليه وعلى أبنائه الأئمة سنة نيف وسبعين وأربعمائة »[١].

وفضلاً عمّا سبق، يمكن القول بأنه قد لحقت أضرار كبيرة بمكتبات المساجد، وغيرها من خزائن الكتب الإسلامية، وذلك نتيجة الخلافات الداخلية والفتن والصراعات المذهبية والطائفية. وقد لخصت عائشة هذه الحقيقة بقولها : " ثم انكسرت الموجات الصليبية على سواحل مصر والشام، بفضل الجبهة الموحدة في قلب الشرق الإسلامي، ولم تنجُ بقايا تراثنا من معارك الصراع

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦: ١٩٩-٢٠٠.

المذهبي الذي احتدم ضرامه على ساحة الدولة الكبرى. فحيثما أتيح لأصحاب مذهب مجالُ نفوذ وسلطان، ألحوا على كتب خصومهم حرقاً وإتلافاً، على ما يسجله تاريخنا السياسي والمذهبي. ومع أن مثل هذا التدمير كان موجهاً بصفة خاصة إلى كتب المذاهب، إلا أن لهب الحريق لم يكن يميز بينها وبين غيرها. وقد كان الحكام المذهبيون يريحون أنفسهم بإحراق الكتب جملة، وقد تعذر فحص الملايين منها، إلا أن يتاح لهم - في القليل النادر - مستشار رشيد، ينقذ ذخائر التراث التي لا شأن لها بصراع المذاهب»[1].

ويحفل التاريخ بأمثلة كثيرة على هذه الحقيقة. فمن ذلك ما ذكره المؤرخون من أنه عندما تمرد الجنود الأتراك في عام ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م، مطالبين بزيادة مرتباتهم، اضطر الخليفة الفاطمي المستنصر ابن الظاهر العلوي إلى بيع كنوز قصره، كما سطا الجنود على ذخائر الكتب في مكتبة العزيز بالله، ودار العلم، والجامع الأزهر، فحملوا منها ما حملوا وباعوه في الأسواق بأبخس الأثمان، كما قاموا بنزع الأغلفة الجلدية للكتب واستخدموها في صناعة أحذيتهم[2].

ويذكر مصدر آخر أن الذين قاموا بتلك الأعمال هم عسكر السودان، وأنهم جمعوا ما لم ينهب أو يحرق أو يباع من الكتب، وتركوها في ضاحية رملية من ضواحي القاهرة، حتى غطاها التراب بمرور الوقت، وأصبحت على شكل مرتفعات عرفت بعد باسم تلال الكتب. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الجنود -

(١) عائشة عبد الرحمن، ص ٣٤.

(٢) المصدر السابق، ص ص٣٤-٣٥.

أكانوا أتراكاً أم من السودان - برروا أفعالهم بأن تلك الكتب كانت تحوي كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم(١).

ويذكر في هذا الصدد أيضاً، ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما دخل القاهرة في عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م وقضى على الخلافة الفاطمية. فقد صادر صلاح الدين الأيوبي جميع كتب المكتبات الفاطمية، حيث أمر بإتلاف بعضها وطرح البعض الآخر للبيع. ويقال إنه قام بذلك استجابة لنصيحة بعض مستشاريه بضرورة التخلص من تراث الفاطميين من الكتب، لأن فيها ضرراً على الإسلام. وفي حال صدق هذه الرواية - التي نقلها أكثر من مؤرخ - فلا شك أن مكتبات العديد من المساجد والجوامع المصرية قد نالها ما نال غيرها من المكتبات الفاطمية. ويكفي ما ذكره المقريزي، وسبق أن أشرنا إليه، بأن الحاكم بأمر الله وجّه بنقل الكثير من الكتب التي كانت بدار الحكمة إلى الجامع الأزهر، ومسجد المقس، ومسجده هو - أي جامع الحاكم - وقد ذكر البعض أن خزائن الجامع الأزهر في ذلك الحين كانت تضم أكثر من خمسين ألف كتاب. ولاشك أن العديد من هذه الكتب كان في صف الفاطميين ومؤيداً لدعوتهم(٢).

ويلوم بعض المؤرخين السلطان صلاح الدين على تبديد بعض الكتب التي

---

(٤) محمد ماهر حمادة، ص ١١٩.

(١) المصدر السابق، ص ١٢٠. أيضاً: عائشة عبد الرحمن، ص ٣٥. أيضاً: صالح جودت، ص ١٧٨.

كانت بمكتبة الصوفية في الجامع الكبير في حلب، حيث يروى أنه عندما دخل مدينة حلب عام ٥٧٩هـ / ١١٨٣م، أذن لتاج الدين محمد المسعودى ـ وهو معلم أحد أبنائه ـ بأن يقوم بفحص كتب مكتبة الصوفية وأخذ ما يرغب من كتبها. ويروي أحد شهود العيان ـ واسمه أبو البركات الهاشمي الحلبي ـ بأن المسعودى قام باختيار عدد كبير من الكتب حشاها في عدل دون أن يعترضه أحد[١] ويقول حمادة بأن المسعودى قبيل وفاته أوقف كل كتبه ـ والتي كان من بينها تلك الكتب التي أخذها من المكتبة الصوفية ـ على خزانة الخانقاه السميساطية بالقرب من الجامع الأموي في دمشق[٢].

وتعدّ هذه الخسارة بسيطة إذا ما قورنت بما واجهته هذه المكتبة العريقة قبل تلك الحادثة بنحو قرن وربع القرن من الزمن. فقد ذكر المؤرخ كمال الدين ابن العديم الحلبي بأن نزاعاً نشب بين أهالي مدينة حلب، وذلك قبل وفاة شاعرها أبو العلاء المعري بفترة قصيرة(توفي المعري في عام ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م). وعلى أثر هذا النزاع سادت حلب فوضى كبيرة تم خلالها نهب وإحراق مكتبة الجامع الكبير، التي كان فيها عشرة آلاف مجلد من وقف سيف الدولة الحمداني. ويقال إنه لم ينج من تلك الواقعة إلاّ القليل من الكتب[٣]. وهناك دليل على استمرار حدة الصراع الطائفي في حلب لعدة أعوام؛ حيث تشير بعض المصادر

(١) محمد أسعد طلس، " المخطوطات وخزائنها... "، ص ١٣. أيضاً : سامي الكيالي، ص ٢١٢.
(٢) محمد ماهر حمادة، ص ١٦٤.
(٣) Youssef Eche, P. 132.

إلى أنه في عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م، ونتيجة لتأليفه كتاباً لم ترض عنه طائفة من سكان المدينة، فقد اتهم أبو المحاسن ثابت النحوي ـ القائم على تلك المكتبة ـ بفساد الرأي والعقيدة، ثم أخذ إلى مصر وصلب هناك(١).

وبجانب النزاعات الداخلية والصراعات الطائفية والمذهبية، فقد عانت مجموعات الكتب من السلب والنهب والاختلاسات المتعمدة وهناك أمثلة كثيرة نذكر بعضها في هذا السياق. ففي معرض حديثه عن المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة، كتب أحد الباحثين أن الأمير زكريا بن أحمد الحفصي قام بإفراغ تلك المكتبة العريقة من معظم ذخائرها ومخطوطاتها النفيسة وباعها(٢). غير أن الكاتب لم يشر إلى دوافع الأمير إلى هذا الإجراء المتطرف. وقد سبق أن ذكرنا قيام باي قسنطينة العثماني بأخذ الجانب الأكبر من نفائس هذه المكتبة في عام ١١٦٩هـ / ١٧٥٥م.

وفي حلب قام الأشرف أبو العباس أحمد سبط ابن السفاح بوقف خزانة كتب على مسجد السفاحية. ولكن ابنه الزيني عمر قام بعد موت والده ببيع كتب هذه الخزانة(٣). وتروي عائشة عبد الرحمن ـ نقلاً عن مؤلف كتاب «خزائن الكتب العربية في الخافقين» ـ قائلة: «وذكر (الكونت فيليب دي طرازي) أن خادماً يدعى (ابن السليماني) عين في منتصف القرن التاسع

---

(١) محمد عبد القادر أحمد، " المكتبة التنسية... "، ص ١٨٦.

(٢) Youssef Eche, P. 132.

(٣) عائشة عبد الرحمن، ص ٣٩.

عشر، خازناً لثلاث مكتبات كبرى في مساجد مصر وجعل له ديوان الأوقاف راتباً شهريّاً قدره خمسة وعشرون قرشاً، وكان الرجل يستعين على العيش ببيع قصب السكر. فجعل يقف في زاوية تحت سلم مدرسة السلطان حسن، ويضع بجانب بضاعته من القصب، أكواماً من مخطوطات المكتبات الثلاث، يبذلها لمن يدفع له القرش والقرشين».

وفي سياق حديثه عن مكتبات بغداد، يذكر زيدان أن أغلب كتب مكتبة جامع القمرية قد نهبت، وأن ما تبقى من مجموعات هذه المكتبة ليس بذي قيمة كبيرة[1]. ويروي الدجيلي بأن المكتبة الحيدرية في الجامع الكبير - جامع الإمام علي - بمدينة النجف أيضاً قد نهبت مجموعاتها النفيسة، ويقول في ذلك حدثنا جماعة من الفضلاء أنه كان في خزانة كتب الإمام علي نحو ٤٠ ألف كتاب وبالغ بعضهم فقال زهاء ٤٠٠ ألف كتاب وقد جمعت هذه الخزانة نفائس الكتب وأمهاتها التي عز وجود مثلها في الدنيا. كيف لا وهي مما يجب أن يهدى لحضرة الإمام. ولكن قد تلف جل هذه الكتب بل قل كلها إذ لم يبق منها إلا عدد يسير لطلاب العلم والمطالعين من الناس على اختلاف طبقاتهم بدون شاذ. ولما كان ذلك بهذه الصورة صار الداخل إليها إذا خرج أخبأ تحت عباءته الكتب التي يريد سرقتها ويخرج بها بدون أن يفتشه أحد ولكثرة السراق ظهر النقص فيها ظهوراً لا يمكن إخفاؤه على ذي عينين إذ لم يبق منها

(١) جرجي زيدان، ٤ : ١٣٠.

ما يناهز المئة وحينئذٍ أغلقت أبواب الخزانة ومنع الطلاب والمطالعون(١).

ثالثاً ـ العوامل الأخرى:

فضلاً عن العوامل الخارجية والداخلية، حلت بالمكتبات الإسلامية، ومنها مكتبات المساجد، عوامل بيئية، والبعض الآخر تسببت به أيدي الناس. وبصرف النظر عن أي من العاملين فقد أدى كلاهما إلى تدمير مجموعات تلك المكتبات. وفي بعض الحالات كان الإهمال واللامبالاة يدب بالمكتبات فور إنشائها، وكانت النتيجة تحول المخطوطات النادرة والنفيسة إلى غذاء للديدان والحشرات، أو أن تتلف تدريجيّاً من فعل التراب والغبار. وقد جاء في الموسوعة الإسلامية ما يؤكد ذلك : «كان الإهمال المخيف يبدأ فور إنشاء بعض المكتبات، وبدلاً من أن تصبح الكتب سبيلاً لإثراء العلماء والدارسين، تحولت إلى أماكن لتكاثر الديدان. وحيث إن السيطرة على أمناء المكتبات لم تكن صارمة بالشكل المطلوب، أصبح الكثير من الكتب التي عهد بها إليهم في حالة لا يمكن معها استخدامها دون أن تتساقط أوراقها فتاتاً »(٢).

وفي تقريره عن مكتبة الأزهر سنة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م، ذكر حسين عيسى أن كثيراً من الكتب الثمينة التي كانت مودعة بخزائن الأروقة تسرب إلى أوربا بواسطة سماسرة الكتب وبسبب الجهل وانعدام الوازع الخلقي لدى أكثر القائمين على تلك الخزائن. ثم ألحق عيسى ذلك بقوله : «فحين رئي تنظيم

---

(١) كاظم الدجيلي، ص ص٥٩٥-٥٩٦.

(٢) Encyclopaedia of Islam, 2: 1046.

الجامع الأزهر وتوحيد مكتبته، ظهر وهن الضمائر وضعف النفوس وإهمال الواجب نحو الكتب التي لعبت بها أيدي الضياع، فتسرب بعضها، وأهمل البعض الآخر للحشرات والأتربة فتلفت أوراقها وبليت ومزقت وخرمت وقطعت جلودها وأصبح لا يوجد منها كتاب سليم مستقيم إلا ما ندر»(١). وقد سبق أن ذكرنا أن العالم المصري محمد بيرم قام في عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م بزيارة لمكتبة جامع القيروان. وقد كتب فيما بعد أن ما تبقى من هذه المكتبة العريقة ما هو إلا رزم من الكتب وجزيئات الكتب والأوراق المربوطة بالحبال، التي يعلوها التراب والغبار وخيوط العنكبوت(٢). ويبدو أن هذا الوضع استمر حتى وقت قريب، حيث ذكر تقرير بعثة معهد المخطوطات العربية ـ التي زارت تونس في عام ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م ـ بأن معظم مخطوطات المكتبة العبدلية والمكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة، مهملة وبحالة سيئة لكثرة ما عاثت الأرضة فيها(٣).

ومن أمثلة الكوارث الطبيعية التي كان لها أثرها في إتلاف بعض المجموعات، ما أصاب المكتبة المجيدية التي أسسها السلطان العثماني عبد المجيد بالحرم المكي، حيث أتلفت السيول كثيراً من الكتب التي كانت فيها. وقد ذكر باسلامة هذه الواقعة في كتابه «تاريخ عمارة المسجد الحرام» بقوله: «وسبب ذلك(أي نقل المكتبة إلى ما فوق باب دريبة) أنه دخل سيل عظيم المسجد

(١) أبو الوفا المراغي، "كلمة تاريخية..."، ص ٢٧٥.

(٢) محمد بيرم، ص ٢٤٣.

(٣) صلاح الدين المنجد، "بعثة معهد..."، ص ٣٩٢.

الحرام وأتلف كثيراً من الكتب والأشياء التي كانت به. فاقتضى رأي الولاة في ذلك العصر إلى نقل الكتب من إحداهما (أي القائمة التي كانت تعرف بقبة الشراب بقرب بئر زمزم) ووضعها في دار الكتب التي هي المدرسة على باب الدريبة، وهدم هذه القبة وقبة العباس وجعل موضعهما رحبة بالمسجد الحرام توسعة للمصلين»[١]. وتجدر الإشارة إلى أن هذا السيل كان واحداً من السيول العديدة التي أتلفت خزائن الكتب بالمسجد الحرام. وقد ذكر المؤرخ محمد بن عبد الله الأزرقي أن سيل عام ٤١٧هـ / ١٠٢٦م «دخل الحرم ووصل إلى خزائن الكتب فأتلف منها الشيء الكثير، ووصل إلى قناديل المطاف وعبر في بعضها من فوقها، ومات نحو ستين نفراً تحت الردم وبلّ جميع الكتب في قبة الكتب»[٢].

وبجانب السيول تعرضت بعض البلاد العربية لزلازل مدمرة، ومن ذلك زلزلة عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م التي أشار إليها أحد المؤرخين بقوله: «وفي سنة ٧٠٢هـ داهمت الشرق الأدنى زلزلةٌ عنيفة خرَّبت قسماً عظيماً من بلاد مصر والشام، وأخرجت المياه من الآبار إلى سطح الأرض، وفاضت البحار اليابسة فأغرقت خلقاً كثيراً، وأصابت الزلزلةُ (الأزهرَ) وسائر مساجد القاهرة بأذاها»[٣]. وبجانب هذه الزلزلة، يذكر المؤرخون زلازل أخرى ضربت مدينة دمشق

(١) محمد خضر عريف، ص ص٥٤٦-٥٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٤٨.

(٣) محب الدين الخطيب، ص ١٥.

وألحقت بها وبجامعها الأموي خسائر فادحة. وقد أكد كرد علي هذا الأمر، كما أشار إلى عدة زلازل نتج عنها أضرار كبيرة للمسجد الأقصى(١). والحقيقة أنه من الصعب أن نتصور أن تكون تلك الزلازل قد تسببت فيما تسببت به من خسائر في الأرواح والممتلكات دون المساس بخزائن الكتب. فالغالب، إذاً، أن مجموعات الكتب في مكتبات المساجد وغيرها من المكتبات الإسلامية قد تأثرت سلباً بتلك الزلازل. وعلى الرغم من قلة الإشارات التاريخية بشأن هذا الموضوع، إلاّ أنه لا يعقل أن نقرأ بأن المنارة قد وقعت، أو أن السقف قد انشق وتهدم، أو أن القبة والرواق الفلاني قد خربا، أو أن الحجارة العظام قد زالت، دون أن تكون بعض الكتب هنا وهناك قد تلفت أو طمرت تحت الأنقاض.

إلاّ أنه وعلى الرغم مما ذكر بشأن السيول والزلازل، تظل أعداد الكتب التي تلفت أو فقدت بسبب تلك الكوارث قليلة نسبيّاً إذا ما قورنت بمجموعات وخزائن الكتب التي التهمتها النيران عمداً أو عن غير قصد. والإشارات حول هذا الموضوع أكثر عدداً ووضوحاً. ويذكر في هذا الصدد الحرائق العديدة التي نشبت في الجامع الأموي بدمشق، والتي يقدرها المؤرخون بنحو عشرة على الأقل(٢). وقد نتج عن هذه الحرائق - التي كان بعضها متعمداً - أضرار بالغة في

(١) صلاح الدين المنجد، مسجد دمشق...، ص ١١-١٩. أيضاً: محمد كرد علي، خطط الشام، ٥: ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٩.

(٢) صلاح الدين المنجد، مسجد دمشق...، ص ١١-١٩؛ و "قرة العيون..."، ص ٢٧٧. أيضاً: محمد كرد علي، خطط الشام، ٥: ٢٧٨-٢٧٩. أيضاً: جرجي زيدان، ٤: ١١٧.

الأرواح والممتلكات، بما في ذلك مجموعات الكتب داخل الجامع وخارجه. ومن أكثر الحرائق إضراراً بكتب الجامع ما حدث في عام ٤٦١هـ / ١٠٦٨م، وعام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م، وعام ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م. ويقال بأن حريق عام ١٣١٠هـ التهم - فيما التهمه - مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد قديم بمدينة بصرى، وكان الناس يقولون إنه المصحف العثماني[1]. كما التهمت الحرائق خارج الجامع كتباً لا حصر لها. وتتضح هذه الحقيقة مما رواه أحد المؤرخين عن حريق عام ٦٨١هـ / ١٢٨٢م قائلاً: «احترق في رمضان سوق اللبادين وسوق جيرون بدمشق إلى حيطان الجامع، واتصل الحريق إلى حمام الصحن ودار الخشب. واستمر ثلاثة أيام. واحترق سوق الكتبيين. فكان مما احترق فيه لشمس الدين إبراهيم الجزري الكتبي خمسة عشر ألف مجلد غير الكراريس والأوراق»[2].

ولم تكن كتب الجامع الأموي الوحيدة التي عانت من مصائب الحرائق. فنقل عن جمال الدين عنبه، ذكر عواد أن الخزانة الحيدرية أو الغروية، في الجامع الكبير - جامع الإمام علي - بمدينة النجف، احترقت في عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، وأن من ضمن ما التهمته النيران مصحفاً في ثلاث مجلدات يقال إن الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه خطه بيده[3]. كما أشار المؤرخان محمد بن إياس

---

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ٥: ٢٧٩.

(٢) صلاح الدين المنجد، مسجد دمشق...، ص ١٧.

(٣) كوركيس عواد، خزائن الكتب...، ص ١٣١-١٣٢.

وعلي السمهودي إلى قيام السلطان الأشرف قايتباي بإرسال مجموعات من الكتب هدية منه للمسجد النبوي عندما علم باحتراق كتب المسجد في الحريق الذي شبّ فيه عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م[١]. ونقرأ أيضاً عن حريق ألمّ بجامع مدينة أصفهان وأتى على نحو خمس مئة مصحف من المصاحف الثمينة، من جملتها مصحف ذكر أنه بخط أُبي بن كعب[٢]. وتشير المصادر إلى أن النيران أتت على المكتبة القادرية بجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني في مدينة بغداد، وذلك في عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م زمن الشاه إسماعيل الصفوي[٣]. وقد سبق أن ذكرنا حرق الخزانة الصوفية أو الشرقية بالجامع الأموي الكبير في حلب، وذلك خلال منازعات طائفية وقعت بين سكان المدينة[٤]. كما لم تسلم خزائن كتب تونس من هذا البلاء، حيث عبثت أيدي الفتن القبلية و الطائفية بمحتوياتها «خطفاً وتمزيقاً وتحريقاً ودوساً بسنابك الخيل»، وذلك ابتداءً من أوائل القرن الثاني عشر الهجري[٥].

ولم يقتصر اضطهاد خزائن الكتب وإحراقها على تونس. فهذه المغرب أيام المرابطين والموحدين، يؤمر فيها بإحراق فئات معينة من الكتب، ويوعد من

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في...، البحث الأول، ص ص٣١-٣٢.

(٢) كوركيس عواد، خزائن الكتب...، ص ٢٨.

(٣) إبراهيم الدروبي، ص ١٩٠.

(٤) محمد أسعد طلس، "المخطوطات وخزائنها..."، ص ١٣.

(٥) محمد عبد القادر أحمد، "المكتبة التونسية..."، ص ١٨١.

يخالف ذلك بسفك دمائه واستئصال ماله. وقد أشار أحد المؤرخين إلى هذا الوضع المحزن بقوله: «وفي أيامه(أي سلطان الدولة الموحدية محمد بن تومرت) انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر بإحراق كتب المذهب... فأحرق منها جملة في سائر البلاد، وقد شاهدت ذلك وأنا بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار؛ وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء من أو أمر جماعة ممن كانوا عنده من علماء المدينة بجمع أحاديث من المصنفات المشهورة في الأحاديث كالبخاري ومسلم فجمعوا ما أمرهم بجمعه فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه»(١). كما اضطهدت الكتب وأحرقت في الفردوس المفقود قبل وبعد خروج المسلمين منه. فقد سبق أن أشرنا إلى قيام الكردينال الإسباني زيمينيز بإحراق حوالي ثمانين ألف كتاب عربي في الميدان العام بمدينة غرناطة. ولكن المحزن حقّاً أن نقرأ أن سلطان إشبيلية، المعتضد ابن عباد، غضب على عالم الأندلس أبي محمد علي ابن حزم، فطارده، وهدم دورته، وصادر أمواله وأملاكه، وأحرق كتبه علانية. فلما بلغ ابن حزم ما حصل لكتبه، أنشد قائلاً:

دعوني من إحـــراق رق وكـــاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صـدري

يســير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قـــبري(٢)

(١) محمد ماهر حمادة، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠١- ٢٠٣.

ولا ننسى في هذا السبيل جهل وحماقة البعض، وحتى الغيرة العمياء غير المبرر لها. ففي حديثه عن صحف الكتابة وصناعة الورق في الإسلام، نقل زيات حكايتين عن أبي أصيبعة: «حدثني نسيب لموفق الدين بن المطران أنه لما توفي كانت عنده مسوّدات عدة مصنّفات طبيّة وغيرها وتعاليق متفرقة فأخذ أخواته تلك المسودات وضاعت بينهن وقال لي إنه رأى عند إحداهن صندوقاً أرادت أن تبطنه وقد ألصقت في باطنه مجلة من هذه الأوراق التي بخطه».

وقال أيضاً في ترجمة الأمير محمود الدولة أبي الوفاء المبشر بن فاتك الآمري الطبيب بعد أن وصف خزائن كتبه ودأبه في المطالعة والكتابة: «كانت له زوجة كبيرة القدر أيضاً من أرباب الدولة فلما توفي رحمه الله نهضت هي وجواريها إلى خزانة كتبه وفي قلبها من الكتب، وأنه كان يشتغل بها عنها فجعلت تندبه وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها. فهذا سبب أن كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال»(١).

وباختصار، فإن الغالبية العظمى من خزائن كتب المسلمين ـ بما في ذلك مكتبات المساجد ـ هلكت نتيجة أهوال ومصائب، بعضها يعزى إلى عوامل البيئة، والبعض الآخر كانت بفعل الإنسان نفسه. وعلى الرغم من استقرار وضع هذه المكتبات في السنوات القليلة الماضية ـ خاصة بعد زوال قوى الاستعمار ـ إلا

(١) حبيب زيات، مج ٤٨، ع ١ : ٤.

أن الضرر الذي حصل لا يمكن تغييره أو إنكاره. وحرصاً منها على الحفاظ على ما تبقى من مخطوطات وكتب نادرة، قامت أكثر الدول العربية والإسلامية بإنشاء مكتبات ودور محفوظات وطنية، هدفها جمع ما تبقى من تراث الأمة مما أمكن الحصول عليه من المكتبات العامة، ومكتبات المدارس، ومكتبات المساجد، وغيرها من المكتبات داخل حدود كل دولة وترميمه والحفاظ عليه. كما سعت هذه الدول إلى المطالبة بما أخذ خارج حدودها قسراً ودون حق مشروع، ومحاولة استرجاعه كله أو جزء منه بالسبل الممكنة. ونذكر مثالاً واحداً على ذلك، وهو مطالبة المغرب بتراثها الذي استقر جوراً وقسراً في مكتبة دير الأسكوريال وغيرها من مكتبات إسبانيا[1]. ولعلنا في هذه العجالة نتساءل كما تساءل الأميني عن مسئولية نهب تراثنا العربي الذي تزخر به المكتبات الأوربية والأمريكية[2].

أما بالنسبة للمكتبات ودور الكتب والمحفوظات الوطنية، فقد أنشأت الحكومة العراقية في عام ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م مكتبة الأوقاف العامة بمدينة بغداد، ووضع فيها العديد من مجموعات الكتب والمخطوطات النفيسة التي كانت موزعة على بعض الجوامع والمدارس والتكايا البغدادية. ثم أضيف إليها، فيما بعد، خزائن أخرى بما في ذلك عدد من المكتبات الخاصة العائدة لبعض

(١) محمد عبد القادر أحمد، " دراسات في ... "، ص ص ٢١٥-٢١٦.

(٢) محمد هادي الأميني، " من المسئول.... "، ص ص ٢٥-٢٨.

العلماء العراقيين. وقد تحدث عن مكتبة الأوقاف العامة عدد من الكتّاب، منهم الجبوري، وطلس، وعواد(١). كما أنشد معروف الرصافي قصيدة رائعة في حفل افتتاحها، نذكر منها الأبيات التالية :

للمسلمين على نزورة وفرهم   كنز يفيض غنى من الأوقاف

كنز لو استشفوا به من دائهم   لتوجروا منه الدواء الشافي

ولو ابتغوا للنشء فيه ثقافة   لتثقفوا منـــه بخير ثقاف(٢)

وقد أنشأت الحكومة العراقية مكتبة مهمة أخرى وهي مكتبة المتحف العراقي التي تضم عدداً كبيراً من المخطوطات، بينها نوادر ونفائس مختلفة. وقد أوصلها عواد إلى ما يقارب عشرة آلاف مخطوط، وذلك في عام ١٣٩١هـ / ١٩٧١م. وقد تجمع هذا العدد الكبير نتيجة المكتبات الخاصة التي أهديت إليها، ومما اقتنته المكتبة نفسها من مخطوطات قيمة منذ إنشائها في أوائل الثلاثينات الميلادية(٣).

ونقرأ أيضاً عن دار الكتب الظاهرية بدمشق. وتعرف هذه المكتبة بأسماء أخرى منها الظاهرية، والمكتبة الظاهرية، والمكتبة العمومية، ودار الكتب

---

(١) كوركيس عواد، " تطور فهرسة... "، ص ص ١٢٣-١٢٧. أيضاً : عبد الله الجبوري، مكتبة الأوقاف العامة...، ص ص٤٧-١٠٧ ؛ والمستدرك على...، ص ص ١٥-٢٣. أيضاً : محمد أسعد طلس، الكشاف عن...، ص ص٢-٩.

(٢) عبد الله الجبوري، "مكتبة الأوقاف ونوادر... "، ص ٨٥.

(٣) كوركيس عواد، " تطور فهرسة... "، ص ص ١١٨-١٢٣.

الوطنية. وقد فتحت هذه المكتبة أبوابها لعامة المطالعين في عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م، وذلك بعد أن تمّ جمع كتبها ومخطوطاتها - باديءَ ذي بدء - من عشر مكتبات خاصة وعامة بمدينة دمشق. ولعل من أكثر النصوص - التي تناولت ظروف إنشاء هذه المكتبة - وقعاً وإيجازاً، ما ذكره أحد مديريها السابقين بقوله: «هبط دمشق أواخر القرن الماضي سنة ١٨٧٨ الوالي العثماني المشهور مدحة باشا، وهو رجل ذكي لامع، كان يحب الإصلاح والتجديد، فاهتم بأمر العلم والمعارف، ورأى أن ينشئ في دمشق مكتبة عامة على مثال المكتبات الموجودة في إستانبول عاصمة الدولة. فدعا بعض علماء البلد وأعيانه، وشاورهم في الأمر، ولما اتفق رأيهم على ذلك ألف منهم جماعة سماها الجمعية الخيرية، وكلفها أن تعمل على إنشاء المدارس والعناية بالتعليم والبحث عن الكتب وجمعها. فشرعت هذه الجمعية بجمع المخطوطات الموقوفة في مدارس دمشق المختلفة، ونقلتها إلى المدرسة الظاهرية بعد إصلاحها وإعدادها لذلك، ورتبتها في خزائن خاصة موضوعة في قبة ضريح الملك الظاهر على مثال خزائن المخطوطات في إستانبول تماماً. وما كاد مشروع المكتبة يتم حتى عزل الوالي مدحة باشا عن دمشق، وأقبل مكانه أحمد حمدي باشا. فتم الأمر في زمنه، وفتحت المكتبة أبوابها للقراء من طلاب العلم والباحثين، وسميت بالمكتبة العمومية»(١).

---

(١) عزة حسن، ص ٣٢.. أيضاً: عمر رضا كحالة، "مخطوطات دار..."، ص ص ٥-٧. أيضاً: أسماء الحمصي، ص ص ٣٣- ٤١.

وتعدّ دار الكتب المصرية من أهم وأكبر المكتبات الوطنية في العالم العربي. وقد أنشئت في عهد الخديوي إسماعيل باشا سنة ١٢٨٦هـ / ١٨٧٠م، وكان مقرها في درب الجماميز، ثم نقلت إلى مكانها الحالي بميدان أحمد ماهر باشا. ونمت مجموعات هذه المكتبة نمواً كبيراً وسريعاً نتيجة هدايا الكتب العديدة التي تلقتها من علماء وأدباء مصر، ومن ذلك الخزانة التيمورية. وفي المكتبة متحف كبير يضم بعض نفائس المخطوطات العربية، إلى جانب قسم المخطوطات الذي يحتوي على آلاف المجلدات القيمة[١]. وقد تناول السجل الثقافي لوزارة المعارف المصرية لعام ١٩٥١م ظروف نمو مجموعات هذه المكتبة في المراحل الأولى من إنشائها كالتالي: «وقد جمع لها علي مبارك باشا مدير المعارف حينذاك جملة من المخطوطات النفيسة، من المساجد والأضرحة ودور العلم، بلغ مجموعها ٣٠ ألفاً من المجلدات والمراجع والمجاميع؛ فكانت هذه المجموعة هي النواة الأولى لهذه الدار، ثم ضمت إليها مجموعة أخرى كان يقتنيها محمد علي باشا الكبير. وقد اشترى لها إسماعيل باشا من ماله الخاص مكتبة أخيه مصطفى باشا فاضل سنة ١٨٧٦م، وكان عدد مجلداتها ٣٤٥٨ مجلداً من نوادر المخطوطات. كذلك ضمت إليها فيما بعد جملة مكتبات: كالخزانة الزكية، ومكتبة طلعت باشا، ومكتبة تيمور، ومكتبة جلال الحسيني، ومكتبة حجاج. أما نواة الكتب الإفرنجية بالدار فقد تكونت من كتب الجمعية المصرية التي ألفها بعض الأجانب المشتغلين بالعلم في مصر[٢].

(١) محمد عجاج الخطيب، ص ٥٣.

(٢) وزارة المعارف المصرية، ص ١٠٣.

ولا تقتصر دور الكتب والمخطوطات الوطنية على مصر وسوريا والعراق. فقد وجد هذا النوع من المكتبات طريقه إلى معظم الدول العربية، وكان عاملاً فعالاً في المحافظة على التراث الفكري لتلك الدول. ففي مدينة الرباط أنشئت الخزانة العامة للكتب والوثائق، وهي المكتبة العامة للمغرب، ويوجد بها أقسام للمطبوعات والمخطوطات والوثائق الرسمية[١]. وفي مدينة تونس توجد دار الكتب الوطنية التونسية، التي أنشئت في عام ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م. وتحتوي هذه المكتبة على مخطوطات نفيسة نقلت إليها من عدة مكتبات تونسية عامة وخاصة، بما في ذلك المكتبة العتيقة بجامع القيروان[٢]. كما أنشئت المكتبة الوطنية أو الوطنية أو الأهلية الجزائرية، وعني كثيرون بتزويدها بالمخطوطات والكتب الثمينة التي أمكن المحافظة عليها إلى حين استقلال البلاد في عام ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م[٤]. وهناك أيضاً المكتبة الوطنية الليبية بمدينة طرابلس ودار الكتب الأردنية بمدينة عمان، وغيرهما[٤].

---

(١) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في..، ص ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ص ١٤١-١٤٤.

(٣) المصدر السابق، ص ص ١٥٩-١٦٠.

(٤) محمد عجاج الخطيب، ص ص ٤٧-٥٤.

خاتمـــة

لقد حث الإسلام دوماً أتباعه على طلب العلم، وعلى العمل بما تعلموا قدر استطاعتهم، وقد نادى بروح البصيرة والتنوير هذه رسول كان حسب كل الروايات أميّاً، وقد قدر له أن يكون يتيماً في مكة، وراعياً لغنمها في شبابه، وهو محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - قدر له أن يبلغ رسالة إلهية منزلة من السماء، تلك الرسالة التي كان لها قوة إقناع ألقت بعرب الجاهلية إلى عالم الشهرة والقيادة.

ولإيمانهم بتعاليم دينهم وجهود نبيهم المتواصلة، حرص المسلمون على إنشاء المدارس والمعاهد والمكتبات التي أثنى عليها العدو والصديق على مدار القرون الأربعة عشر الماضية، وقد ألف الكثير من الكتب والبحوث التي لا يحصى عددها عن مختلف جوانب تاريخ المسلمين وحضارتهم، وهذا الكتاب ما هو إلا جهد متواضع يهدف إلى إثراء معرفة الإنسان بجانب مهم ودقيق من حياة المسلمين وثقافتهم، ويؤمن المؤلف بأن الكثير ما يزال يمكن قوله عن التطور التاريخي لمكتبات المساجد وأثرها وإسهامها في تعليم المسلمين وتثقيفهم، وبصرف النظر عن مدى شمولية الكتاب، فأي كتاب مهما بلغ من التفصيل ليس متمّاً للموضوع، ولا يقول الكلمة الأخيرة فيه، فالبحث عن الحقيقة واستقصائها هو في حد ذاته محاولة لا نهائية.

قائمة المراجع العربية

أولاً: الكتب:

- الإبراشي، محمد عطية، **التربية الإسلامية وفلاسفتها**. ـ القاهرة: عيسى البابي، ١٩٦٩م.
- إبراهيم، عبد اللطيف، **دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية**. ـ القاهرة: دار الشعب، ١٩٦٢م.
- ابن الخطيب، لسان الدين، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تحقيق: أحمد مختار العبادي. ـ القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م.
- ابن الطقطقي، فخر الدين محمد بن علي، **الفخري في الآداب السلطانية والدول (الأمم) الإسلامية**، تحقيق: محمد عوض إبراهيم وعلي الجارم. ـ القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٢٣م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، أربعة مجلدات. ـ القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٢م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الأول. ـ بيروت: دار صادر، دار بيروت، ١٩٧٧م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، **أليس الصبح بقريب**. ـ تونس: المصرف التونسي للطباعة، ١٩٦٧م.

- ابن عثيمين، محمد بن صالح، **الضياء اللامع من الخطب الجوامع**، القسم الأول. ـ الرياض: الرئاسة العامّة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، **كتاب الفهرست**، تحقيق: غوستاف فلوجل، ليبزج: ١٨٧٢م.

(Gustav Flugel , Leipzig : Verlag Von F. C. W. Vogel , 1872 .)

- الأجهوري، علي بن محمد، **رسالة في فضل انشاء المساجد وعمارتها**، تحقيق: حسنين محمد مخلوف. ـ القاهرة: مصطفى البابي، ١٩٧١م.

- أحمد، سعد مرسي، وسعيد إسماعيل علي، **تاريخ التربية والتعليم**. ـ القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٢م.

- أحمد، محمد عبد القادر، **دراسات في التراث العربي**. ـ القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م.

- أحمد، منير الدين، **تاريخ التعليم عند المُسلمين والمكانة الإجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري**، مُستقاة من (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي، ترجمة سامي الصقار. ـ الرياض: دار المريخ للنشر، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م. ـ (هذا الكتاب هو ترجمة لكتاب Ahmed, Munir-ud-Din المذكور في قائمة المراجع الأجنبية).

- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله ابن عقبه، **أخبار مكة وما جاء فيها**

من أخبار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس. ـ مكة: دار الثقافة، ١٩٦٥م.

ـ الأكوع، اسماعيل ابن علي، وأحمد عبد الرزاق الرقيمي، ومحمد عبد الخالق الأمير، "صورة عن دار الكتب والمكتبات في اليمن ومراحل تطورها"، **قرارات وتوصيات وبحوث مؤتمر الإعداد البيليوجرافي للكتاب العربي، الرياض ٢٤ نوفمبر - ١ ديسمبر ١٩٧٣م**. ـ الرياض: وزارة المعارف، ١٩٧٤م.

ـ أمين، أحمد، **ضحى الإسلام**، المجلد الثاني. ـ القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م.

ـ با سلامة، حسين عبد الله، **تاريخ عمارة المسجد الحرام**، تحقيق: عمر عبدالجبار. ـ القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٦٤م.

ـ بروفنسال، إيفرست ليفي، **نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى**. ـ باريس: مطبوعات لاروز، ١٩٤٨م.

ـ تدمري، عمر عبد السلام، **تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك (من الفتح المنصوري حتى الآن: ٦٨٨ - ١٣٩٤هـ، ١٢٨٩ - ١٩٧٤م)**. ـ طرابلس: دار البلاد للطباعة والإعلام في الشمال، ١٩٧٤م.

ـ التقي الفاسي، أبو الطيب محمد ابن أحمد الحسني المكي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق: محمد حامد الفقي، المجلد الأول. ـ القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٨ - ١٩٦٩م.

ـ الجبوري، عبد الله، **المستدرك على الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب**

الأوقاف. ـ بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٦٥م.

ـ الجبوري، عبد الله، **مكتبة الأوقاف العامّة: تاريخها ونوادر مخطوطاتها**. ـ بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٦٩م. ـ

ـ الجراري، عبد الله ابن العباس، **تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا**. ـ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦١م.

ـ الجنحاني، الحبيب، **القيروان عبر عصور إزدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي**. ـ تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨م.

ـ جودت، صالح، **قصة الأزهر، رحاب العلم والإيمان**. ـ القاهرة: دار الهلال، ١٩٧٢م.

ـ حسن، حسن إبراهيم، **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب**. ـ القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م.

ـ حسن، عزة، " المخطوطات العربية وفهرستها في دمشق "، **الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة (الببليوغرافيا) والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية (دمشق) ٢ - ١١ اكتوبر ١٩٧١م**. ـ دمشق: مطبعة جامعة دمشق، ١٩٧٢م.

ـ حسين، محمد كمال، **إنتشار الإسلام وأشهر مساجد المُسلمين في العالم**. ـ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٦م.

ـ حمادة، محمد ماهر، **المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها**. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨م.

- الحمصي، أسماء، **المدرسة الظاهرية (دار الكتب الوطنية)**. - دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٩٦٧م.

- الخربوطلي، علي حسني، **الحضارة العربية الإسلامية**. - القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٦٢م.

- خطاب، محمود شيت، **الوسيط في رسالة المسجد العسكرية**. - بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١م.

- الخطيب، محب الدين، **الأزهر: ماضيه وحاضره والحاجة إلى إصلاحه**. - القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٤٥هـ، ١٩٢٦م.

- الخطيب، محمد عجاج، **لمحات في المكتبة والبحث والمصادر**. - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٦٩م.

- الخولي، علي محمد الشاذلي، **دور المساجد التاريخي في التثقيف العلمي**. - القاهرة: وزارة الأوقاف، ١٩٦١م. -

- دهمان، محمد أحمد، **ولاة دمشق في عهد المماليك**. - دمشق: المكتبة العمومية، ١٩٦٤م.

- رفعت، إبراهيم، **مرآة الحرمين**، المجلد الأول. - القاهرة: دار الكتب، ١٩٢٥م.

- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن بهادر، **إعلام الساجد بأحكام المساجد**، تحقيق: أبو الوفاء مصطفى المراغي. - القاهرة: دار التحرير، ١٩٦٥م.

- زكي، أحمد كمال، **الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني**

الهجري. ـ دمشق: دار الفكر، ١٩٧١م.
ـ الزياتي، سليمان رصد الحنفي، **كنز الجوهر في تاريخ الأزهر**. ـ القاهرة: الناشر غير معروف، ١٩٠٢م.
ـ زيدان، جرجي، **تاريخ آداب اللغة العربية**، راجعه وعلق عليه شوقي ضيف، المجلد الرابع. ـ القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٧م.
ـ سابق، السيد، **فقه السنة**، المجلد الأول. ـ جدة: مكتبة الخدمات الحديثة، ١٣٦٥هـ، ١٩٤٥م.
ـ سالم، السيد عبد العزيز، **تاريخ المُسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة**. ـ بيروت: دار المعارف، ١٩٦٢م.
ـ سامي، أمين، **التعليم في مصر في سنتي ١٩١٤م و ١٩١٥م**، المُلحق الخامس. ـ القاهرة: مكتبة المعارف، ١٩١٧م.
ـ السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المجلد الثاني. ـ القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٧ – ١٩٦٨م.
ـ الشامخ، محمد عبد الرحمن، **التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني**. ـ الرياض: المطابع الأهلية، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.
ـ شيخ أمين، بكري، **الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية**. ـ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٢م.

- ضيف، شوقي، **تاريخ الأدب العربي**، المجلد الثاني. ـ القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٧١-١٩٧٣م.
- طلس، محمد أسعد، **الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف**. ـ بغداد: مطبعة العاني، ١٩٥٣م.
- عبد البديع، لطفي، **الإسلام في إسبانيا**. ـ القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٦٩م.
- عبد الرحمن، عائشة، **تراثنا بين ماض وحاضر**. ـ القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٨م.
- عبد الجواد، محمد، **حياة مجاور في الجامع الأحمدي**. ـ القاهرة: مطبعة الإعتماد، ١٩٤٧م.
- عبد الوهاب، حسن، **تاريخ المساجد الأثرية التي صلى فيها فريضة الجمعة حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول**، المجلد الأول. ـ القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٦م.
- عبد الوهاب، حسن، **جامع السلطان حسن وما حوله**. ـ القاهرة: دار القلم، ١٩٦٢م.
- عبد الوهاب، حسن حسني، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، المجلد الأول. ـ تونس: مكتبة المنار، ١٩٦٤م.
- عنان، محمد عبد الله، **تاريخ الجامع الأزهر**. ـ القاهرة: مؤسسة الخانجي، ١٩٥٨م.

- عواد، كوركيس، **خزائن الكتب القديمة في العراق**. - بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٨م.

- عوف، أحمد محمد، **الأزهر في ألف عام**. - القاهرة: الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٠م.

- الفاسي، محمد، **التعريف بالمغرب: وهو مقدمة لتاريخ الأدب العربي بالمغرب الأقصى**. - القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١م.

- فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، المجلد الأول والثاني. - القاهرة: دار المعارف، ١٩٦١م.

- كرد علي، محمد بن عبد الرزاق، **خطط الشام**، المجلد الرابع والخامس والسادس. - دمشق: المطبعة الحديثة، ١٩٢٥ – ١٩٢٨م.

- كرد علي، محمد ابن عبد الرزاق، دمشق: **مدينة السحر والشعر**. - القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٤٤م.

- ماهر، سعاد، **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**، المجلد الأول. - القاهرة: الأهرام، ١٩٧١م.

- ماهر، سعاد، **مشهد الإمام علي في النجف وما به من الهدايا والتحف**. - القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م.

- معروف، ناجي، **أصالة الحضارة العربية**. - بغداد: مطبعة التضامن، ١٩٦٩م.

- معروف، ناجي، **تاريخ عُلماء المستنصرية**. ـ بغداد: مطبعة العاني، ١٩٥٩م.

- معروف، ناجي، **المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة**. ـ بغداد: مطبعة الإرشاد: ١٩٦٦م.

- المقري، أحمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الأول. ـ بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، تحقيق: أحمد علي المليجي، المجلد الثالث. ـ بيروت: دار العرفان، ١٩٥٩م.

- المنجد، صلاح الدين، **مسجد دمشق (ذكر شيء ممّا استقر عليه المسجد إلى سنة ٧٣٠هـ)**. ـ دمشق: المطبعة الهاشمية، ١٩٤٨م.

- منصور، عبد الحفيظ، **فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية بتونس (خزانة جامع الزيتونة)**. ـ بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٦٩م.

- النشار، علي سامي، وعبده الراجحي، وجلال أبو الفتوح، **فهرس مخطوطات المسجد الأحمدي بطنطا**. ـ الإسكندرية: مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٦٤م.

- وزارة المعارف المصرية، **السجل الثقافي، ١٩٥١م**. ـ القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥٣م.

- ياقوت الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين، **معجم البلدان**. ـ بيروت: دار صادر، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧م.

- يوسف، زكريا، **مخطوطات الموسيقى العربية في العالم**. ـ بغداد: مطبعة شفيق، ١٩٦٦ – ١٩٦٧م.

- يونس، عبد الحميد، وعثمان توفيق، **الأزهر**. ـ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٦م.

ثانياً: الدوريات:

- إبراهيم، عبد اللطيف، "مكتبة عربية في وثيقة عثمانية"، **مجلة المكتبة العربية**، مج ٢، ع ٣-٤، (١٩٦٥م)، ص ٦٠ – ٧٧.

- ابن دهيش، عبد اللطيف عبد الله، "مكتبات المدينة المنورة في العهد العثماني"، **مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية** (مكة المكرمة)، مج ٣، ع ٣، (١٣٩٧ – ١٣٩٨هـ)، ص ٧ – ١٤.

- أبو رقيق، صالح، "المخطوطات التي صورتها بعثة المعهد إلى الجمهورية العربية اليمنية"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٢٢، ع ١، (مايو ١٩٧٦م)، ص ٣ – ٦٧.

- أبو رقيق، صالح، "المخطوطات التي صورتها بعثة المعهد إلى المملكة المغربية"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٢٢، ع ٢، (نوفمبر ١٩٧٦م)، ص ١٧٥ – ٢٤٠.

- أحمد، محمد عبد العال، "المراحل التنفيذية لمشروع تجميع التراث اليمني"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٢٠، ع ١، (مايو ١٩٧٤م)، ص ١٦٧ – ١٨٠.

- أحمد، محمد عبد القادر، "المكتبة التونسية وعنايتها بالمخطوط العربي"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١٧، ع ١، (مايو ١٩٧١م)، ص ١٧٩–١٨٧.
- أحمد، يوسف أفندي، "الجامع الأزهر"، **المقتطف**، مج ٢٣، ع ١٠، (اكتوبر ١٨٩٩م)، ص ٧٥٨ – ٧٦٦.
- أمين، محمد محمد، "وثيقة وقف السلطان قايتباي على المدرسة الأشرفية وقاعة السلاح بدمياط"، **المجلة التاريخية المصرية**، مج ٢٢، (١٩٧٥م)، ص ٣٤٣ – ٣٩٠.
- الأميني، محمد هادي، "مكتبات النجف الأشرف بالعراق بين الماضي والحاضر"، **عالم المكتبات**، مج ٥، ع ٥، (سبتمبر – اكتوبر ١٩٦٣م)، ص ٢٨ – ٣٠.
- الأميني، محمد هادي، "من المسئول عن نهب تراثنا العربي الذي تذخر به المكتبات الأوربية والأمريكية؟"، **عالم المكتبات**، مج ٦، ع ٣، (مايو – يونية ١٩٦٤م)، ص ٢٥ – ٢٨.
- البدري، عبد الرزاق شاكر، "مكتبات سامراء قديمها وحديثها"، عالم المكتبات، مج ٦ ، ع ١، (يناير – فبراير ١٩٦٤م)، ص ٣٠ – ٣٣.
- البهي، محمد، "ستعود مكتبات المساجد إلى أمجادها القديمة مراكز للإشعاع الفكري العربي وللثقافة الإسلامية: أول برنامج لتدريب أمناء مكتبات المساجد في العالم العربي"، **عالم المكتبات**، مج ٥، ع ٢، (مارس – ابريل ١٩٦٣م)، ص ٦، ٣٧.
- البهي، محمد، "مكتبة الجامع الأزهر.....نواة لأضخم مكتبة إسلامية في الشرق"، **عالم المكتبات**، مج ١، ع ٤، (مايو – يونية ١٩٥٩م)، ص ٢٦ – ٣١.

- بيرم، محمد، "مدينة القيروان"، **المقتطف**، مج ٢١، (ابريل ١٨٩٧م)، ص ٢٤١ – ٢٤٦.
- التازي، عبد الهادي، "تاريخ بناء القرويين"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٣٩، ع ١، (يناير ١٩٦٤م)، ص ١٦٣–١٦٧.
- التنوخي، عز الدين، "من نوادر المخطوطات المغربية"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٣٣، ع ٤، (اكتوبر ١٩٥٨م)، ص ٦٨٣ – ٦٨٦.
- الجبوري، عبد الله، "مكتبة الأوقاف ونوادر مخطوطاتها"، **الأقلام**، مج ١، ع ٧، (مارس ١٩٦٥م)، ص ٨٥ – ٩٦.
- جلال، عبد الرحمن، " المخطوطات في معهد دمياط الديني "، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١، ع ١، (مايو ١٩٥٥م)، ص ٧١.
- الجلالي، محمد حسين الحسيني، " التحف من مخطوطات النجف "، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٢٠، ع ١، (مايو ١٩٧٤م)، ص ٣ – ٤٩.
- الحلوجي، عبد الستار، "نظرة على تاريخ الكتب والمكتبات عند العرب"، **مجلة الكتاب العربي**، مج ٥١، (اكتوبر ١٩٧٠م)، ص ١٢ – ١٧.
- الحيدري، صالح، "مكتبة الخلاني العامّة"، **عالم المكتبات**، مج ٥، ع ٢، (مارس – أبريل ١٩٦٣م)، ص ٢٨ – ٢٩.
- الحيدري، محمد، " مكتبة أهل البيت العامّة "، **عالم المكتبات**، مج ٤، ع ٦، (نوفمبر – ديسمبر ١٩٦٢م)، ص ٣٨ – ٣٩.

- الخطاط، قاسم، "تقرير عن بعثة معهد المخطوطات إلى المملكة العربية السعودية"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١٩، ع ٢، (نوفمبر ١٩٧٣م)، ص ٣٨٩ – ٤٠٩.
- الخطيب، أحمد محمد، "مخطوطات المكتبة الأحمدية بطنطا"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١، ع ١، (مايو ١٩٥٥م)، ص ٧٠.
- خيري، أحمد، "بعض المكتبات القيّمة الخاصّة التي كانت بمصر في هذا العصر واندثرت"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١٠، ع ١، (مايو ١٩٦٤م)، ص ١٨٥ – ١٩٠.
- الدجيلي، كاظم، "مكتبات النجف"، **لغة العرب**، مج ٣، ع ١١، (مايو ١٩١٤)، ص ٥٩٣ – ٦٠٠.
- الدروبي، إبراهيم، "مخطوطات المكتبة القادرية ببغداد"، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، مج ٦، (١٩٥٩م)، ص ١٨٩ – ٢٣٠.
- رؤوف، عماد عبد السلام، "الآثار الخطية في جامع السيد سلطان علي ببغداد"، **المكتبة**، نشرت في أكثر من عدد ما بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٠م.
- ريبيرا، خوليان، "المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية"، ترجمها إلى العربية جمال محمد محرز، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، نشرت في عددين: مج ٤، ع ١، (مايو ١٩٥٨م)، ص ٧٧ – ٩٦؛ مج ٥، ع ١، (مايو ١٩٥٩م)، ص ٦٩ – ١٠١.
- زيات، حبيب، "صحف الكتابة وصناعة الورق في الإسلام"، **المشرق**، نشرت في ثلاثة أعداد: مج ٤٨، ع ١، (يناير – فبراير ١٩٥٤م)، ص ٣ –

٣٠ ؛ مج ٤٨، ع ٤، ٥، (يوليو - اكتوبر ١٩٥٤م)، ص ٤٥٨ - ٤٩٨ ؛ مج ٤٨، ع ٦، (نوفمبر - ديسمبر ١٩٥٤م)، ص ٦٢٥ - ٦٥٣.

- الساداتي، أحمد محمود، "من تاريخ المكتبات عند العرب"، **مجلة الدراسات الإسلامية**، مج ١، ع ١، (يوليو ١٩٦٨م)، ص ١٨٣ - ١٩٢.

- سيد، فؤاد، "مخطوطات اليمن"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١، ع ٢، (نوفمبر ١٩٥٥م)، ص ١٩٤ - ٢١٣.

- سيد، فؤاد، "نصان قديمان في إعارة الكتب"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٤، ع ١، (مايو ١٩٥٨م)، ص ١٢٥ - ١٣٦.

- شبوح، إبراهيم، "سجل قديم لمكتبة جامع القيروان"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٢، ع ٢، (نوفمبر ١٩٥٦م)، ص ٣٣٩ - ٣٧٢.

- طلس، محمد أسعد، "المخطوطات وخزائنها في حلب"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١، ع ١، (مايو ١٩٥٥م)، ص ٨ - ٣٦.

- عبد الجبار، عبد الله، "المكتبات في قلب الجزيرة العربية"، **الأديب**، مج ٣٦، (يوليو ١٩٥٩م)، ص ٥٦ - ٥٩.

- عبد المطلب، محمد رشاد، وأحمد سالم عبد السلام، "تصوير المخطوطات من طنطا، والمنصورة، ودمياط"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٣، ع ٢، (نوفمبر ١٩٥٧م)، ص ٣٤٣ - ٣٤٥.

- عبد المطلب، محمد رشاد، وأحمد سالم عبد السلام، " تقرير عن بعثة معهد المخطوطات إلى المملكة العربية السعودية "، **مجلة معهد المخطوطات العربية**،

مج ١، ع ١، (مايو ١٩٥٥م)، ص ١٥١-١٥٦.

- عبد الوهاب، حسن حسني، "بيت الحكمة التونسي، بحث تاريخي في أول مؤسسة علمية جامعة في البلاد الأفريقية"، **مجلة مجمع اللغة العربية** (القاهرة)، مج ٣٠، (١٩٦٣-١٩٦٤م)، ص ١١٥-١٦٢.

- عبد الوهاب، حسن حسني، "الثقافة في تونس"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٢٨، ع ٤، (اكتوبر ١٩٥٣م)، ص ٥٣٤ - ٥٤١.

- عبد الوهاب، حسن حسني، "العناية بالكتب وجمعها في إفريقية التونسية (من القرن الثالث إلى الخامس للهجرة)"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١، ع ١، (مايو ١٩٥٥م)، ص ٧٢-٩٠.

- عريف، محمد خضر، "تاريخ مكتبة الحرم المكي"، **عالم الكتب**، مج ٤، ع ٤، (١٤٠٤هـ)، ص ٥٤٦-٥٥٠.

- عواد، كوركيس، "تطور فهرسة المخطوطات في العراق"، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، مج ٢٣، (١٩٧٣م)، ص ١١٠ - ١٥٦.

- عواد، كوركيس، " مدينة البصرة: مكتباتها ومخطوطاتها "، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١، ع ٢، (نوفمبر ١٩٥٥م)، ص ١٦٣-١٦٩.

- الفاسي، العابد، "خزانة القرويين ونوادرها"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٥، ع ١، (مايو ١٩٥٩م)، ص ٣ - ١٦.

- الفاسي، العابد، "المكتبات العامّة: مكتبة القرويين"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٥، ع ١، (مايو ١٩٥٩م)، ص ١٦٣-١٦٧.

- فروخ، عمر، "العلم في العصر الأموي"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٤٠، ع ١، (يناير ١٩٦٥م)، ص ١٤٥ - ١٥٢.
- فكري، أحمد، " شأة الفن الإسلامي والجامع الكبير بالقيروان"، **المقتطف**، مج ٨٦، ع ٥، (مايو ١٩٣٥م)، ص ٥١٦ - ٥١٩.
- الكتاني، محمد إبراهيم، "طبيعة دور المحفوظات في المغرب، وعلاقتها بدراسة تاريخ المغرب"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١٣، ع ٢، (نوفمبر ١٩٦٧م)، ص ١٩٥ - ٢١٠.
- كحاله، عمر رضا، "مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١، ع ١، (مايو ١٩٥٥م)، ص ٥ - ٧.
- كحاله، عمر رضا، "المنتخب من مخطوطات المدينة المنورة: المكتبة المحمودية"، **مجلة مجمع اللغة العربية** (دمشق) (سابقاً: **مجلة المجمع العلمي العربي**، دمشق)، نشرت في عددين: مج ٤٩، ع ١، (يناير ١٩٧٤م)، ص ٦٦ - ٧٣ ؛ مج ٤٩، ع ٢، (أبريل ١٩٧٤م)، ص ٣٧٧ - ٤٠٠.
- كرد علي، محمد ابن عبد الرزاق، " الكتب والمكاتب في الشام "، المقتطف، مج ٧٤، (مايو ١٩٢٩)، ص ٥٠٥ - ٥١١.
- كرسويل، (الكبتن)، "مسجد المنصور ببغداد"، **المقتطف**، ترجمها إلى العربية محمد رجب، مج ٨٦، ع ٣، (مارس ١٩٣٥م)، ص ٣٢٤ - ٣٢٩.
- الكعاك، عثمان، "المكتبات في ليبيا"، **عالم الكتب**، مج ٥، ع ٢، (مارس - أبريل ١٩٦٣)، ص ٧ - ٨، ٢٧.

- كنون، عبد الله، "المخطوطات العربية في تطوان"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١، ع ٢، (نوفمبر ١٩٥٥)، ص ١٧٠ – ١٨٩.

- الكيالي، سامي، "مخطوطات حلب"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١٣، ع ٢، (نوفمبر ١٩٦٧)، ص ٢١١ – ٢٢٣.

- الكيالي، عبد الرحمن، "المخطوطات الطبية بحلب: دراسة موجزة للمكتبات الموجودة في حلب وما فيها من المخطوطات الطبية"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٤٦، ع ٤، (أكتوبر ١٩٧١م)، ص ٦٧٢ – ٦٨١٦.

- ماهر، سعاد، "تطور العمائر الإسلامية بتطور وظائفها"، **المجلة التاريخية المصرية**، مج ١٨، (١٩٧١م)، ص ٥٥–٦٩.

- المحامي، ناجي جواد، "مكتبة الخلاني العامّة: خواطر وذكريات عن مكتبة الخلاني العامّة ببغداد"، **الأديب**، مج ٣٣، ع ٢، (فبراير ١٩٧٤م)، ص ٥٧ – ٥٨.

- محفوظ، حسين علي، " هرس الخزانة الغروية بالنجف"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٥، ع ١، (مايو ١٩٥٩م)، ص ٢٣ – ٣٠.

- المراغي، أبو الوفاء، "المخطوطات في المكتبة الأزهرية"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ١، ع ١، (مايو ١٩٥٥)، ص ٥٦ – ٦١.

- المراغي، أبو الوفاء، "كلمة تاريخية عن المكتبة الأزهرية"، **مجلة الأزهر**، نشرت في أكثر من عدد، ابتداءاً من مج ١٤، (١٩٤٣م)، ص ٢٧٤ – ٢٧٧، وحتى مج ١٥، (١٩٤٤م)، ص ٤١ – ٤٣.

- معروف، ناجي، "مدارس قبل النظامية"، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، مج ٢٢، (١٩٧٣م)، ص ١٠٣-١٥٦.
- المغربي، عبد القادر، "مخطوطات يمانية في خزانة كتب الإمام يحيى"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٢٨، ع ١، (يناير ١٩٥٣م)، ص ١٣٠ – ١٣٢.
- المنجد، صلاح الدين، "بعثة معهد المخطوطات إلى تونس"، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج ٢، ع ٢، (نوفمبر ١٩٥٦م)، ص ٣٩١ – ٣٩٤.
- المنجد، صلاح الدين، "حريق الجامع الأموي سنة ٧٤٠هـ"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٣١، ع ١، (يناير ١٩٥٦م)، ص ٣٥ – ٤٧.
- المنجد، صلاح الدين، "قرة العيون في أخبار باب جيرون"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٣٩، ع ٢، (أبريل ١٩٦٤م)، ص ٢٧٦ – ٢٩٤.
- المنجد، صلاح الدين، "وثيقة رسمية عن مدارس دمشق القديمة، ١٣٢٨هـ، ١٩١٠م"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٤٨، ع ٢، (أبريل ١٩٧٣م)، ص ٣٠٩ – ٣٢٢.
- المنجد، صلاح الدين، "الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٤٠، ع ١، (يناير ١٩٦٥م)، ص ٢٣٤ – ٢٥٦.
- المنوني، محمد، "ملامح من تطور المغرب العربي"، **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، مج ٥١، (اكتوبر ١٩٧٦م)، ص ٨٢٧ – ٨٨٢.
- ناجي، هلال، "نوادر المخطوطات في تونس"، **المكتبة**، نشرت في أكثر من عدد، ابتداءاً من مج ١١، (ديسمبر ١٩٧١م)، ص ١٣ – ١٤.

قائمة المراجع الأجنبية

أولاً: الكتب:

--- Abu Al-Eyoun, Mahmoud. Al-Azhar: ***A Short Historical Survey***, translated into English by Mustafa Taha Habib. Cairo : Al-Azhar Press, 1949.

--- Ahmed, Munir-ud-Din. ***Muslim Education and the Scholars' Social Status Up to the 5th Century Muslim Era (11th Century Christian Era) in the Light of Tarikh Baghdad***. Zurich : Verlag, Der Islam, 1968 .

(قام سامي الصقار بترجمته إلى اللغة العربية، وهذه الترجمة مذكورة في قائمة المراجع العربية) .

--- At-Tazi, Abd Al-Hadi. ***Eleven Centuries in the University of al-Qarawiyyin***, translated to English by Daoud Handiya. Mohammedia, Morocco : Ministry of Education, 1960 .

--- Brockelmann, Carl. ***History of the Islamic Peoples***. London : Routledge and Kegan Paul, 1956 .

--- Carter, Thomas F. ***The Invention of Printing in China and Its Spread Westward***. New York : Columbia University Press, 1931 .

--- Dodge, Bayard. ***Al-Azhar : A Millennium of Muslim Learning***. Washington, DC : The Middle East Institute, 1961 .

--- Dodge, Bayard. ***Muslim Education in Medieval Times***. Washington, DC : The Middle East Institute, 1962 .

--- Eche, Youssef. ***Les Bibliotheques Arabes, Publiques et Semi-Publiques en Mesopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen Age***. Damas : Institut Francais, 1967 .

--- ***Encyclopaedia of Islam***. Edited by H. A. R. Gibb and others, vols. 2 & 3. Leiden : E. J. Brill; London : Luzac & Co. , 1911 - 1938 .

--- Esin, Emil. ***Mecca the Blessed Madinah the Radiant***. New York : Crown Publishers, 1963 .

--- Gibson, Raymond C. ***The Challenge of Leadership in Higher Education***. Dubuque, Iowa : Wm. C. Brown Co. , 1964 .

--- Goitein, S. D. ***Studies in Islamic History and Institutions***. Leiden : E. J. Brill, 1968 .

--- Goldziher, I. " Education (Muslim) ", ***Encyclopaedia of Religion and Ethics***, edited by James Hastings and others. Edinburgh : Clark; New York : Scribner, 1908 - 1927; vol. 5 : 198 - 207 .

--- Hurgronje, C. Snouck. ***Mekka in the Latter Part of the 19th Century***, translated into English by J. H. Monahan. Leiden : E. J. Brill; London : Luzac & Co. , 1931 .

--- Kuban, Dogan. ***Muslim Religious Architecture***. Part 1: The Mosque and Its Early Development. Leiden : E. J. Brill, 1974 .

--- McMurtrie, Douglas C. ***The Book: The Story of Printing and Bookmaking***. London : Oxford University Press, 1967 .

--- Nakosteen, Mehdi. ***History of Islamic Origins of Western Education : A.D. 800 - 1350, with an Introduction to Medieval Muslim Education***. Boulder, Colorado : University of Colorado Press, 1964 .

--- Shalaby, Ahmad. ***History of Muslim Education***. Beirut : Dar al-Kashshaf, 1954 .

(تمّ اعتماد النصوص العربية الواردة في الترجمة العربية لهذا الكتاب، والتي أعدّها الدكتور أحمد شلبي تحت عنوان: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي: جوانب التاريخ والنظم والفلسفة، الطبعة الثامنة، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٧م).

--- Sibai, Mohamed Makki. ***An Historical Investigation of Mosque Libraries in Islamic Life and Culture*** (PhD Dissertation Presented to Indiana University) . Bloomington, Indiana, 1984.

--- Sibai, Mohamed Makki. ***Mosque Libraries : An Historical Study***. London : Mansell Publishing Limited, 1987 .

--- Tibawi, A. L. ***Islamic Education: Its Traditions and Modernization into the Arab National System***. London : Luzac & Co. , 1972 .

--- Totah, Khalil A. ***The Contribution of the Arabs to Education***. New York : Columbia University, 1926 .

--- Tritton, A. S. ***Materials on Muslim Education in the Middle Ages***. London : Luzac & Co. , 1957 .

--- Tug, Salih. " Early Educational Institutions in the Islamic World ", ***Actes du XXIXe Congres International des Orientalistes : Etudes Arabes et Islamiques*** (Proceedings of the 29th International Congress of Orientalists), vol. 4 (1975) : 208 - 217 .

ثانياً: الدوريات:

--- Alwaye, Mohiaddin. "The Acquisition of Knowledge is Obligatory on Every Muslim", ***Majallatu'l Azhar*** (Al-Azhar Magazine, English Section), vol. 48 (February 1976) : 1 - 4 .

--- Alwaye, Mohiaddin. "Al-Azhar ... In Thousand Years", ***Majallatu'l Azhar*** (Al-Azhar Magazine, English Section), vol. 48 (July 1976) : 1 - 6 .

--- Bashiruddin, S. "The Fate of Sectarian Libraries in Medieval Islam", ***Libri*** , vol. 17, no. 3 (1967) : 149 - 162 .

--- Bukhsh, S. Khuda. "The Educational System of the Muslims in the Middle Ages", ***Islamic Culture***, vol. 1 (July 1927) : 442 - 472 .

--- Bukhsh, S. Khuda. " The Islamic Libraries ", ***The Nineteenth Century and After***, vol. 52 (July 1902) : 125 - 139 .

--- Bukhsh, S. Khuda. " The Renaissance of Islam: The Savant ", ***Islamic Culture***, vol. 4 (April 1930) : 291 - 309 .

--- Deverdun, G. " Un Registre D'Inventaire et de Pret de la Bibliotheque de

la Mosquee Ali Ben Youssef ", ***Hesperis***, vol. 31 (1944) : 55 - 59 .

--- El-Bahay, Muhammad. "Al-Qarawiyeen University and How Far It Has Participated in the Preservation of the Characteristic Past Culture of Islam", ***Majallatu'l Azhar*** (Al-Azhar Magazine, English Section), vol. 33 (June 1961) : 7 - 16 .

--- Hamidullah, M. " Educational System in the Time of the Prophet ", ***Islamic Culture***, vol. 13 (January 1939) : 48 - 59 .

--- Inayatullah, Sh. " Bibliophilism in Mediaeval Islam ", ***Islamic Culture***, vol. 12 (April 1938) : 154 - 169 .

--- Khan, Muhammad Abdul Muid. " The Muslim Theories of Education During the Middle Ages ", ***Islamic Culture***, vol. 18 (October 1944) : 418 - 433 .

--- Landau, Rom. " The Karaouine at Fez ", ***The Muslim World***, vol. 48 (April 1958) : 104 - 112 .

--- Mackensen, Ruth Stellhorn. " Arabic Books and Libraries in the Umaiyad Period ", ***The American Journal of Semitic Languages and Literatures***, vol. 52 (July 1936) : 245 - 253 ; vol. 53 (July 1937) : 239 - 250 ; vol. 54 (October 1937) : 41 - 61 ; and vol. 56 (April 1939) : 149 - 157 .

--- Mackensen, Ruth Stellhorn. " Background of the History of Moslem Libraries ", ***The American Journal of Semitic Languages and Literatures,*** vol. 51 (January 1935): 114 - 125 ; vol. 52 (October 1935) : 22 - 33 ; and vol. 52 (January 1936): 104 - 110 .

--- Mackensen, Ruth Stellhorn. " Four Great Libraries of Medieval Baghdad", ***The Library Quarterly***, vol. 2 (July 1932) : 279 - 299 .

--- Mackensen, Ruth Stellhorn. "Moslem Libraries and Sectarian Propaganda", ***The American Journal of Semitic Languages and Literatures*** ,

vol. 51 (January 1935) : 83 - 113.

--- Mahmoud, Abdul Halim. "Islam and Knowledge", ***Majallatu'l Azhar*** (Al-Azhar Magazine, English Section), vol. 48 (September 1976): 5-10 .

--- Mahmud, Khalil. " The Influence of the Holy Quran on the Development of Libraries ", ***Nigeria Journal of Islam***, vol. 1, no. 2 (January - June 1971) : 11 - 22 .

--- Makdisi, George. " Madrasa and University in the Middle Ages ", ***Stvdia Islamica***, vol. 32 (1970) : 255 - 264 .

--- Pedersen, Johs. " Some Aspects of the History of the Madrasa ", ***Islamic Culture***, vol. 3 (October 1929) : 525 - 537 .

--- Pickthall, Marmaduke. " Muslim Education ", ***Islamic Culture***, vol. 1 (January 1927) : 100 - 108 .

--- Pinto, Olga. " The Libraries of the Arabs During the Time of the Abbasides ", translated to English by F. Krenkow, ***Islamic Culture***, vol. 3 (April 1929) : 210 - 243 .

--- Plancke, M. "Islamic Education in Tunisia (ca. 800 - 1574) ", ***Humaniora Islamica***, vol. 1 (1973) : 5 - 14 .

--- Rahman, Fazlur. " Pre - Foundations of the Muslim Community in Mecca", ***Stvdia Islamica***, vol. 43 (1976) : 5 - 24 .

--- Randall, William M. " Some Libraries of Cairo ", ***The Muslim World***, vol. 28 (July 1938) : 223 - 230 .

--- Saarda, S. J. C. " Origins of the Mosque 622 - 650 ", ***The Muslim World***, vol. 28 (October 1938) : 336 - 344 .

--- Semaan, Kh. " Education in Islam, from the Jahiliyyah to Ibn Khaldun", ***The Muslim World***, vol. 56 (July 1966) : 188 - 198 .

--- Shafi, Muhammad. " Libraries and Learning in the Muslim World ", ***Pakistan Library Review***, vol. 3 (March 1961) : 28 - 36 .

--- Tawfiq, Muhammad Amin. "A Glance at the Foundation History of Al-Azhar", ***Majallatu'l Azhar*** (Al-Azhar Magazine, English Section), vol. 46 (August 1974) : 9 - 15 .

--- Tibawi, A. L. "Muslim Education in the Golden Age of the Caliphate", ***Islamic Culture***, vol. 28 (July 1954) : 418 - 438 .

--- Tritton, A. S. "Muslim Education in the Middle Ages (Circa 600 - 800 A.H.)", ***The Muslim World***, vol. 43 (April 1953) : 82 - 94 .

--- Waardenburg, Jacques. "Some Institutional Aspects of Muslim Higher Education and Their Relation to Islam", ***Nvmen : International Review for the History of Religions***, vol. 12 (April 1965) : 96 - 138 .

****

الكشافات

١ ـ كشاف الآيات.

٢ ـ كشاف الأحاديث.

٣ ـ كشاف الأعلام.

٤ ـ كشاف الشعر.

٥ ـ كشاف الأماكن.

٦ ـ كشاف القبائل.

٧ ـ كشاف المساجد.

٨ ـ كشاف المكتبات.

١ـ كشاف الآيات

ـ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

(٢) **البقرة**: ١١٤، ص٢٧

ـ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد.

(٢) **البقرة**: ١٨٧، ص٣٣

ـ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم مافي أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور رحيم

(٢) **البقرة**: ٢٣٥، ص٨٣

ـ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل.. ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله.. والله بكل شيء عليم.

(٢) **البقرة**: ٢٨٢، ص٧٢

ـ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا.

(٤) **النساء**: ١٠٢، ص٨٣

ـ آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله.

(٤) **النساء**: ١٣٦، ص٨١

ـ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير.

(٥) **المائدة**: ١٥، ص٨٢

ـ ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء.

(٦) **الأنعام**: ١٥٤، ص٨٢

ـ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه.

(٦) **الأنعام**: ١٥٥، ص٨١

ـ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا.

(٦) **الأنعام**: ١٥٦، ص٨٢

ـ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون.

(٧) **الأعراف**: ٢٠٥، ص٢٨

ـ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

(٨) **الأنفال**: ٦٨، ص٨٣

ـ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين.

(٩) **التوبة**: ١٨، ص٢٧

ـ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم.

(١٥) **الحجر**: ٤، ص٨٢

ـ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

(١٧) **الإسراء**: ١، ص١٣٥

ـ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال.

(٢٤) **النور**: ٣٦، ص٣٢.

ـ قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم.

(٢٧) **النمل**: ٢٩، ص٨٢

ـ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون.

(٤١) **فصلت**: ٣٧، ص٢٧ ـ ٢٨

ـ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون

(٦٢) **الجمعة**: ٩، ص ٢٩

ـ وذكر اسم ربه فصلى

(٨٧) **الأعلى**: ١٥، ص٢٨

ـ إن هذا لفي الصحف الأولى،

٢- كشاف الأحاديث

٣- كشاف الأعلام

٤ - كشاف الشعر

كأن لم يكن كل ولا كان بعضه
سيمضي به عصر ويمضي المعاصر
ص١١٣

ـ دعـــوني من إحراق رق وكاغد
وقولو بعلم كي يرى الناس من يدري
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينـــزل إن أنزل ويدفن في قبري
ص٢٦٢

ـ أيها المستعير مني كتاباً
ارض لي منه ما لنفسك ترضى
ص٢١٢

ـ للمسلمين على نزورة وفرهم
كنز يفيض غنى من الأوقاف
كنز لو استشفوا به من دائهم
لتوجـــروا منه الدواء الشافي
ولـــو ابتغوا للنشء فيه ثقافة
لتثـــقفوا منه بخــــير ثقاف
ص٢٦٥

ـ يا حبذا مكتبة قد جمعت
العلم فيها كتب لطائف
يعم أرباب العلوم نفعها
فكل طالب عليها عاكف
كأنها للطـالبين مـــــورد
فكـل راو من نداها غارف
أنعم بها من نعمة قد عرفت
للطـف وإلينا بها عوارف
ص١٦٦

ـ ليس المدامة مما أستريح له
ولا مجاوبة الأوتار والنغم
وإنما لذتي كـــتب أطالعه
وخادمي أبداً في تصرفي قلمي
ص٢٠

ـ هي كتبي وليس تصلح بعد
ي لغير العطار والإسكافي
هي إما مزاود العقا
قيـــــر أو بطائن الخفاف
ص٧٤

ـ ذا جامع فيه رياض التقى
مـزهــرة فليعمل العامل
مكتبة فيه لأهــل الهدى
ينال من جوهرها السائل
على التقى مذ تم أرخته
قـد نار هـذا المسجد الكامل
ص٢٠٤

٥ - كشاف الأماكن

٦ـ كشاف القبائل

٧ـ كشاف المساجد

٧ـ كشاف المكتبات